



جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي (الأدب والرفاق) في
صحيح البخاري وأثرها في بناء الشخصية المسلمة
(دراسة تحليلية)

إعداد

سمية عبدالرحمن عبد الجابر طوافشة

إشراف

د. محمد الجيطان

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول الدين (عام)، من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين.



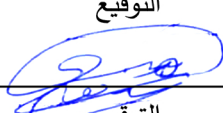
2024

الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي (الأدب والرقاق) في
صحيح البخاري وأثرها في بناء الشخصية المسلمة
(دراسة تحليلية)

إعداد

سمية عبدالرحمن عبد الجابر طوافشة

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2024/10/15 م، وأجيزت:

 التوقيع	د. محمد الجيطان
 التوقيع	المشرف الرئيسي د. موسى البسيط
 التوقيع	الممتحن الخارجي د. حذيفة بدير
	الممتحن الداخلي

الإهداء

إلى من ببرهما أرتقي الدرجات، وبوجودهما تستتير دروب الحياة، إلى داعمي من أول خطوة، والدي

الحبيبان.

إلى من أستند عليهم، وأتكئ بعرجي إليهم -العضد والتّصير- من تحمّلوا الآهات، وفرّجوا الكربات، ومضوا

معي حتى بلوغ الغايات، إخوتي وحبّة العين.

إلى صحبة الخير، من مدّوا إليّ العون بابتسامة صادقة، وكلمة داعمة، من جعلوا لي من أوقاتهم نصيبا

بالنّصح والإرشاد، من كان دعاؤهم سرّ توهّجي، وسبب ثباتي.

إلى مسرانا الحبيب، لعلّ هذه الحروف زيتا يسرح في قناديله.

إلى أسرانا وشرف أمتنا فرّج الله بالعرّ كربهم.

إلى غزّتنا الشامخة، من أعادت للأمة عزّتها، من علّمتنا معاني الصبر والثبات في سبيل العقيدة، وأنّ

الدنيا غابرة، نصرهم الله نصرًا مؤزرا.

إلى أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصّته.

إلى المستضعفين من المسلمين في شتّى بقاع الأرض.

الشكر

اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات والأرض وما بينهما، حمد الشاكرين الذاكرين، أن علمتنا وهديتنا ولعلم الشريعة اصطفيتنا، أما بعد:

أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان للدكتور الفاضل محمد راغب الجيطان، الذي أرشدني لاختيار هذا الموضوع، وتفضل علي بالإشراف، وتقديم التوجيهات اللازمة حتى أتممت هذا الدراسة، فجزاه الله عني خير الجزاء، وبارك في جهده وعمله، ونفعنا بعلمه.

كما أتوجه بالشكر والامتنان إلى أعضاء لجنة المناقشة الدكتور موسى البسيط والدكتور حذيفة بدير لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الدراسة فجزاهما الله عني كل خير.

ثم الشكر موصول لدكاترتي الذين علموني في هذا الصرح المبارك من كان لهم الفضل علي حتى أتممت مسيرتي التعليمية، نفع الله بهم، وأجزلهم عطاء وإحسانا.

فاللهم كما يسرت لنا بلوغنا النهاية، بلغنا مقصودنا بالعون والهداية.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي (الأدب والرقاق) في صحيح البخاري وأثرها في بناء الشخصية المسلمة

(دراسة تحليلية)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: **سمية عبدالرحمن عبد الجابر طوافشة**

التوقيع: **سمية طوافشة**

التاريخ: **2024/10/15**

فهرس المحتويات

الإهداء	ج
الشكر	د
الإقرار	هـ
فهرس المحتويات	ز
الملخص	ك
المقدمة	1
أهمية الدراسة	2
مشكلة الدراسة	2
أهداف الدراسة	3
منهج الدراسة	3
الدراسات السابقة	3
الفصل الأول: مدخل إلى مفاهيم الدراسة	7
المبحث الأول: مفهوم الأبعاد التربوية، وأنواعها	7
المطلب الأول: مفهوم الأبعاد التربوية	7
المطلب الثاني: أنواع الأبعاد التربوية	9
المبحث الثاني: مفهوم الترجمة، وأنواعها في صحيح الإمام البخاري	12
المبحث الثالث: التعريف بكتابي الأدب والرقاق، في صحيح البخاري	15
المطلب الأول: التعريف بكتاب الأدب	15
المطلب الثاني: التعريف بكتاب الرقاق	16
الفصل الثاني: الأبعاد الإيمانية، والأخلاقية، والنفسيّة في كتابي الأدب والرقاق	17

- 17.....المبحث الأول: الأبعاد الإيمانية في كتابي الأدب والرقاق وأثرها في بناء شخصية المسلم.....
- 18.....المطلب الأول: تربية النفس على الإخلاص، واستحضار النية في كل عمل.....
- 21.....المطلب الثاني: الموازنة بين الخوف والرجاء.....
- 27.....المطلب الثالث: التوكل على الله.....
- 29.....المطلب الرابع: الحصانة من الافتتان بالدنيا والتنافس فيها.....
- 39.....المطلب الخامس: اعتزال الناس عند الفتن لمن خاف على دينه.....
- 41.....المطلب السادس: الاستعداد للقاء الله.....
- 49.....المطلب السابع: التيسير على الناس، والتحذير من المغالاة والتشديد على النفس والغير.....
- 52.....المطلب الثامن: التفكير في آيات الكون.....
- 54.....المطلب التاسع: الحب في الله والبغض في الله.....
- 56.....المطلب العاشر: الاقتداء بأهل الخير والصلاح. (صناعة القدوات).....
- 59.....المطلب الحادي عشر: الحرص على فعل المعروف وإن قل.....
- 60.....المطلب الثاني عشر: ذكر الله على كل حال.....
- 63.....المبحث الثاني: الأبعاد الأخلاقية في كتابي الأدب والرقاق.....
- 63.....المطلب الأول: الوفاء، وحفظ العهد.....
- 64.....المطلب الثاني: الحث على الرفق والتحلي به.....
- 67.....المطلب الثالث: السخاء، واجتناب الشح والبخل.....
- 68.....المطلب الرابع: الحث على التواضع، والنهي عن الكبر.....
- 70.....المطلب الخامس: التحلي بالصدق، واجتناب الكذب.....
- 73.....المطلب السادس: التحلي بالحياء.....
- 75.....المطلب السابع: التحلي بالأمانة.....

77	المطلب الثامن: حفظ اللسان
79	المبحث الثالث: الأبعاد النفسية في كتابي الأدب والرقاق
80	المطلب الأول: الرضا، وترويض النفس على القناعة
83	المطلب الثاني: مجاهدة النفس
86	المطلب الثالث: تربية النفس على الصبر
88	المطلب الرابع: تجنب الغضب
92	الفصل الثالث: البعد التربوي الاجتماعي، وأثره في بناء شخصية المسلم
92	المبحث الأول: المحافظة على تماسك الأسرة
92	المطلب الأول: مفهوم تماسك الأسرة
93	المطلب الثاني: أسس تماسك الأسرة
112	المبحث الثاني: التكافل الاجتماعي
123	المبحث الثالث: تحقيق التراحم بين أفراد المجتمع
127	المبحث الرابع: تحقيق التعاون بين أفراد المجتمع
128	المبحث الخامس: كف الأذى عن المسلمين
129	النوع الأول: كف الأذى النفسي
147	المبحث السادس: ترسيخ العدالة في المجتمع المسلم، واجتناب الظلم
152	المبحث السابع: التأخي بين المسلمين
154	الفصل الرابع: أثر الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق في بناء شخصية المسلم
154	المبحث الأول: معالم بناء الشخصية المسلمة من خلال تراجم كتابي الأدب والرقاق
154	الفرع الأول: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد الإيمانية
157	الفرع الثاني: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد النفسية

160	الفرع الثالث: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد الأخلاقية.....
162	الفرع الرابع: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد الاجتماعية.....
163	الفرع الخامس: حسن إدارة الأزمات في الحياة.....
165	المبحث الثاني: صفات البناء التربوي للشخصية المسلمة من خلال التراجم.....
169	المبحث الثالث: معيقات البناء التربوي للشخصية المسلمة في تراجم كتابي الأدب والرفاق.....
173	الخاتمة.....
174	التوصيات.....
175	المصادر والمراجع.....
B.....	Abstract

الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي (الأدب والرفاق) في صحيح البخاريّ

وأثرها في بناء الشخصية المسلمة

(دراسة تحليلية)

إعداد

سمية عبدالرحمن عبد الجابر طوافشة

إشراف

د. محمد الجيطان

الملخص

هدفت الدراسة إلى الوقوف على الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرفاق في صحيح البخاري؛ لبيان أثرها في بناء الشخصية المسلمة، سالكة الباحثة منهجي الاستقراء والتحليل، وقد قُسمت الدراسة إلى أربعة فصول: الأول وهو عبارة عن مدخل إلى مفاهيم الدراسة، والثاني: جاء فيه الوقوف على الأبعاد الإيمانية، والنفسيّة، والأخلاقية. والثالث يُسط فيه الحديث عن الأبعاد الاجتماعية؛ لأنه يعتبر أسّ الأبعاد في كتابي الأدب والرفاق. وأما الرابع فقد تمّ فيه بيان معالم شخصيّة المسلم في ضوء الأبعاد الأربعة.

ومن أهم النتائج التي تضمنتها الدراسة: وضوح النظرية التربوية للشخصية المسلمة من خلال أحاديث كتابي الأدب والرفاق عند الإمام البخاري، وفي ذلك بيان شمولية الفكر النبوي في علم البخاري من خلال تراجمه، وقد برز البعد التربوي الإيماني عند البخاري، من خلال تربية النفس على الإخلاص، والتوكل على الله، والحصانة من فتنة الدنيا والتنافس فيها. وبرز البعد التربوي الأخلاقي من خلال خلق الوفاء وحفظ العهد، وحفظ اللسان، والتحلي بالحياء، والتحلي بالصدق. وأما البعد النفسي فقد برز من خلال تجنب الغضب، ومجاهدة النفس، وتربية النفس على الصبر، والرضا وترويض النفس على القناعة. وكذا البعد الاجتماعي الذي ظهر من خلال تحقيق التماسك الأسري، والتكافل الاجتماعي، وكف الأذى عن المسلمين.

وقد توصلت الدراسة بعد تحليل أثر الأبعاد التربوية الإيمانية، والأخلاقية، والنفسيّة والاجتماعية في كتابي الأدب والرّفاق أنّ من صفات البناء التربوي للشخصيّة المسلمة، الشمول والتكامل، والثبات، والمرونة، والإيجابية السويّة، وأنّ من أهمّ معيقات ذلك الانجرار وراء الشيطان، وحبّ الدنيا، والشهوات، والجهل الذي هو نقيض العلم.

الكلمات المفتاحيّة: الأبعاد، التربويّة، التراجم، الأدب، الرّفاق، الشخصيّة المسلمة.

المقدمة

الحمد لله جليل النعم، عظيم المنن، باعث الهمم، ذي الجود والكرم، عَمَّ بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم،
والصلاة والسلام على السراج المنير، المبعوث رحمة للعالمين، بَلَّغ الرسالة، ونصح الأمة وجاهد في الله
حق جهاد، أما بعد:

فإن المطَّع لحال الأمة اليوم، وخطورة ما آلت إليه من جهل وظلام، وانغماس في الملذات، وانسياق وراء
الشهوات، بل والأعظم من ذلك انهيار منظومة الأخلاق، يدرك حاجتها الماسة للرجوع إلى مصادرها
الأصلية المتمثلة في كتاب الله وسنة نبيه، فالقرآن حوى كل ما يلزم الإنسان من مبادئ تربوية تكميه وتنشئه
نشأة حسنة، وتجعل منه فردا سوياً يسعى لتطوير نفسه ومجتمعه، والسنة جاءت مجسدة لهذه المبادئ؛
فكان الجيل الأول الذي صنعه النبي صلى الله عليه وسلم خير جيل على وجه الأرض، وهذا ما ميّز
التربية الإسلامية عن غيرها أنها تربية شاملة متكاملة تتطلق من وحي القرآن والسنة؛ لتسمو بالنفس
الإنسانية في مختلف مجالات الحياة.

ولما حظيت السنة بهذه المكانة فقد سخر الله لها كوكبة من العلماء الذين بذلوا قصارى جهدهم لحفظ هذا
الميراث العظيم، وعلى رأس هذه الكوكبة أمير المؤمنين في الحديث وأفقهم (الإمام البخاري)، الذي يعد
كتابه أصح الكتب بعد كتاب الله، ومن عظيم ما نقرده به في جامع (التراجم)، هذه التراجم التي حيرت
العقول وأدهشت الأبصار لدقة فهم وفقه صاحبها، واستنباط المسائل من حديث رسول الله بطريقة لم يسبقه
إليها أحد، بل وتبرز أيضا عبقريته في بيان ما في هذه التراجم من فكر تربوي جعلت من كتابه منهلا
يستقي منه كثير من المربين والمصلحين؛ حتى اشتهر بين العلماء قول: "فقه البخاري في تراجمه".

وجاءت هذه الدراسة بعنوان: الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق في صحيح البخاري
وأثرها في بناء الشخصية المسلمة ، وتناولت الدراسة كتابي الأدب والرقاق، لما يحويانه في طياتهما من

توجيهات تربوية، لا يستقيم حال المسلم إلا بها، سواء في علاقته مع ربه، أم علاقته مع الخلق، فتصبغ المسلم بالصبغة التي فطره الله عليها .

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في الأمور الآتية:

1. قلة الدراسات التي تناولت تراجم صحيح البخاري بالتحليل من حيث الأبعاد المتضمنة فيها.
2. ربط المربين والمصلحين بالمنهاج التربوي الإسلامي، الذي لا صلاح للأمة ولا رشاد لها إلا به، ثم ربط الناشئة بينابيعها الصافية، وحمايتها من المذاهب الفكرية الهدامة.
3. الاستجابة لتوصيات الباحثين في تناول القضايا التربوية، التي جاءت مبنوثة في مصنفات علماء المسلمين سيما صحيح البخاري لما يتمتع به من مكانة علمية كبيرة عند علماء الأمة.

حدود أو محددات الدراسة

حدد الباحث دراسته بالحدود الآتية:

1. "تراجم كتابي الأدب والرقاق " في كتاب "الجامع الصحيح" للإمام البخاري رحمه الله.
2. اقتصرت الدراسة على استنباط أبرز الأبعاد التربوية من تراجم الكتابين، متمثلة بالأبعاد الإيمانية، والأخلاقية، والنفسية، والاجتماعية، ولا يعني ذلك عدم وجود غيرها.
3. انتقاء الترجمة الأقرب إلى المضمون التربوي؛ لصعوبة استيعاب جميع التراجم، وإيراد الأحاديث التي أوردها البخاري تحت الترجمة، حتى لا تطول الدراسة.

مشكلة الدراسة

قامت الدراسة بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق، في صحيح البخاري؟
2. ما أنواع الأبعاد التربوية التي تضمنتها تراجم كتابي الأدب والرقاق، في صحيح البخاري؟
3. ما أثر الأبعاد التربوية المستنبطة من كتابي الأدب والرقاق على بناء الشخصية المسلمة؟

أهداف الدراسة

تمثلت أهداف الدراسة فيما يلي:

1. الوقوف على الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق في صحيح البخاري.
2. بيان أنواع الأبعاد التربوية المستنبطة من كتابي الأدب والرقاق، في صحيح البخاري.
3. الكشف عن أثر الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق، في بناء الشخصية المسلمة.

منهج الدراسة

اقتضت طبيعة الدراسة اعتماد المناهج الآتية:

1. المنهج الاستقرائي: وذلك من خلال استقراء تراجم كتابي الأدب والرقاق من صحيح البخاري وسبرها من حيث النوع، إضافة إلى جمع الدراسات التي اعتنت بالجانب التربوي والمتعلقة بتراجم صحيح البخاري، وأقوال العلماء التي أشارت إلى ذلك.
2. المنهج التحليلي: وذلك من خلال النظر والتحليل لتراجم كتابي الأدب والرقاق من صحيح البخاري، ومحاولة الوقوف على أبعادها التربوية بعد الاطلاع على شروحات الصحيح، والكتب المختصة بدراسة التراجم وأبعادها التربوية.

الدراسات السابقة

بعد البحث والتتقيب، وفي حدود اطلاع الباحثة فإننا لم نقف على دراسة متعلقة بالأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق من صحيح الإمام البخاري، وأثرها في بناء الشخصية المسلمة، وما وجدته الباحثة من الدراسات ذات الصلة كانت على النحو الآتي، ومن أهم تلك الدراسات:

الدراسة الأولى: دراسة بعنوان "المبادئ التربوية المتضمنة في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري رحمه الله. للزهراي"¹، وقد هدفت الدراسة لإبراز مكانة الإمام البخاري وصحيحه، ثم إبراز أهم المبادئ التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الأدب في صحيح البخاري، وبيان دور الأسرة في تطبيق هذه المبادئ .

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: ضرورة تعليم القرآن والسنة والعلوم الشرعية في وقت مبكر لما له أثر كبير في التربية، وأن السنة النبوية منهج حياة متكامل فهي غزيرة بالمبادئ التربوية، وأن التربية الإسلامية تهدف إلى تقوية الروابط بين أفراد المجتمع المسلم وتماسكه، وأن الأساس الأول في تربية المبادئ في نفوس الناشئة هي الأسرة، فهي البيئة الاجتماعية الأولى للفرد.

الدراسة الثانية: دراسة بعنوان: "التوجيهات التربوية المستفادة من المنهاج النبوي في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري لطالبات المرحلة الثانوية، للباحث ولي"²، وهدفت الدراسة إلى بيان التوجيهات التربوية المستفادة من المنهاج النبوي في أحاديث كتاب الأدب من صحيح البخاري، وبيان منهجه صلى الله عليه وسلم في تلك التوجيهات التربوية المستنبطة من كتاب الأدب. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: أن التربية النبوية تعطي اهتماما كبيرا بالجانب الاجتماعي لأثره البارز في تنشئة الفرد وتكوين شخصيته وسلوكه، وأن التربية النبوية تربط المجتمع بشبكة من العلاقات الاجتماعية، وتغطي كل مساحة فيها بأكرم العلاقات وأنزهها، وكذلك فإن التوجيهات التربوية النبوية ليست خاصة بفئة معينة بل تشمل جميع أفراد المجتمع، وفي الختام أظهرت الدراسة أن التوجيهات النبوية تمنح طلبة الثانوية التكامل، والثبات، والشمول، في علاقتها مع خالقها ونفسها ووالديها، وأفراد المجتمع المسلمين منهم، وغير المسلمين.

¹ الزهراي، سعاد بنت سعيد بن درويش، المبادئ التربوية المتضمنة في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، رسالة ماجستير، إشراف: د. حامد بن سالم الحربي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، كلية التربية بمكة المكرمة، 2005 م.

² ولي، نور بيكم بنت محمد حسين، التوجيهات التربوية المستفادة من المنهاج النبوي في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري لطالبات المرحلة الثانوية، رسالة دكتوراة، إشراف: د. عبدالله حريزي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1432هـ.

الدراسة الثالثة: دراسة بعنوان "القيم ودلالاتها التربوية من كتاب الرقاق في صحيح البخاري، للباحث الصغير"¹، هدفت الدراسة إلى الكشف عن القيم التي احتوتها الأحاديث الواردة في كتاب الرقاق من صحيح البخاري، وما يترتب عليها من دلالات تربوية تسهم في بناء الفرد روحياً واجتماعياً وخلقياً، وبالتالي قوة ورقي المجتمع، ثم أوصت الباحثة بضرورة نشر القيم الإسلامية وزرعها في النفوس عن طريق البرامج والأنشطة التي تساعد على ذلك.

الدراسة الرابعة: دراسة بعنوان "المضامين التربوية في كتابي الإيمان والرقاق من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، للباحث بارشيد"²، هدفت الدراسة إلى إبراز القيمة التربوية لكتابي الإيمان والرقاق، واستنباط المضامين التربوية من الأحاديث الواردة فيهما، ثم بيان كيفية تفعيل هذه المضامين في واقعنا التربوي المعاصر، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: أنّ السنة النبوية شاملة لجميع جوانب التربية الإنسانية. وأنّ أحاديث كتابي الإيمان والرقاق أوضحت عمق فهم الإمام البخاري وحسن اختياره، لما تحويه هذه الأحاديث من دلالات وإرشادات تربوية تربي الإيمان وتنميته، وترقق القلوب، وتخضعها إلى باريها، ومن ثم التنبيه على العوائق التي تعيق الإيمان، وسبل الوقاية منها وعلاجها. وأنّ الانضباط في الأعمال والالتزام بالوقت من أهم الأولويات التي يجب أن نتربى عليها، فهي من أهم الأسباب المؤدية إلى رقي الأمة وحضارتها.

الدراسة الخامسة: دراسة بعنوان "الأبعاد التربوية في تراجم كتاب التهجد في صحيح الإمام البخاري، للباحثين الجيطان، وعودة"³، وقد هدفت الدراسة إلى بيان أنواع التراجم في كتاب التهجد في صحيح الإمام البخاري، وبيان الأبعاد التربوية المستنبطة منها.

¹ الصغير، خلود قاسم محمد، القيم ودلالاتها التربوية من كتاب الرقاق في صحيح البخاري، رسالة ماجستير، إشراف د. أحمد ضياء الدين حسين، الأردن، جامعة اليرموك، 2014م.

² بارشيد، عبد الله محمد، المضامين التربوية في كتابي الإيمان والرقاق من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، رسالة ماجستير، إشراف د. أحمد عبد الفتاح ضليبي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1425هـ.

³ الجيطان، محمد راغب، عودة، شيرين محمد، الأبعاد التربوية في تراجم كتاب التهجد في صحيح الإمام البخاري، بحث محكم، مجلة العلوم الشرعية، المملكة العربية السعودية، 2023م.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: فقه الإمام البخاري في تراجم كتاب التهجد بجميع أنواعها، خاصة التراجم الظاهرة الواردة بالصيغة الخبرية الخاصة، والدقة في استنباطها. تضمن كتاب التهجد ثلاثة أبعاد تربويّة، وهي:

1. البعد التربوي الاجتماعي وتمثّل في المسؤوليّة، والتهيئة.
2. البعد التربوي النّفسي وتمثّل في الاعتدال والتوازن، والإحسان في العبادة، واغتنام الوقت.
3. البعد التربوي الأخلاقي وتمثّل في الصبر، واليسر والرحمة، وشكر الله تعالى.

وأَنَّ هذه الأبعاد بمجموعها تصبو إلى الوقوف بين يدي الله باعتدال وتوازن وإحسان، واغتنام المسلم لوقته ليلاً بالعبادة، بعد ضبط النّفس، وترويضها بالصبر رجاء رحمة الله.

والجديد في دراستي وإن كان هناك بعض التداخل في بعض الأفكار خاصة فيما يتعلق بالرقاق، أنها تناولت الأبعاد التربويّة المستنبطة من خلال التراجم لا من خلال أحاديث الأبواب والاعتماد أساساً عليها، وهذا ما لم تتحدّث عنه أيّ من الدراسات السابقة، خاصة تلك الدراسات المتعلقة بكتابي الأدب والرقاق.

الفصل الأول

مدخل إلى مفاهيم الدراسة

المبحث الأول: مفهوم الأبعاد التربوية، وأنواعها

المطلب الأول: مفهوم الأبعاد التربوية

أولاً: معنى البعد لغة واصطلاحاً.

- البعد لغة: البعد مشتق من بَعَدَ، وهو خلاف القرب. يقال: بَعُدَ الرَّجُلُ، بِالضَّمِّ، وَبَعِدَ، بِالْكَسْرِ، بُعْدًا وَبَعْدًا¹. كما ويُطلق على عدة معانٍ منها:

1. الرأي والحزم، قال الزبيدي: يقال: إنه لذو بعد، أي: لذو رأي وحزم².

2. اتساع المدى، قال صاحب المعجم الوسيط: "البعد اتساع المدى"³.

ومما سبق يُلاحظ أن معنى البعد لغة ذات صلة مباشرة بالدراسة، فهي تقوم على النظر فيما وراء الترجمة من معاني وهذا متمثل بخلاف القرب، واتساع المدى.

- البعد في اصطلاح العلماء: بعد الاطلاع على كتب الفكر التربوي، فقد وجدت الباحثة أنّ معنى البعد عند العلماء جاء بعدة باعتبارات، منها:

1. "الجوانب التي تبرز أطراف نظرية التربية الإسلامية ومعالمها العامة التي تتميز بها عن غيرها"⁴.

2. باعتبار التأثير: "فالبعد الاجتماعي للتربية يعني بصفة خاصة بدراسة مدى تأثير البيئة الاجتماعية

على الطفل النامي"⁵.

¹ انظر، ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الروفيعي (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر - بيروت، (ط3- ١٤١٤ هـ)، (89/3).

² الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأبناء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت أعوام النشر: (١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ) = (١٩٦٥ - ٢٠٠١ م)، (435_433/7).

³ مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، المعجم الوسيط، الناشر: دار الدعوة، ١٤٣١هـ، (63/1).

⁴ يالجن، مقداد، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، (ط2_1411 هـ)، دار عالم الكتب، الرياض، (27/1).

⁵ يس، نبيه (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٩ م) : أبعاد متطورة للفكر التربوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، (54)

3. باعتبار الأسس والجوانب، "فإن هذا الإطار - الفكر الفلسفي - يكون مستنداً عادة إلى أبعاد عقلية وسياسية ودينية دون الأبعاد الاقتصادية"¹.

4. باعتبار الجوانب التربوية المرافقة، "فالجوانب التربوية المرافقة لأحكام الزواج والطلاق والآثار التربوية الناتجة عن تطبيقها"².

فمعنى البعد اصطلاحاً: "ما ينتج عن المسافة المقطوعة من آثار حسية أو معنوية، قريبة أو بعيدة، وما تنتهي إليه هذه المسافات من أهداف تستحق الوقوف والتأمل"³.

ثانياً: مفهوم التربية لغة واصطلاحاً.

• التربية لغة: التربية اسم مشتق من "الرب"، وتطلق على معانٍ عدة:

الأول: "إصلاح الشيء والقيام عليه. فالرب: المالك، والخالق، والصاحب والمصلح للشيء. يقال رب فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها. والله جل ثناؤه الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه.

الثاني: لزوم الشيء والإقامة عليه، يقال أربت السحابة بهذه البلدة، إذا دامت.

الثالث: ضم الشيء للشيء، ومنه سمي العهد رباية لأنه يجمع ويؤلف⁴.

كما وأضاف ابن منظور معانٍ أخرى للتربية غير ما ذكره ابن فارس:

1. السياسة وتولي الأمر: ورببت القوم: سستهم أي كنت فوقهم.

2. التربية والتعليم: فالرباني من الرب، بمعنى التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم، قبل كبارها.

والرباني: العالم الراسخ في العلم والدين⁵.

¹ يس، أبعاد متطورة للفكر التربوي، (476).

² بدح مجدي، الأبعاد التربوية لأحكام الزواج والطلاق في ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، (٢٠٠١ م)، ص: (8).

³ الفلاح، عبد الباري الغفافي، الأبعاد التربوية للسؤال في القرآن الكريم، (مقاربة تربوية)، إشراف الدكتور: سعيد القنطري، تطوان، جامعة عبد الملك السعدي، 2015_2016، (24).

⁴ ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، (383-381/2).

⁵ ابن منظور، لسان العرب، (400_404).

وبعد النظر في معاني (ربّ)، فقد تبيّن أن معنى التربية يشمل كل هذه المعاني السابقة.

• التربية في اصطلاح العلماء: لا يبعد معنى التربية اصطلاحا، عن معناها اللغوي، فهي كذلك

تتضمن معاني الإصلاح والحفظ والرعاية والنماء والسياسة والتعليم، فمن تعريفاتها:

قال صاحب "المفردات في غريب القرآن": "الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام"¹. وقال الحازمي، هي: "تنشئة الإنسان شيئا فشيئا في جميع جوانبه، ابتغاء سعادة الدارين، وفق المنهج الإسلامي"². وعُرفت بأنها: "علم إعداد الإنسان المسلم لحياتي الدنيا والآخرة إعداد كاملا من الناحية الصحية، والعقلية، والعلمية، والاعتقادية، والروحية، والأخلاقية، والاجتماعية، والإرادية، والإبداعية، في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام وفي ضوء أساليب، وطرق التربية التي بينها"³.

وعليه فالتعريف المختار للأبعاد التربوية: مجموعة المدلولات التربوية التي تتضمنها تراجم الأبواب في كتابي الأدب والرفاق، في جميع جوانبها الإيمانية، والأخلاقية، والنفسيّة، والاجتماعية.

المطلب الثاني: أنواع الأبعاد التربوية.

إن للتربية أبعادا متعددة تسهم في بناء الفرد، وصقل شخصيته في مختلف المجالات، وليس هدف الباحثة تجليتها كاملة، بل الاقتصار على ما له صلة بأهداف الدراسة، وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: الأبعاد الإيمانية (العقدية)، ويُقصد بها: الآثار والجوانب التربوية التي يعكسها الجانب الإيماني على سلوك الإنسان وحياته، بالإضافة لما يجده الإنسان من الثواب العظيم في آخرته جزاء الاعتقاد الصحيح الذي هو شرط لقبول العمل⁴.

¹ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن،

المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، (ط1 - ١٤١٢ هـ)، (336).

² الحازمي، خالد بن حامد، أصول التربية الإسلامية، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع (ط1/1420هـ)، (19).

³ يالجن، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، (437).

⁴ انظر: الحازمي، أصول التربية الإسلامية، (112).

ويعتبر هذا الجانب من أهم الجوانب التربوية؛ "فهو أصل الدين وبناء الأمة، فكلما تمسكت الأمة بعقيدتها، كانت متماسكة قوية ملتزمة بالسلوك الذي اقتضته العقيدة، إذ أنها القوة الدافعة إلى أعمال إيجابية وغايات سامية، وهي الطاقة التي بقدرها يتحمل الأفراد مسؤولياتهم، ويلتزمون بأعمالهم"¹. ويشير قطب إلى أن محور العملية التربوية في الإسلام هي الصلة الدائمة بين العبد وربّه، حيث قال يقول: "فالعقيدة هي القضية الكبرى، ومنها يستمد نظام الحياة كله"². لذا فالعلاقة تكاملية بين العقيدة والتربية، فسلامة الجانب العقدي يقتضي سلامة الجوانب الأخرى.

النوع الثاني: الأبعاد النفسية، ويُقصد بها: الجوانب التي تُعنى بالحفاظ على سلامة الصحة النفسية، وصياغة النفس صياغة صحيحة سليمة، والارتقاء بها من الهبوط والانزلاق في مزالق الشر، بالإضافة إلى الاهتمام بالأعمال القلبية، فالقلب هو محل نظر الرب سبحانه وتعالى³.

ويعتبر الجانب النفسي من الجوانب المهمة التي يعتمد عليها في بناء النفس الإنسانية؛ لما له أكبر الأثر في تعديل سلوك الفرد واستقامته، وتحقيق التوازن الذاتي والتركيز النفسية التي تعتبر من أهم مقاصد الإسلام. فمعرفة الإنسان لنفسه تعينه على ضبط أهوائها، وحمايتها من الانحراف والضلال، وإرشادها إلى الإيمان والعمل الصالح، والسلوك القويم الذي تتحقق به الحياة الآمنة المطمئنة للإنسان في الدنيا والآخرة⁴. قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَوَدَّ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ [الشمس:7-10]، " والنفس لا تستعصي على الارتفاع حين تجد التوجيه والترغيب، ولكنها حين تُترك وشأنها، أو حين تجد المغريات الدائمة للهبوط، فلا شك أنها تهبط حتى تصل إلى مستوى الحيوان"⁵.

¹ انظر: بالجن، مقدار، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، (ط1/1406_هـ1986م)، (1/144).

² قطب، محمد، منهج التربية الإسلامية، (دار الشروق_ القاهرة)، (ج1/36).

³ انظر: السعدي، عبد الفتاح أحمد عبد الحي، وبستان، المتولي علي شحات، الأبعاد التربوية الأخلاقية في التشبيهات القرآنية: سورة الكهف أنموذجاً، جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، مجلة القلم، (ع 21)، (ديسمبر_2020).

⁴ انظر: نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، (ط7_1421هـ)، (22-23).

⁵ قطب، محمد، (1400_هـ1980م)، الإنسان بين المادية والإسلام، ط4، دار الشروق، (221).

والجوانب النفسية تدرس سلوك الإنسان وأفكاره وانفعالاته، وتأثر الإنسان بذاته وبيئته، وتأثيره فيهما¹. فالنفس كالجسد تتأثر بالظروف المحيطة، والأمراض النفسية لا تقل أهمية عن الأمراض الجسدية، بل قد تكون أشد تأثيراً في الحد من سلوك الإنسان وعطائه. والمنهج الإسلامي يقوم على التوازن بين الجانبين الروحي والمادي للإنسان بما يضمن له الصحة النفسية.

النوع الثالث: الأبعاد الأخلاقية، ويُقصد بها: "الجوانب التي تُعنى بدراسة السلوك الإنساني، ومنظومة القيم الموجهة له، فالأخلاق في الإسلام هي: منظومة القيم والتوجيهات الإسلامية، التي تصلح شأن الجماعة المسلمة، وتنظم سلوك الفرد المسلم تجاه ذاته والآخرين، بقصد تحقيق السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة"². ويعتبر هذا البعد التطبيق العملي والثمره للبعد العقائدي، فالأخلاق تبنى على العقائد، ومن وحي نصوصها تتدفق مكارم الأخلاق.

وإنّ علم الأخلاق ليس مقتصرًا فقط على التربية الأخلاقية، بل يشمل كل أنواع التربية ووجوه النشاط الإنساني، فلا ينفصل عن أي عمل تربوي كان أم غير تربويًا. إلا أنّ علاقته بالتربية الأخلاقية هي أشد وأقوى، فغايتها الأساسية هي السلوك الرشيد، والأخلاق الحميدة³.

النوع الرابع: الأبعاد الاجتماعية، ويُقصد بها: الجوانب التي تُعنى بتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع، وترسيخ الأسس والقواعد التي ينطلق منها أفرادها في تعاملهم مع غيرهم، والتي تقوم على تقوى الله والإيمان به⁴. وفي ظلال ذلك يقول سيد قطب: "وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، والمجتمع الإنساني العالمي الذي تحاول البشرية في خيالها المحلّق أن تحقق لونهاً من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم، الطريق إلى الله، و لأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعّة، راية

¹ انظر: النشاوي، محمد السيد عبد العظيم، الجوانب النفسية لقصة موسى في ضوء القرآن الكريم، دراسة تفسيرية موضوعية، جامعة الأزهر - مصر، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية، ع39، (1527_1528).

² خطاطية، عدنان مصطفى، الأصل الأخلاقي للتربية الإسلامية وانعكاساته التربوية، (دراسة تأصيلية)، جامعة اليرموك - الأردن، قسم الدراسات الإسلامية - كلية الشريعة، مجلة العلوم التربوية، العدد3، (شوال_ 1436هـ)، (395).

³ انظر: دراز، محمد عبد الله، كلمات في مبادئ علم الأخلاق، المطبعة العالمية، القاهرة، (1372_1953)، (39-40).

⁴ انظر: مسعود، زياد محمد حسن، الأبعاد التربوية لمفهوم الولاء والبراء في الإسلام، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور حمدان عبدالله الصوفي، الجامعة الإسلامية - غزة، كلية التربية، (2003م)، ص (6) .

الله¹. فالجانب الاجتماعي هو الذي يتناول علاقة الإنسان بالمجتمع، وهو الذي يهيء الفرد المسلم للتعایش الإيجابي مع المجتمع².

وهذه الأبعاد هي موضوع الدراسة، حيث بتكاملها تتكامل شخصية المسلم المتزنة، لما لها من دور في إعداد الإنسان المؤمن الصالح الإيجابي الفاعل، المؤثر على مستوى نفسه، وأسرته، ووطنه، وكذلك بناء منظومة القيم، التي هي الأساس في بناء المجتمعات وانهيارها.

المبحث الثاني: مفهوم الترجمة، وأنواعها في صحيح الإمام البخاري

إن من أهم أسباب تقديم الصحيح على غيره من كتب السنة ليس اقتصاره على ما صحَّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسب، بل ما حواه من تراجم كشفت عن فطنته وذكائه وبراعته في الفقه والاجتهاد، يقول ابن حجر: "وكذلك الجهة العظمى الموجبة لتقدمه، وهي ما ضمنه أبوابه من التراجم التي حيرت الأفكار، وأدهشت العقول والأبصار، وإنما بلغت هذه الرتبة وفازت بهذه الخطوة، لسبب عظيم أوجب عظمها"³.

أولاً: معنى الترجمة لغة، واصطلاحاً.

جاء معنى (الترجمة) في معاجم اللغة على معنيين: الأول: المفسر للسان، قال ابن منظور: "ترجم: التَرْجُمَانُ والتَّرْجَمَانُ: المفسر للسان، التَرْجُمَانُ، بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ: هُوَ الَّذِي يُتَرَجَّمُ الْكَلَامُ أَي يَنْقُلُهُ مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى"⁴.

¹ قطب، سيد (1966)، في ظلال القرآن، الناشر: دار الأصول العلمية-تركيا، (ط1/1440هـ-2019م)، (3349_3348).

² انظر: أبو لحية، نور الدين، الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد، القاهرة، دار الكتاب الحديث، (247).

³ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379، حققه: محب الدين الخطيب، (13/1).

⁴ ابن منظور، لسان العرب، (66/12).

الثاني: البيان والتوضيح، "ترجم الكلام أي بيّنه ووضحه"¹.

أما الترجمة في اصطلاح العلماء، فهي: "عنوان الباب الذي تساق فيه الأحاديث"²، قال ابن الصلاح: "قد أطلقوا على قولهم باب كذا وكذا اسم الترجمة؛ لكونه يعبر عن ما يذكر بعده"³.

وبهذا تتضح قوة الترابط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، فكما أن الترجمة لغة معناها التفسير والبيان، فكذلك تراجم الأبواب تفسير وبيان لما يورد تحتها من أحاديث، وهذا ما أوضحه ابن الصلاح حيث يقول: "وليست الترجمة مخصوصة بتفسير لغة أخرى، وقد أطلقوا على قولهم باب كذا وكذا اسم الترجمة؛ لكونه يعبر عن ما يذكر بعده"⁴.

وعليه فالمقصود بتراجم البخاري: العناوين التي بوبّ بها البخاري أحاديث الصحيح.

ثالثاً: أنواع التراجم في صحيح البخاري.

رغم كثرة المؤلفات التي تناولت تراجم صحيح البخاري بالبحث والدراسة⁵، إلا أنه لم يوجد تقسيم دقيق ضبط أنواع تراجم الصحيح، كصنيع الدكتور نور الدين عتر -رحمه الله-، الذي برع في بيان أنواعها، على نحو لم يسبقه إليه غيره، بالإضافة لما أعقبه من توجيهات أفادت كل من ألف في التراجم بعده، وهذه الأنواع هي⁶:

¹ مصطفى، المعجم الوسيط، (83/1).

² الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني، (ت 1182هـ)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (ط1_ 1997م)، (44/1).

³ ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين (ت 643هـ)، صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط، المحقق: موفق عبدالله عبدالقادر، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، (ط2، 1408هـ)، (153).

⁴ ابن الصلاح، صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط، (153).

⁵ من أهم هذه المؤلفات: "المتواري على تراجم أبواب صحيح البخاري" لناصر الدين أحمد بن المنير (683هـ). "ترجمان التراجم على أبواب صحيح البخاري" لعبد الله بن رشيد الشبتي (721هـ). "مناسبات تراجم البخاري" للفاضل بدر الدين بن جماعة (733هـ). "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" لسراج الدين عمر بن علي ابن الملقن (804هـ). "فيض الباري على صحيح البخاري"، لمحمد أنور شاه الكشميري (1353هـ). "شرح تراجم أبواب صحيح البخاري" لشاه ولي الله الدهلوي (1176هـ). "الأبواب والتراجم لصحيح البخاري" لمحمد زكريا الكاندهلوي (1402هـ).

⁶ انظر: عتر، نور الدين محمد، الإمام البخاري وفقه التراجم في جامعه الصحيح، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، ع 4، 1406هـ_ 1985 م، (74_87).

1. التراجيح الظاهرة: وهي المطابقة للأحاديث الواردة تحتها مطابقة ظاهرة، من غير حاجة إلى إعمال

فكر، وهدفها الإخبار بما ورد في ذلك الباب¹، ومسلك البخاري فيها كما يلي:

أ. الترجمة بصيغة خبرية عامة: وهي الدالة على مضمونها بوجه عام يحتمل معان عدّة، ويُعين المراد بما

يُذكر تحتها من أحاديث، وفائدتها، الحديث بشكل عام عن مضمون الباب، ليصل القارئ بنفسه إلى

المعنى المطلوب². ومثالها: (باب: في الأمل وطوله)³.

ب. الترجمة بصيغة خبرية خاصة بمسألة الباب: وهي الدالة على مضمونها بوضوح، دون أي احتمال،

وفائدتها: أنّ دليل الحكم، والفائدة التي أوضحتها الترجمة موجودة في الحديث، وأن المؤلف مختار لها

إذا كانت المسألة خلافية بين العلماء. ومثالها: (باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها)⁴.

ج. الترجمة الاستفهامية: "وهي الترجمة المصوغة بعبارة من عبارات الاستفهام، بقصد إثارة انتباه القارئ

وإعمال فكره، "وغرضه بيان ثبات ذلك الحكم أو نفيه، فيترجم على الحكم، ومراده ما يفسر بعد من

إثباته أو نفيه، أو أنه محتمل لهما"⁽⁵⁾. ومثالها: (باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم

وأصحابه وتخليهم من الدنيا)⁶

د. الترجمة المقتبسة: وهي جعل لفظ الحديث المروي في الباب، كله أو بعضه ترجمة له، وقد تكون

مقتبسة من آية قرآنية أو أثراً عن الصحابة فمن بعدهم. ومثالها: (باب: لا تحقرن جارة لجارتها)⁷.

2. التراجيح الاستنباطية: وهي التي تحتاج إلى إعمال فكر، لبيان مطابقتها لمضمون الباب، والهدف منها،

شحذ الأذهان، والتدريب على الاستنباط، وإعمال الفكر وصولاً للنتيجة. ومثالها: (باب: حسن العهد

من الإيمان)⁸.

¹ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (13/1).

² المرجع السابق، (13/1).

³ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي (194_256 هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، الناشر: دار طوق النجاة-بيروت، (ط1/1422هـ)، كتاب الرقاق، (89/8).

⁴ المرجع السابق، (90/8).

⁵ القسطلاني، أحمد بن محمد (ت: 923هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر (ط7/1323هـ) (24/1).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (96/8).

⁷ المرجع السابق، كتاب الأدب، (10/8).

⁸ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (8/8).

3. التراجم المرسلّة: وهي التراجم التي تُركت بلا عنوان يدل على مضمونها، واكتُفي فيها بلفظ (باب)، وهي تحتمل وجهين: إما أنّ مضمون الباب متصل بالباب الذي يسبقه مكمل له، أو أنّ مضمون الباب يحوي فائدة تتصل بأصل موضوع الكتاب الذي تفرعت منه الأبواب.

4. التراجم المفردة: هي التراجم التي يجعلها البخاري في باب من الأبواب، ولا يضمنها شيئاً من الحديث للدلالة عليها، يقول ابن حجر: "وربما اكتفى أحياناً بلفظ الترجمة التي هي لفظ حديث لم يصح على شرطه وأورد معها أثراً أو آية، فكأنه يقول لم يصح في الباب شيء على شرطي"¹. ومثالها: (باب: يستقبل بأطراف رجليه القبلة قاله أبو حميد الساعدي عن النبي صلى الله عليه وسلم)².

المبحث الثالث: التعريف بكتابي الأدب والرقاق، في صحيح البخاري.

إنّ موضوع الآداب الرقاق من المواضيع التي شغلت مساحة رحبة في كتب المحدثين، فقد تضافرت الأحاديث التي أولتها العناية البالغة؛ لما لهما من آثار هامة في بناء الشخصية المسلمة، وكان ممن سار على هذا النهج إمام المحدثين: البخاري رحمه الله.

المطلب الأول: التعريف بكتاب الأدب.

أولاً: معنى الأدب

قال أبو زيد³: "الأدب: اسم لكل رياضة محمودة، يتخرج بها الرجل إلى كلّ فضيلة من الفضائل"⁴. وهو: "الأخذ بمكارم الأخلاق، والوقوف مع المستحسنات، وتعظيم من فوقك والرفق بمن دونك"⁵. وقصدُ البخاري من إطلاق كتاب الأدب هو: جمع ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث متعلقة بالآداب، والأخلاق، ونحوها، وترتيبها ترتيباً موضوعياً.

¹ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (14/1).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، (162/1).

³ أبو زيد، سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن أبي زيد الأنصاري، (119_215هـ)، من كبار الصحابة، وممن حفظ القرآن كله في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن، نزل البصرة، واختط بها، ثم قدم المدينة، فمات بها. انظر، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ - 1985م، (1/335-336).

⁴ الكشميري، أمالي محمد أنور شاه بن معظم شاه الهندي ثم الديوبندي (1303هـ)، فيض الباري على صحيح البخاري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهبي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، (ط1، 1426هـ - 2005م)، (6/118).

⁵ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (10/400).

ثانيا: عدد ما اشتمل عليه كتاب الأدب من الأبواب والأحاديث.

كتاب الأدب من حيث الترتيب هو الكتاب الثامن والسبعين (78) من صحيح الإمام البخاري، اشتمل على (128) ثمانية وعشرين بابا ومئة، وأما عدد أحاديثه فبلغت (256) ستة وخمسين حديثا بعد المائتين¹.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب الرقاق.

أولا: مفهوم الرقاق

يطلق على عموم الطريقة والسلوك، وكل ما يتلطف به سر العبد، وتزول به كثافات النفس²، وقيل هو: "كل ما يرقق القلوب ويؤدي إلى تأثرها بما يُلقى عليها، وما تسمعه وما تطلع عليه من المواعظ الربانية والنبوية، فتصبح لينة رقيقة رحيمة بنفسها وبغيرها"³.

وقصدُ البخاري من إطلاق كتاب الرقاق: ترجمة لكل ما تحققه أحاديث النبي _صلى الله عليه وسلم_ من اللين والرقّة في القلب، وترتيبها ترتيبا موضوعياً.

ثانيا: عدد ما اشتمل عليه كتاب الرقاق من الأبواب والأحاديث.

كتاب الرقاق في الترتيب هو الكتاب (81) الواحد والثمانين من صحيح البخاري، تبلغ عدد أبوابه (53) ثلاثة وخمسين بابا، وأما عدد أحاديثه (181) مئة وواحد وثمانين حديثاً⁴.

فالنّظر في صحيح البخاري، يلمح الدّقة والبراعة التي تميز بها الإمام البخاري في تأليف كتابه، ففي ترتيبه للكتب والأبواب من الدقائق العلمية التي لا يدرك سرّها إلا الحفاظ المحدثين؛ فلا عجب من ابن راهويه عندما أدخله على الأمير عبد الله بن طاهر، فقال عنه: "ألا أريك سحرا، فنظر فيه عبد الله، فتعجب منه وقال: لست أفهم تصنيفه"⁵.

¹ البخاري، صحيح البخاري، (88/8-121).

² الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف(ت ٨١٦هـ)، التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ط1 ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (111).

³ بارشيد، المضامين التربوية في كتابي (الإيمان و الرقاق) من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، (186).

⁴ البخاري ، صحيح البخاري، (1598_1634).

⁵ الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (٥٧٤هـ) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1،(2003م)،(147/6).

الفصل الثاني

الأبعاد الإيمانية، والأخلاقية، والنفسيّة في كتابي الأدب والرقاق

ولقد قسمت الباحثة الفصل الثاني إلى ثلاثة مباحث، الأول: تحدّث عن الأبعاد الإيمانية، الثاني: تحدّث عن الأبعاد الأخلاقية، والثالث: تحدّث عن الأبعاد النفسية، وأما الفصل الثالث فقد أفردته الباحثة بالأبعاد الاجتماعية؛ لأنّ الشخصية الاجتماعية للمسلم ما هي إلا نتاج البناء الإيماني السليم، والذي يستند إلى منظومة الأخلاق، والنفس السوية، والتي تعتبر من أهم الأسس في بناء شخصية المسلم الاجتماعية، إضافة إلى أنّ البعد الاجتماعي في تراجم الإمام البخاري في كتابي الأدب والرقاق أخذ مساحة واسعة، فكان الأفضل إفراده بفصل خاص حتى يتم إبرازه، فهو ثمرة الأبعاد الثلاثة السابقة، وجوهرها.

المبحث الأول: الأبعاد الإيمانية في كتابي الأدب والرقاق وأثرها في بناء شخصية المسلم.

استطاع الإمام البخاري ومن خلال تراجم كتابي الأدب والرقاق-على وجه الخصوص- أن يصوغ لنا أبعاداً إيمانية رقيقة توجّه بوصلة العبد للأخرة، وتصرف نظره عن الدنيا؛ فلا ينحرف أمام شهواتها الفانية؛ لأنها تسهم في تقويم سلوك العبد، وتبعث على استقامته، إضافة إلى أنها لا تقتصر في مقاصدها على ترتيب علاقة العبد مع خالقه، بل تمتد لتشمل ترتيب علاقة العبد مع نفسه، ومجتمع هـ ، وقد تجلّت أبعادهما الإيمانية على النحو الآتي:

المطلب الأول: تربية النفس على الإخلاص، واستحضار النية في كل عمل.

حرص الإمام البخاري أن يذكر المؤمنين بتوجيهه بوصلة العمل لله، وعدم الحياد عن ذلك مهما كلف المؤمن من جهد ومجاهدة، وسطر ذلك في ثلاثة أبواب: (باب العمل الذي يُبتَغَى به وَجْهُ اللَّهِ)، و (باب الرِّياءِ وَالسُّمْعَةِ)، و(باب مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ)

فالإخلاص أولى شروط قبول أي عمل، فلا تقبل الأعمال إلا إن كانت خالصة لله لا يشوبها أي شائبة، فالمسلم يبتغي وجه الله في كل عمله، وفي كل خطوة يخطوها فهمه الوحيد هو رضا الله لا رضا الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5] ولقد ذكر القرطبي في تفسيره لهذه الآية أنها دليل على وجوب النية في العبادات، فالإخلاص من عمل القلب الذي يرد به وجه الله لا غيره¹، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "العَمَلُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى.."². فالكَيْس من جعل من عاداته عبادات، بتجديد نيته في كل أمر يقومه، فتستحب في كل شيء، حتى في الأكل والنوم³.

وفي الحث على وجوب تربية النفس على الإخلاص، ترجم البخاري: (باب العمل الذي يُبتَغَى به وَجْهُ اللَّهِ) وقد أورد البخاري هذا الباب بعد (باب: مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمْرِ) لئلا يخطئ من قصر فهمه، بأن من بلغ الستين من العمر وهو غير تائب نفذ عليه الوعيد، بل ليزرع الأمل فيه بأن باب التوبة مفتوح ما لم تغرغر الروح، فعن عتبان بن مالك رضي الله عنه، قال غدا علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "لَنْ يُؤَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ"⁴

¹ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري(671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية-القاهرة، (ط1384هـ-1964م)، (20/144).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والنجسة، حديث رقم (54)، (20/1).

³ انظر: ابن المبارك، عبد الله المروزي(ت 181 هـ)، الزهد والرفاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: محمد عفيف الزعبي، (64/195).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: العمل الذي يُبتَغَى به وَجْهُ اللَّهِ، حديث رقم (6422)،(8/90).

ليبين أن من ينطق الشهادة مهما بلغ العمر سنتين أو أكثر يبتغي بها وجه الله لا غيره، فقد حرم الله عليه النار¹.

وكما أن الإخلاص سبب قبول الأعمال، وسبب الأجر عليها، فهو أيضا سبب نجاته العبد من الوقوع في الذنوب والفواحش، يقول ابن القيم: "وليس للعبد دواء أنفع من الإخلاص، وهو الدواء المقصود في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ وَمَنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، فكان الإخلاص سبب نجاته عليه السلام من الفحشاء"².

فعلى العبد ألا يفتخر بعمله مهما بلغ، وأن يستشعر تقصيره مهما بلغت عبادته، وهذا هو دين المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءَ آتَاوَأَوْ قُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60]، أي: يستشعرون عظمة الله في قلوبهم وما أدلاه عليهم من النعم، ويرقبون بمشاعرهم يد الله بكل شيء حولهم، ويعرفون حقه، فيستصغرون عباداتهم، فهم في وجل دائم أن يلقوه، ولم يوقوه حق عبادته³.

وفي بيان أثر الإخلاص في تفاوت الأجر، وأهمية استحضار النية في كل عمل ترجم البخاري: (باب مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ) والهم كما عرفه ابن بطال هو فعل القلب مع عقد النية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً"⁴. وفي الحديث بيان لحال العبد مع الحسنات والسيئات: الأول: من نوى الحسنة ولم يعملها فكان له بنيتها أجر حسنة كاملة. والثاني: من نوى الحسنة

¹ انظر: ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (449هـ)، شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: الرياض_مكتبة الرشد، (154_153/10).

² ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (691 - 751)، الداء والدواء، حققه: محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، (ط4، 1440 هـ - 2019 م)، (491/1). * استدلال ابن القيم بالأية، مبني على قراءة ابن كثير، وأبو عمرو وابن عامر، بكسر اللام في (المخلصين).

³ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (872/4).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: العمل الذي يُبتغى به وجه الله، حديث رقم (6491)، (103/8).

وقام بعملها فتكتب له عشرة حسنات إلى سبعمائة، والسبب في تفاوت الأجر هو الإخلاص والمتابعة، فعلى قدر الإخلاص، وإتقان العمل ومتابعته لعبادته صلى الله عليه وسلم يكون الأجر أكثر. والثالث: من نوى عمل سيئة ولم يعملها فهنا هو في حالين، إن لم يعملها خوفاً من الله فله حسنة كاملة؛ لمخالفته لهواه، وإبداله السيئة حسنة بالترك. أما إن لم يعملها لأمر خارج عن إرادته، فلا يؤجر بتركه. والرابع: من نوى السيئة وقام بعملها فهي تكتب سيئة واحدة وذلك فضل منه ورحمة، فضاعف الحسنات، ولم يضاعف السيئات، وجعل في الكف عن السيئة حسنة¹.

وهكذا العبد في كل أحواله إن أراد بعمله وجه الله أعظم أجره، وإن أراد غيره هلك وأبطل عمله، وهذا الباب بين كيف أن العبد عندما ترك السيئة مبتغياً وجه الله كتبت له حسنة، وكيف أن الإخلاص سبب مضاعفة الأجر، فليس كل من يعمل في الأجر سواء. وصدق من قال: «مَلَأْتُ هَذِهِ الْأَعْمَالَ النَّيِّاتُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَبْلُغُ بِنَيْتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِعَمَلِهِ»².

ولمّا كان الرياء والسمعة من أمراض القلوب التي تنافي الإخلاص ترجم البخاري: (بَابُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ) في التحذير منهما، فالرياء: هو ما يفعله العبد من العبادات بقصد رؤية الناس له طلباً للمحمدة³. والفرق بينه وبين السمعة، أن الرياء متعلق بحاسة البصر كمن يطيل الصلاة ليقال: خاشع، ويخرج الصدقات ليقال: جواد، وكريم. وأما السمعة فهي متعلقة بحاسة السمع، فالعبادات التي تدخلها هي الذكر، وقراءة القرآن. كما ويتبعها العبادات التي تُرى إن هو حدّث بها وأخبر عنها، كأن يقول تصدقت، أو كقوله: ختمت سورة البقرة في صلاة قيام الليل وغيرها من العبادات التي لا يطلع عليها أحد⁴.

¹ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (199/10). انظر: ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد (ت 1421هـ)، شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، (ط 1، 1426هـ)، (1/77_76).

² ابن المبارك، الزهد والرقائق، (189/63).

³ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (11/336).

⁴ انظر: خالد السبت، خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، الناشر: دار ابن الجوزي، (ط1/1438هـ-2017م)، (136_138).

فمن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ"¹ أي: من كان عمله ليسمع الناس عنه، فضحه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ومن كان عمله مراعاة لا يقصد به وجه الله، رآه الله فيه خلقه، فكانت عقوبته من جنس ما فعل، قال تعالى:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: 54]².

وفي الختام، فإن السبيل لتحقيق الإخلاص ليس بالأمر الهين؛ فالنفوس مبطورة على حب المحمّدة، وبغض المذمّة، بل حال الإنسان مع حب المحمّدة حال الطفل الذي ينتظر التصفيق له والثناء عليه، وقد تجد الكثير ممن يحاول بكل ما اوتي ألا يوقع نفسه بما لا يليق خشية المذمّة³.

"ولا يصل إلى هذه الدرجة إلا من جاهد نفسه وهواه وشيطانه، وعرف ربه بأسمائه وصفاته، وعرف حقيقة نفسه، وحقيقة البشر وما يعترهم من ضعف ونقص، واستعان بالخفايا وعظيم أثرها في تهذيب النفوس، ودرّب نفسه على الإخلاص وروّضها، مستعينا بالصبر واليقين"⁴، ورحم الله محمد بن المثنى إذ يقول: "لَا تَعْمَلْ لِتُذَكَّرَ، أَكْثَمَ الْحَسَنَةِ كَمَا تَكُنُّمُ السَّيِّئَةَ"⁵.

المطلب الثاني: الموازنة بين الخوف والرجاء .

وازن الإمام البخاري بين الخوف والرجاء من خلال عدّة أبواب، أظهرها (بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ)، و(بَابُ: الْأَعْمَالُ بِالْحَوَاتِيمِ وَمَا يُخَافُ مِنْهَا)، و(بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)، و(بَابُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، و(بَابُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ)، و(بَابُ: الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ).

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الرّياء والسُّنعة، حديث رقم (6499) ، (104/8).
² انظر: القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم(٦٥٦هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محيي الدين ديب ميسو وآخرون، الناشر: (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، (ط1، 1٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)، (616/6).
³ انظر، خالد السيت، أعمال القلوب، (140/2).
⁴ المرجع السابق، (125_114/2).
⁵ الذهبي، سير أعلام النبلاء، (476/10).

وفي ترجمة البخاري: "بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ" استحباب سير المؤمن مع ربه بين الرجاء والخوف، وأورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ، لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ"¹. والحديث بما فيه من وعد ووعد، متضمن للخوف والرجاء، فمن علم أنّ من صفات الله الرحمة لمن يرحمه، والانتقام ممّن أراد الانتقام منه، لما أمّن انتقامه من يرحو رحمته، وما يأس من رحمته من يخاف انتقامه. وفي الحديث ترغيب للمؤمن بسعة رحمة الله التي لو علمها الكافر، لما يأس منها².

فمن غلب الرجاء على الخوف دفعه ذلك إلى الكبر، كمن وقع في المعصية وأمن عقاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]. ومن غلب الخوف على الرجاء دفعه ذلك إلى اليأس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]. والمقصود بالرجاء: رجاء المغفرة على الذنب، فمن وقع في الذنب أو وقع منه مخالفة، يحسن الظن بالله بمغفرة ذنبه. ورجاء قبول الطاعة، والثواب عليها. وفي ذلك يقول أبو عثمان الحيزي: "علامة التوفيق أن تطيع وتخاف ألا تُقبَل، وعلامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تتجو"³.

وذكر الكرمانى أنّ المقصود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن يكون العبد وسطا بين الخوف والرجاء، فلا يكون مفرطاً في الرجاء بحيث يصير من المرجئة الذين يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب. ولا مفرطاً في الخوف بحيث يصير من الوعيدية الذين يروا أن من مات على كبيرة ثم لم يتب منها لم يغفر

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الرجاء مع الخوف، حديث رقم (6469)، (99/8).

² انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (302/11).

³ المرجع السابق، (301/11).

الله له، بل يكون بينهما قال تعالى: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} ومن تتبع الحنيفية السهلة علم أن قواعدها أصولاً وفروعاً كلها في الوسط¹.

وقدوتنا في ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا ترجم البخاري: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَّكُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) فلو علم العبد ما هي عليه أهوال يوم القيامة وشدها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، لاشتد بكائه، وقلَّ ضحكته، وهذا حاله صلى الله عليه وسلم فكان أشدَّ الناس خشية من الله، كثير الحزن، قليل الضحك².

وفي قوله: (لضحكتكم... ولبكيتم) الجمع بين الخوف والرجاء فلا يغلب الخوف فيأس من رحمة الله، ولا يغلب الرجاء فيأمن مكر الله، بل يسير بينهما، وأحسن ما قيل في الخوف والرجاء، أن العبد يغلب الخوف في حال صحته، ويغلب الرجاء عند الاحتضار، وقرب أجله³.

وليحافظ العبد على التوازن حتى النفس الأخير، ترجم البخاري: (بَابُ: الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ وَمَا يُخَافُ مِنْهَا) والحكمة في تغييب خواتيم الأعمال عن العباد واستئثار الله بها؛ لئلا يدخل الإعجاب والكسل لمن علم أن خاتمته على الإيمان، ولا يزداد من علم أن خاتمته على الكفر طغياناً وكفراً، فيقع الكل تحت الدال والخضوع، فلا يغتر المطيع بعمله، ولا ييأس العاصي من رحمته. فإذا رأى العبد غيره قد اقترف معصية، فلا ينظر لنفسه أنه أفضل منه، فهو لا يعلم بأي حال قد يختم له؟ فقد تبدل النهايات فيختم للعاصي على خير، وتسوء عاقبة من أنكر على غيره؛ فحكم الله على عباده بالخير والشر يكون حسب الخواتيم⁴.

فعن سهل بن الساعدي رضي الله عنه: "تَطَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ عَنَاءً عَنْهُمْ، فَقَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا فَتَبِعَهُ رَجُلٌ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ فَاسْتَعَجَلَ الْمَوْتُ، فَقَالَ بِدُبَابَةِ سَيْفِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ تَدْيِينِهِ فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ

¹ انظر: الكرمانى، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين (ت ٧٨٦هـ)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، (ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، (227/22).

² انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (557/2).

³ انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (81/1) وابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (338_337/3).

⁴ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (204_203/10).

حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا¹ وقوله: (فيما يرى الناس)، دلالة على ضرورة أن يكون ظاهر العبد موافقا لباطنه، وأنه كلما دعت نفسه إلى معصية تذكر أن الموت قد يطرق بابه في أي لحظة وأنه قد يختم له على حاله الذي هو عليه، وذلك مما يستدعي المداومة على العمل الصالح، واستشعار مراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة استعدادا للموت، فالأعمال بخواتيمها².

وفي الموازنة بين الخوف والرجاء ترجم البخاري: (بَابُ: الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ) فقوله: شراك نعله، أي: سير النعل الذي يدخل فيه إصبع القدم، وفيه أن الطاعات موصلة إلى الجنة، والمعاصي موصلة إلى النار بأيسر الأشياء، فلا يزهد العبد في قليل الخير ليفعله، ولا قليل الشر ليجتنبه، فلا يدري ما الحسنه التي يقبلها الله منه فيرحمه بها، ولا السيئة التي توجب سخط الله عليه³، وهو مثل يضرب به في القرب⁴.

فكلمة واحدة كانت سبب هلاك صاحبها، وإبطال عمله، فعن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أن رجلا قال: والله! لا يغفر الله لفلان. وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن أغفر لفلان. فإني قد غفرت لفلان. وأحببت عملك"⁵.

وفي بيان الخوف المشروع، ترجم البخاري: (بَابُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، و(بَابُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ) وهو خوف العبادة الذي لا يوقع صاحبه في اليأس والقنوط، خوف الخشية من الله وعذابه، وهذا الخوف هو أعلى المقامات وأجلها، فالقدر الواجب منه ما يحمل صاحبه على اجتناب المنهيات والالتيان بالواجبات،

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الأعمال بالخواتيم وما يخاف منه، حديث رقم (6493)، (103/8).

² انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (283/9).

³ انظر: الكرمانلي، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (12_11/23).

⁴ انظر، ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (340/3).

⁵ مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (206-261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، كتاب البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تغنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، حديث رقم (2621)، (2023/4).

والمستحب منه ما حصّ صاحبه على فعل المستحبات، واجتتاب المكروهات، واتيان المباحات، وأما ما زاد عن ذلك، وأدى بصاحبه إلى القنوط فيكون محرماً¹.

وقد حثّ الله عباده أن يخافوه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمَّ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175] ومدح الله المؤمنين بالخوف، في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وما كان هذا الأمر منه سبحانه إلا لعلمه بنفوس عباده، فالخوف هو حصانة للعبد من الوقوع في المنهيات، وعون له للإتيان بالمأمورات، وصدق من قال: ليس الخائف من بكى وجرى دمع عينيه، بل الخائف من ترك ما يخاف أن يعذب بسببه².

فما أوجبنا اليوم إلى إعادة إحياء الخوف من الله في قلوب الأمة؛ فما غرق الناس في الملهيّات والمعاصي، والإساءة إلى الآخرين، وأكل حقوق الناس إلا بسبب ضعف الخوف من الله في قلوبهم.

ومن الأعمال التي تجلب الخشية وتصنعها، البكاء من خشية الله، وفي ذلك ترجم البخاري: (بابُ البُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، لبيان فضل الخوف من الله والحثّ عليه، والخشية تفرق عن الخوف، في أنّ الخشية درجة أعلى من الخوف وأخصّ، فهي مبنية على العلم فيصاحبها إجلال وتعظيم، لذا كان العلماء أكثر الناس خشية لله؛ لأنّ عبادتهم تبنى على علم بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]. فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف³.

وفي حديث الباب، ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ: رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فَقَاصَتْ عَيْنَاهُ"⁴، بيان لثمرات الخوف، "فمن خاف أمين من هول يوم الفرع الأكبر، وأصبح في ظل

¹ انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (137/1).

² انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (283/4).

³ انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (122/1).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: البكاء من خشية الله، (6479)، (101/8).

الرحمان لا تطوله المخاوف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾¹ [الأنعام:82] فعلى قدر خوفهم من الله يكون أمانهم².

وإن من أقرب الطرق إلى الله الخوف منه، وألا يأمن المؤمن مكره، ولا يغتر بعمله فمهما قدم يشعر بتقصير ويرجو القبول، ولقد كان السلف الصالح أشد الناس خشية لله، ومع ذلك يخشى الواحد منهم أن يكون من أهل النار، فقد نقل عن الذهبي قوله: "كل من لم يخش أن يكون في النار، فهو مغرور، قد أمن مكر الله به"³. وفي بيان ثمرات الخوف، ترجم البخاري: (بَابُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ) وأورد تحته حديث حذيفة بن اليمان، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَخُذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، ففَعَلُوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ"⁴. فخوفه من الله كان سبب مغفرة الله له.

وعليه فالمؤمن في سيره إلى الله ما بين خوف ورجاء، فلا يغلب الخوف على الرجاء فيدفعه ذلك إلى القنوط واليأس من رحمة الله، ولا يغلب الرجاء على الخوف فيتمادى ويسرف في الذنوب والمعاصي، بل يسير بينهما فيحقق صفة من امتدحهم الله بقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:16] وبهذا يستوي خوفه ورجاءه⁵.

فمهما عظم ذنب العبد تذكر أن رحمة الله واسعة، وإذا رأى من نفسه ميلا إلى المعاصي والشهوات استحضر عذاب الله وعقابه كأنه مائل أمامه، فيكون الرجاء له كشعاع الأمل في الظلمة، ويكون الخوف كالليل الحالك زاجر له من شؤم الذنوب والمعاصي.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الخوف من الله، حديث رقم (6479)، (101/8).

² انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (166/1).

³ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (190/10). الذهبي، سير أعلام النبلاء، (291/6).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الخوف من الله، حديث رقم (6480)، (101/8).

⁵ انظر: عبد المنكور، عائشة محمد نور الدين محمد، الخوف والرجاء في ضوء السنة النبوية (دراسة موضوعية)، جامعة الأزهر - مصر، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية، (3213).

المطلب الثالث: التوكل على الله.

ويقصد بالتوكل على الله: "هو صدقُ اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كُلِّها، وكِلَّةُ الأمور كُلِّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنع ولا يضرُّ ولا ينفع سواه"¹.

فمن مقتضيات الإيمان بالله تعالى التوكل عليه، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْ لَوْ أَنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]، وينتقي بانتقائه، إذ الإيمان هو التوحيد، ومن توجه لغير الله لم يوحد حقيقته، ولو وحده باللسان². فهو كما عبّر عنه صاحب الظلال يرسم التصور الصحيح للإيمان في القلب³، فالتوكل الأخذ بالأسباب المناسبة ثم تفويض الأمر إلى الله.

وقد بيّن البخاري حقيقة التوكل وثمرته بأن الله هو حسبه وكفيله، فترجم الباب بقوله تعالى: بَابٌ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾⁴، [الطلاق: 3] فمعنى الآية: أن من اتقى الله وتوكل عليه جعل له الفرج والمخرج من كل ضيق وشدة، وهي تكملة لما قبلها: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾⁵ [سورة الطلاق: 2_3]. فالتوكل حتى يؤتي ثماره لا بدّ من التقوى، فالله كفاه همّه بالتقوى، ثم بتوكله عليه.

وبيّن ابن حجر سبب ترجمة الباب بالآية؛ ترغيباً بالتوكل على الله، فكأنه قيّد ما أطلق في حديث الباب السابق؛ لبيّن أنّ التعفف والتصبر والاستغناء إن كان مقروناً بالتوكل فهو الذي ينفع⁴.

¹ ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد الحنبلي (795هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور، دار الإعلام، القاهرة، ط2، 1224_2004، (3/1266).

² انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (9/271).

³ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (6/499).

⁴ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (11/305).

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما المرفوع: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بَغَيْرِ حِسَابٍ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ، وَلَا يَنْطَيْرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"¹. فالنهي عن الرقية هنا "محمول على ما كان من أمور الجاهلية، وبغير اللسان العربي، وبغير أسماء الله وصفاته، حيث كانوا يعتبرون أن الرقية مانعة لا محالة، وأما ما كان من القرآن فلا نهي عنه"²، وإلى هذا ذهب القاضي عياض إلى أنّ النهي يُحمل على من يرى أنّها نافعة بذاتها، لا كونها أسباباً³.

وإضافة البخاري لقول الربيع بن خثيم في الترجمة: (قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ) بيان لثمرة التوكل بأنّ الله سيكون كافيه وحسيبه في كل ما ضاق على الناس⁴.

وأما ما يتعلق بثمرات التوكل على الله، فهي كثيرة ومن أعظمها طمأنينة القلب، والرّضا بما قُدِرَ، وما يتبعه من الرضا عن الله، فهذا بشر الحافي يجعل من زعم أنه متوكلا على الله، ثم لم يرض بما قُدِرَ له يعدّ كاذباً⁵، وهذا ما يشاهد عند أهل غزّة العزة فرغم تخليّ العالم عنهم وعن نصرتهم، إلا أنّ الطمأنينة التي تغشاهم برضاهم عن قدر الله، وإيناسهم بمعيتّه، وتفويضهم لأمرهم له، جعلت من أفئدتهم، جبالاً راسيات، وما امتلكوا هذه القوّة في مواجهة أكبر أعداء العالم إلا ليقينهم الراسخ بالله بأنّ الله ناصر أوليائه وكافيهم، وهذا ما عبّر عنه ابن القيم بأنّ العبد متى اطمأن إلى حكم الله الديني علم أن دينه هو الحقّ، وأنّه ناصر أهله وكافيهم، ومتى اطمأنّ إلى حكمه الكوني علم أنّه لن يصبه إلا ما كتب الله له، فإنّ قدر فلا سبيل لصرفه، وإن لم يقدر فلا سبيل لوقوعه، فلا جزع حينها ممّا قُدِرَ، وممّا لم يقدر إلا ممّن ضعف إيمانه ويقينه بالله⁶.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، حديث رقم (6472)، (100/8).

² انظر: الملا القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن الهروي (١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت - لبنان، (ط1/1422_هـ2002م)، (174/1).

³ انظر: القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو السبتي أبو الفضل (٥٤٤هـ) إكمال المعلم بفوائد مسلم (شرح صحيح مسلم)، المحقق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، (ط1، ١٩٩٨ م)، (601/1).

⁴ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (271/9). انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (69/23).

⁵ خالد السبتي، أعمال القلوب، (445_444/2). انظر: ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (386/2).

⁶ خالد السبتي، أعمال القلوب، (554/2). انظر: ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (353/3).

إنّ تصحيح مفهوم التوكل سبب سعادة المسلم في الدنيا والآخرة والحصول على مطلوبه، فمن يطلب النصر دون الإعداد الجيد لم يفهم معنى التوكل، بل وطالب العلم الذي يؤخر دراسته حتى انتهاء الوقت، ثمّ يزعم أنه متوكل على الله بنجاحه، قد أخطأ في فهم معنى التوكل. والمزارع الذي يبذر الأرض ثمّ يتركها دون عناية، ويزعم أنه قد توكل على في نجاح محصوله قد أخطأ في فهم معنى التوكل.

المطلب الرابع: الحصانة من الافتتان بالدنيا والتنافس فيها.

حصانة المؤمن من الافتتان بالدنيا حقّقها البخاري من مجموعة تراجم صاغها من الأحاديث التي انتقاها، وهي: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرَّقَاقِ وَالْأَعْيُشِ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ)، و(بَابُ مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ)، و(بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)، و(بَابُ فِي الْأَمَلِ وَطَوْلِهِ)، و(بَابُ: مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمْرِ).

ولما كانت الدنيا دار ممر والآخرة دار مستقر، ولما طبع الإنسان على حب الحياة والتعلق فيها تعلق الفطيم بأمه، جاءت تراجم كتاب الرقاق في الحثّ على الرغبة في الآخرة، والتحذير من الاغترار بالدنيا وحصانة العبد من الافتتان بها، وما امتاز به البخاري من ظاهرة التناسب بين الأبواب كشفت عن حكمته في ترتيبها، وكيف بتتابعها رسمت الطريق للمسلم؛ ليكون من أبناء الآخرة، فلا تغره الدنيا بمتاعها الزائل¹.

بدأ البخاري كتابه بما يرقق القلوب، ويجعلها أوعى للاستماع؛ لبيّن أنّ الحياة الحقيقية هي الآخرة وفي كنف الله فأورد: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرَّقَاقِ وَالْأَعْيُشِ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) والترجمة تشير إلى حديث أنس رضي الله عنه المرفوع: "اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ... فَأَصْلِحِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ"²، فهي تتحدث عن الصحابة يوم الخندق الذين تركوا بيوتهم وأولادهم، وانشغلوا بالجهاد في سبيل الله، فأثروا الباقية على الغانية. وحديث أنس رضي الله عنه المرفوع: "بِعَمَتَانِ مَعْبُودٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفِرَاقُ"³. يبيّن أنّ الكثير من الناس اغتروا وغبنوا بالصحة والفرق؛ لإيثارهم عيش الدنيا على عيش الآخرة، أما العيش

¹ انظر: الحويني، أبي إسحاق الحويني، محاضرات فقه الوثائق في شرح كتاب الرقاق، (660_655).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الرقاق والأعْيُشِ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، حديث رقم (6413)، (88/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الرقاق والأعْيُشِ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، حديث رقم (6412)، (88/8).

الذي انشغل به الصحابة عن الدنيا بالجهاد في الغزوات فهو المطلوب وهو الذي يستحق أن يصرف له الإنسان صحته وفراغه، والمغبون هو من فاتته¹.

• تحديات في طريق الحصانة من الافتتان بالدنيا والتنافس عليها.

والإمام البخاري ومن خلال نظرتة التربوية في الأحاديث النبوية، وجد عدة تحديات تقف أمام تحصين المؤمن من الافتتان بالدنيا، عالج ذلك بعدة تراجم محذرا منها، ومرغبا بالآخرة، وقد تمثلت التحديات التي أشار إليها بالآتي:

1. الحذر من مغريات الحياة الدنيا والتنافس عليها

ولمّا استقرّ أنّ الآخرة وعيشها الحياة الحقيقيّة، وأنّ الدنيا لا تساوي شيئاً بما فيها من المكدرات والمنغصات ولسرعة زوالها، جاءت المقابلة: (بَابُ مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعُ الْعُرُورِ ﴾ [الحديد:

[20] ليبين أنّ الدنيا مقابل الآخرة لا شيء، وأنّ ما فات الصحابة منها فلا يستحق الحزن، وحديث الباب واضح الدلالة في ذلك، فعن سهل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَوْضِعُ سَوَاطِئِ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"². فإذا الحيز الذي يشغله السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، فكيف بالجنة وما فيها³!.

وكذا الآية التي تضمنت أسباب غبن الإنسان في الدنيا وهلاكه، وهي: (اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر) فسيقت في مشهد أرض أصابها غيث، فنبتت نباتا أعجب الناظر إليه، ثمّ سرعان ما يبس هذا النبات وتحول إلى حطام، وهكذا الدنيا فهي سريعة الزوال. واختيار لفظ الكفار للتعبير عن الزرع في الآية؛

¹ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (231_229/11).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مثل الدنيا في الآخرة، حديث رقم (6415)، (88/8).

³ انظر: الملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (3576/9).

لأنهم أشد إعجابا وتعظيما للدينا، يقول صاحب الضلال: "والدينا حين توزن بمقاييس العين والحس فإنها ترى عظيمة، وأما إذا قيست بمقاييس الآخرة فتبدو تافهة كلعبة أطفال؛ حين تتصوّر ما ينتهي إليه مصائر أهلها في الآخرة"¹!

ولما كانت الدنيا سبب هلاك صاحبها، وأنها لا تساوي شيئا مقابل الآخرة، أرشد البخاري إلى كيفية التعامل معها فعقد ترجمة: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) أي: اجعل سيرك فيها سير الغريب، أو عابر السبيل. والانتقال هنا من قوله غريب إلى عابر سبيل يفيد الاضراب؛ لأن الغريب وإن لم يكن له سكن يأويه، وليس له أهل ولا عيال، إلا أنه قد يسكن في بلد الغربة، بخلاف عابر السبيل الذي يقصد بلدا بينه وبينها أودية وجبال، ويخشى على نفسه من قطاع الطرق، فهل له أن يسكن ويقيم?²

يقول ابن بطال: "وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل"³.

وفي الأثر عن ابن عمر رضي الله عنه: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"⁴، الحث على استحضر الموت، والاستعداد له بالعمل الصالح، فتذكره باستمرار يهذب النفس من الوقوع في المعاصي والزلل. ثم التأكيد على استغلال أكثر ما يكون سببا في غبن الإنسان وهما: الصحة والفراغ، فيستغل عافيته بالعبادات والأعمال الصالحة قبل أن يقعه المرض، ويستغل عمره قبل أن يطرق بابه الموت⁵.

ولما كان حبّ الدنيا وإرادتها من أمراض القلوب ومن أسباب الوقوع في المعاصي، ترجم البخاري: (بَابُ مَا يُحْدَرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالنَّتَافُسِ فِيهَا)، في التحذير من فتنها، وتعبير البخاري بلفظ زهرة يبيّن شدة تشوّق

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، (346_345/6).

² انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (238/9).

³ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (149/10).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، حديث رقم (6416)، (89/8).

⁵ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (149/10).

الإنسان لها، وأنه لا يبغى عنها حولا، فزخارفها وبهجتها وزينتها والتنافس فيها من الفتنة؛ لأنها تشغل الإنسان عن الآخرة¹، فعن عمرو بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قَالَ اللَّهُ مَا الْفَقْرُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِبِكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"². وهذا من أعظم أسباب هلاك الناس اليوم، فكلما انفتحت عليهم الدنيا قل نصيبهم في الآخرة؛ لانشغالهم بها وتنافسهم فيها، كأنهم خلقوا لها لا أنها خلقت لهم³.

وهذا ما نلمحه في تعليق صاحب الظلال على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرُّكَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَقْبَلُ﴾ [سورة طه: 131]. بالتوجه إلى الله بالعبادة، وعدم الافتتان بالدنيا ومتاعها من مال وأولاد وجاه وسلطان، فالتطلع لها كالزهرة تطلع لامعة جذابة، لكنها سرعان ما تميل إلى الذبول⁴. فعلى المسلم أن يجعل الآخرة نصب عينيه، فكل ما مالت نفسه إلى الدنيا تذكر أنها متاع زائل، وأنها لن تدوم لأحد.

2. الحذر من فتنة طول الأمل

ولما كان طول الأمل هو المانع من جعل الإنسان غريبا أو عابر سبيل في هذه الحياة، أورد البخاري: (باب في الأمل وطوله وقول الله تعالى ﴿فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ عُرُورٌ﴾ [آل عمران: 185] ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِبُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 3]) فهو يشعرك بأنك مخد فيهما تماما كما حصل مع آدم عندما أقسم له إبليس، بأن الأكل من الشجرة يعني الخلود. وهذا الباب موافق لما جاء في أثر ابن عمر، بأن على الإنسان أن يقصر أمله، ويكثر من ذكر الموت فلا يأمل العيش للغد فيشعر بأنه أقرب إلى الموت من الحياة؛ ليبادر في أعمال الخير، بعيدا عن التسويف وعن كل ذنب قد يحول بينه وبين لقاء ربه. ومما أورده الطبري في تفسيره لقوله

¹ انظر: الرضاوي، يوسف عبد الله (1444هـ)، في فقه الأولويات، (ط2/1316هـ-1996م)، (184_185).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الرقاق وألا عيش إلا عيش الآخرة، حديث رقم (6425)، (90/8).

³ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (2/37_38).

⁴ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (4/718).

تعالى (ويلهم الأمل): دع هؤلاء الكفار يتمتعون بهذه الدنيا وملذاتها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويلهم الأمل عن طاعة الله والتقرب إليه، فسوف يعلمون إذا حضروا بين يديه، كيف الكفر أودى بهم، وجعلهم يعاينون عذاب الله، وأنهم بتمتعهم بلذات الدنيا وشهواتها ونسيانهم الآخرة كانوا في خسران وتباب¹.

ولما كان طول الأمل داء عضالاً، أورد البخاري: (بَاب: مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمْرِ {أَوْلَمَ نَعْمَرُكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَدَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ}) وقال البخاري (الندير): الشيب؛ ليبين أن من بلغ الستين من عمره ولم يرجع إلى الله فقد انتهى عذره، فالستين هو سن الإنابة وارتقَابِ المنية، والاستعداد للقاء الله².

والترجمة هنا تحمل معنى النذارة، لا أن من تاب في هذا السن أو بعده فلا تقبل توبته.

3. الحذر من فتنة الشيطان

ومن أعظم التحديات التي يجب أن نحسن أنفسنا منها غواية الشيطان، لذا ترجم البخاري: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حَرِيْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ [فاطر: 5، 6])، ليبين أسباب الغرور في هذه الدنيا، والآية "تحدثت عن غرورين: الأول: النفس بما تزيته لصاحبها من الاعتزاز بمظاهر الدنيا ومتاعها، والثاني: الشيطان فيغيّر الناس بما يزيته لهم من القبائح والآثام والشُرور، وهو المقصود في قوله تعالى: (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)، بدلالة الآية التي بعدها: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا". وهذا ما أشار إليه البخاري في ترجمته.

¹ انظر: الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (1422هـ-2001م)، (13/14).

² انظر: قاسم، حمزة محمد، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه: الشيخ عبد القادر الأناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، (293/5).

والغُرور: هو كل ما يُغَرّ الإنسان من المال والسلطان والشهوات والشيطان، وإنما فسّر بالشيطان؛ لأنّ كل غرور ينسب إليه، والآية توجيه باتخاذ الشيطان عدوا وعدم طاعته؛ لسعيه في إضلال الإنسان وهلاكه، وكيف للعاقل أن يتبع عدوّه¹؟

فعلى العبد أن يحذر مما نهاه عنه ربّه، فإن وقع في الذنب بادر إلى التوبة والندم، وإن قام بحسنة استصغرها، فلا يغترّ بالدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى الشيطان وتسويله، وهذا ما جاء في حديث الباب المرفوع الذي رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: "رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ غَيْرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَغْتَرُّوا"²، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تغتروا): أي لا يتكلّ أحدكم على عمله، بل عليه أن يكون وجلا مشفقا، يتجنب الاغترار³.

وترجمة البخاري بالآية تذكير للمؤمنين بأن عداوة الشيطان مستمرة لبني آدم، فهو العدو الذي أقسم على الله أن يسعى في إضلال الإنسان وصرفه عن طريق الحق والهدى. وعلى المسلم أن يحذر من عداوته، وأن يحصن نفسه من نزغاته بالتعوّد منه، والإكثار من الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200].

4. الحذر من فتنة المال.

ولمّا كان حبّ الدنيا يتمثل في حبّ المال، أكثر البخاري الحديث في تراجمه عن فتنة المال؛ لما للحرص عليه من جعل الإنسان يتنازل عن قيمه ومبادئه، وفي ذلك خسران دينه وإيمانه⁴، وعندما كانت الفتنة مقرونة بالمال، وكان الإنسان مفطورا على حبّه، ترجم البخاري: (بَابُ مَا يُبْقَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ وَقَوْلِ اللَّهِ

¹ انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير، (الدار التونسية للنشر - تونس)، (سنة النشر: ١٩٨٤ هـ)، (260_259/22).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّا أَنبَأْنَا النَّاسَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ، حديث رقم (6433)، (92/8).

³ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (428/19).

⁴ انظر: الرضاوي، في فقه الأولويات، (186_185).

تَعَالَى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]، في التحذير من فتنة المال وعدم الانشغال به عن الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ الشَّكْرُ﴾ [التكاثر: 1].

وفي ذم الحرص على المال والشره في الازدياد منه أورد حديث أنس رضي الله عنه المرفوع: "لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"¹، فهي فتنة حب الاستزادة من المال، ولن يكفيه إلا حفنة التراب².

ومعنى الفتنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ كما بينه صاحب الظلال: إمّا الاختبار، وفيه معنى التحذير والتيقظ للنجاح في هذا الابتلاء. وإمّا أَنْ هذا المال قد يفتنكم فيوقعكم في المخالفات والمعاصي³.

وأما الخلاص من فتنة المال فقد بينته سورة التغابن، في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]. فالآية أمرت بتقوى الله قدر الاستطاعة؛ لأنها تمنع الإنسان من أن يشغله ماله عن طاعة الله والقيام بواجباته، والتقوى هي التي تحت الإنسان على اكتساب المال من طرقه المشروعة، وإنفاقه في حقه، ومن طبع الإنسان ادخار المال وحفظه، والإقلال من نفع الغير به، فالإنفاق يحرر النفس من الشح والبخل⁴.

وفي مثل هذا المعنى ترجم البخاري: "بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَالُ حَضِرَةٌ حُلْوَةٌ"، حيث شبه شدة تشوق الإنسان لجمع المال وحرصه عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المذاق، فالإنسان بطبعه يميل لما أخضر لونه وجعله حلوا يزيد من تشوقه له، وكما أنّ دلالة اللون الأخضر كما ذكر النووي تشير إلى سرعة زواله وعدم بقاءه. فعن حكيم بن حزام قال: "سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: هَذَا الْمَالُ وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ قَالَ لِي يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالُ حَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَحَدَهُ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: مَا يَنْتَعَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ، حديث رقم (6439)، (93/8).

² انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (251_250/9).

³ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (484_483/6).

⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (289_288/28).

بَطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى¹. وفي الحديث دلالة صريحة إلى أنّ من أخذ المال من غير حرص أو بسخاوة من المعطي بورك له فيه، أمّا من أخذه بحرص وطمع أو بسط يده للغير فلا يبارك له فيه فكان كالأنعام يأكل ولا يشبع، وفي قوله (وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) حث على التّفقّة والتّعفف وعدم سؤال الغير².

أما أثر ابن عمر الذي ذكر في الترجمة: "قَالَ عُمَرُ اللَّهْمُ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيْنَتْهُ لَنَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ" يبيّن أنّ السلامة من فتنة هذا المال بعد أن جبلت النفس على حبه، تكون باكتسابه من طريقه المشروعة، وصرفه في حقه³.

فالمسلم الحصيف دائم التذكر بأنّ هذا المال اختبار يمتحن فيه فلا يكتسبه إلا من طريقه المشروعة، ولا ينفقه إلا في حقه، من غير إسراف ولا تبذير، بعيدا كل البعد عن الشح والبخل، فنوعا بما آتاه الله يكره الحرص ويذمه.

ولأنّ الصدقة هي علاج ودواء لمرض حب المال، ترجم البخاري: "بَابُ مَا قَدَّمَ مِنْ مَالِهِ فَهُوَ لَهُ" في الحثّ على النفقة، وعدم ادخار المال جميعه للورثة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ"⁴، يبيّن أنّ مال الإنسان هو ما يقدمه في حياته في وجوه الخير؛ لما يترتب عليه من أجر في الآخرة⁵.

وهذا للأسف حال كثير من الناس شحيح يبخل على الغير فيمتنع عن الصدقات، ظنّا منه أنهم هم الذين ينتفعون من ماله، وينسى أنّ هذا المال هو الذي سينفعه في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا المال خضرة حلوة، حديث رقم (6441)، (93/8).

² انظر: النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت 676 هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، (2ط، 1392)، (126/7).

³ انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (9/ 253).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: ما قَدَّمَ مِنْ مَالِهِ فَهُوَ لَهُ، حديث رقم (6442)، (93/8).

⁵ انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (9/ 254). انظر، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (260/11)

فَلَا نَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 272﴾.

وفي التحذير من صرف المال في غير حقه، ترجم البخاري: "بَابُ: الْمُكْتَرُونَ هُمُ الْمُقْلُونَ" وأورد تحته حديث أبي ذر رضي الله عنه المرفوع: "إِنَّ الْمُكْتَرِينَ هُمُ الْمُقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا فَفَتَحَ فِيهِ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَبَيَّنَّ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا"¹، ليبين أن من يكثر ماله يقل ثوابه إذا لم ينفقه في طاعة الله.

وأما سرّ الترجمة بقوله تعالى في هذا الباب: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَّ إِلَيْهَا أَعْمَالَهَا فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: 15_16] ليبين أن من كان يرجو من عمله الدنيا وزينتها لا الآخرة، فإن الله يوفيه ثواب عمله في الدنيا كاملاً من غير نقص، فمن قام بصلة رحم، أو نفقة، أو صدقة وهو يرجو من ذلك الدنيا لا وجه الله والآخرة، فإن الله يجعل ثوابه على أعماله هذه في الدنيا من صحة في جسده، وزيادة في رزقه، وماله في الآخرة من نصيب، فيأتي الله وهو مجرد من الحسنات، وهي المعاني التي أشار إليها القرطبي في تفسيره².

وحتى لا يقع المسلم في فتنة المال، وجه البخاري العبد إلى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم في التعامل مع المال، فترجم: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَحْبُّ أَنْ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا) للعصمة من فتنته، وذلك بالرضا بالقليل منه فلا يتمنى كثرته إلا أن يسلمه الله لينفقه في طاعته، وهذا لا يعني أنه يكره للمسلم تمنى كثرة المال، وإنما الكراهة محمولة على من يؤثر المال لنفسه ولا ينفقه في سبيل الله، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَالُ خَيْرٌ خُلُوةً، حديث رقم (6443)، (94/8).

² انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (254/9). انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (14_13/9).

مَالًا فَسَلِطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا¹. فقد جعل صلى الله عليه وسلم من أبواب الغبطة رجلاً أعطاه الله مالا فأنفقه في سبيل الله.

وفي هذا الباب التأسّي به صلى الله عليه وسلم فكان أزهّد النَّاسِ فِي الدُّنْيَا لَا يَتْرِكُ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ فِي يَدِهِ، إِلَّا شَيْئًا يَرِصُهُ لِدِينٍ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "...مَا يَسْرُنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أَحَدٍ هَذَا ذَهَبًا، تَمْضِي عَلَيَّ نَائِلَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْئًا أَرُصُهُ لِدِينٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ"²، وفي الحديث الحَضُّ عَلَى إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي الصَّحَّةِ وَالْحَيَاةِ، وَتَفْضِيلِهِ عَلَى الْإِنْفَاقِ بَعْدَ الْمَوْتِ مُحْتَجًا بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ"³، فكثير من الناس من يبخل بإخراج ماله ما دام في عافية؛ لطول أمله وخشية الفقر، لذا كان لا بدّ للمسلم أن يقهر عدوّه نفسه وشيطانه فيجاهد نفسه ويخالفهما رجاب ثواب الآخرة، ومن بخل فكيف له أن يأمن من ورثته أو ممّن أوصاه على ماله أن يقيم حقّ الله فيه!⁴

ولأنّ المال فتنة وبعض النَّاسِ لعلم الله بنفوس عباده لا يناسبه إلا الفقر، ترجم البخاري: "بَابُ فَضْلِ الْفَقْرِ" لِيُبَيِّنَ أَنَّ مَنْ ابْتَلِيَ بِالْفَقْرِ فَصَبَرَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ، وَلَمْ يَسْخَطْ، وَيَتْرَكَ التَّكْسِبَ وَيَنْشَغَلَ بِسُؤَالِ النَّاسِ، فَهُوَ فِي خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَفِيهِ مِنَ الْمَوَاسَاةِ لِلْفُقَرَاءِ لَمَّا يَجِدُونَهُ مِنْ مَرَارَةِ الْعَيْشِ، فَالترجمة هنا ليست بمعنى الأفضلية، وأنّ الفقر أفضل من الغنى، فكلاهما فتنة وصاحبهما مبتلى، ولقد كان صلى الله عليه وسلم يستعيز من شر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر، ويسأل ربه الكفاف، إذن فالأفضلية للكفاف لا للفقر⁵، وأما حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ: هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الإغْتِبَاطُ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، حديث رقم (73)، (25/1).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أُجِبُ أَنْ لِي مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا، حديث رقم (6444)، (94/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أُجِبُ أَنْ لِي مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا، حديث رقم (1419)، (110/2).

⁴ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (271/11).

⁵ انظر، ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (170_169).

يُنْكَح، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ حَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا"¹، فلا يدل أن أفضلية الرجل كانت لأجل فقره، إنما لصلاحه، بل إن من صور الاقتتان بالمال أن يجعل المسلم حكمه على الناس من منطلق المال لا الأخلاق².

وأما ما ورد عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ"³، فالحديث يدل أن غالب أهل الدنيا من الفقراء، وأن صلاحهم مع الفقر هو الذي أدخلهم الجنة، وإن صلح حال الغني فأدى ما عليه من الإنفاق والبدل والتواضع فعلم من الأفضل عند الله⁴.

إن هذه التراجم بمجموعها بما تحمله من توجيهات لا تعني الانغلاق عن الدنيا، والعزلة عن الحياة، ولا إهمال عمارة الأرض، والقيام بواجب الاستخلاف فيها، وإنما تدعو إلى تصحيح النظرة إلى الدنيا، ومجاهدة النفس بعدم الاعتزاز بمتاعها الزائل حتى تسلم عقيدة العبد.

المطلب الخامس: اعتزال الناس عند الفتن لمن خاف على دينه.

ومن الفتن التي يتعرض لها المسلم فتنة مخالطة الناس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾⁵ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: 20] فمخالطة الناس لا تخلو من فتنة سواء في العقيدة، أو في البدن، أو في الأمن، "ولما كان حفظ الدين مقصد من مقاصد الشرع، وكان المرء لا يضمن بمخالطة الناس سلامة دينه"⁵، في زمن اختلط فيه الحق بالباطل، وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يشق على النفوس، ترجم البخاري: (بَابُ: الْعُرْزَةُ رَاحَةً مِنْ خُلَاطِ السُّوءِ)، ومقصود الباب جواز العزلة لمن

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: فضل الفقير، حديث رقم (6449)، (95/8).

² ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (278/11).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: فضل الفقير، حديث رقم (6449)، (96/8).

⁴ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (173_171/10).

⁵ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (344/18).

خاف على سلامة دينه، وفي الترجمة: (راحة) أي الراحة من الفتن التي تفتك بالدين، ففي حديث الباب الذي رواه أبو سعيد الخدري، قال: "جاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شَعْبٍ مِنْ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ"¹. وقسم القرطبي الجهاد إلى نوعين: جهاد النفس والشيطان بقطع المألوفات والمحبوبات من الأهل، والأقارب، والصداقات، والأوطان، واجتناب الشهوات، وهذا هو الجهاد الأعظم، فمن بلغه فقد ظفر، وجهاد خارجي وهو جهاد العدو، أما إذا تعين الجهاد فلا تجوز العزلة².

ولا يفهم من هذا أنّ اعتزال الناس من الدين، بل إنّ الاختلاط هو الأصل إذا ضمن العبد سلامة دينه؛ لأن في الاختلاط من الخير الكثير سواء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعلم والتعليم، وزيارة المرضى، والمشاركة في تشييع الجنازة، وحضور الجمع، وتكثير سواد المسلمين، وما يتبعه من تحسين الخلق من التواضع والاحتمال والحلم، ومعرفة بعض الأحكام.

فالعبرة في موضوع العزلة حال الشخص، فإن كان ضامنا سلامة دينه، قادرا على مواجهة الفتنة فالخلطة في حقه أفضل، وإن خشي على دينه، وكان غير قادر على مواجهة الفتن فالعزلة في حقه أفضل، هذا ما لم تعم الفتنة فإن عمّت ترجح العزلة، لما قد ينتج عنها من الوقوع في المحذور، فالفتنة إذا عمّت دخل في العقوبة من هم ليس أهلها، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَامًّا ۗ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:25]³. لأنّ الفتنة إذا عمّت هلك الكل، وذلك إذا انتشرت المعاصي وظهر المنكر، ولم يُمكن تغييره، فوجب حينها على المسلم المنكر للمنكر بقلبه هجران تلك البلد، والفرار بدينه⁴.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: العزلة راحة من خلط السوء، حديث رقم (6494)، (103/8).

² انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (722/3).

³ انظر: الشنقيطي، محمد الخضر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني (1354هـ)، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، الناشر: مؤسسة الرسالة-بيروت، (ط1/1415هـ-1995م)، (7_6/2).

⁴ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (392/7).

ولمّا كان الابتلاء بالفتن اختبار للعبد يبتلّى فيه أيصبر أم يكفر، يقول تعالى: ﴿أَحْسِبُ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِيْمَانًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:2]، جاءت تراجم كتاب الرّفاق بما تضمنته من آيات وأحاديث، تبيّن السبيل للنجاح في هذا الاختبار. فالابتلاء والاختبار في كل شيء يهون، أمّا في الدين، فالدين أولى وأوكد؛ لذا شرعت العزلة حفاظًا على الدين وتمسكًا به واعتصامًا بحبله، والظروف والأحوال متعاقبة مختلفة.

وها نحن أصبحنا نعاين هذا الزمان، الذي كاد انتشار الباطل فيه يسابق الريح المرسلة، فكم عكّر المنكر صفو أيامنا وشابت القلوب حزنًا من العجز عن التغيير، وكم من الفتن التي تُلجم المرء فتحبس آهات في صدره، فاللهم هجرة إليك!

المطلب السادس: الاستعداد للقاء الله.

إنّ المطلع على تراجم كتاب الرّفاق، يلحظ العلاقة بين اسم الكتاب وأبوابه، فموضوعات هذه الأبواب ترق لها القلوب، فكيف إذا كانت مواضيعها تتعلق بالموت، وأهوال يوم القيامة، والنفخ في الصور، والبعث، والحساب، والحشر، والجنة والنار، والصراط، والحوض.

وبهذا فإنّ تراجم كتاب الرّفاق بما حوته من دعوة للإيمان باليوم الآخر، الذي يعتبر من أصول الإيمان بل ركنا من أركانها الستة، تتجلى آثاره على العبد المسلم فهي سبب لتصحيح سلوكه، ونجاته وفوزه بالآخرة، وهي بوصلة التوجه للعمل فوزًا بالجنة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِّخَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ﴾ [آل

عمران:185]. ومن آثار الإيمان باليوم الآخر¹، وأوردها البخاري في تراجمه:

1. زيادة إيمان العبد بربه استعدادًا ليوم عظيم، فعندما يتيقن العبد بقدرته الله على بعث الأجساد بعد موتها،

وإعادة الحياة إليها يزداد إيمانًا بالله وخشية منه، ومن ذلك ما جاء في باب: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ

¹ انظر: العقيل، سعود بن عبد العزيز، آثار الإيمان باليوم الآخر من تفسير الطبري، رسالة دكتوراه، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام-السعودية، (ط1/1432هـ)، (53).

مَبْعُوثُونَ ﴿المطففين: 4﴾، حيث يبعث الناس من قبورهم، وهم يلجمهم العرق، في يوم عظيم الشأن، فظيع الهول¹، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرْفُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ»². والخوف من أكبر دواعي استقامة العبد.

2. الخوف من الآخرة وأهوالها، ومن ذلك ما جاء في باب: "بَابُ نَفْخِ الصُّورِ" حيث يُنْفَخُ نَفْخَةٌ فَزَعُ وَصَعَقُ، كما في قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [سورة النمل: 87] فمن شدة فزعهم وهول ما عاينوا صعقوا وماتوا، والثانية نفخة بعث حيث ترد الأرواح إلى الأموات فيبعثون من قبورهم أحياءً فزعين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51] في هول مسرعين للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأنى والتأخير³، فإذا العبد يفزع من صوت طرقة باب بصوت مرتفع، فكيف بحال الصعقة التي تميت كل من على وجه الأرض، وكيف بصورة بعث الناس من قبورهم في هول مسرعين!

وإذا وصف الله أنبياءه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]، فالعبد أحوج ما يكون إلى استشعار هذا الخوف، فيتذكر أهوال يوم القيامة في عبادته وكل أحواله، كأنه يعاين العذاب أمام عينيه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءَ آتَاوَأَوْ قُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60]. أي: فهم في وجل حتى مع قيامهم بما أمروا يخافون من عذاب ربهم⁴.

¹ انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (187/24).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى {أَلَا يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ...} حديث رقم (6532)، (111/8).

³ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (697).

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (69_68/17).

3. الإكثار من ذكر الموت، والاتعاظ به، والاستعداد له، فقد ترجم البخاري: (بَابُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ) وهو ما يقاسيه المرء من شدة الموت وعمته، وما يغشى المؤمن من ألم وشدة سكرات الموت لا يدل ذلك على نقصان مرتبته أو ضعف إيمانه، بل هي رفعة لدرجاته وكفارة لسيئاته، فإذا بأحب الخلق عند الله يصف ما يقاسيه وهو في فراش الموت، وما ذلك إلا استكمالاً لفوائده ورفعا لدرجاته صلى الله عليه وسلم¹، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، حَتَّى فُيَضَ وَمَالَتْ يَدُهُ"²، وبهذا يجب على المؤمن دوام استحضار الموت استعداد لهذه اللحظات فلا تأخذه الدنيا بملهياتها.

4. استعداد المؤمن للعرض والحساب، ومن ذلك ترجم البخاري: (بَابُ: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدِّبَ) والمناقشة هنا بمعنى الاستقصاء وتكون فيما عظم وصغر من الأمور، الجليل والحقير منها، ومعنى عُدِّبَ أي جوزي بعذاب النار على ما أظهره حسابه من سيئات، وقد يناقش غيره بمثل ما نوقش ويكون عذابه نفس العذاب ولكن الله يغفر له، وهذه المسألة استوضححتها عائشة رضي الله عنها من النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال: "مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدِّبَ. قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} قَالَ: ذَلِكَ الْعَرْضُ"³، والعرض في الحديث هو ما أشكل على عائشة رضي الله عنها، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 8] فيكون بعرض أعمال المؤمن عليه تفصيلاً، ويظهر منته عليه سبحانه بستره في الدنيا وعفوه عنها في الآخرة⁴، فعن صفوان بن محرز المازني رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفُوهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا

¹ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (363_362/11). انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (297_296/9).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، حديث رقم (6510)، (107/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، حديث رقم (6536)، (111/8).

⁴ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (158_157/7).

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ¹}. وعليه فعلى المؤمن أن يحاسب نفسه، ويعجل في توبته، بعيدا عن التسويف وطول الأمل، وأن يكون أشد الناس حياء من الله فكلما سؤلت له نفسه بذنب، يستحضر وقوفه بين يدي الله، وتوبيخه له، ويتذكر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا² وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ³﴾ [الأنبياء: 47].

5. تجنب الظلم بكل صورته، سواءً ظلم الإنسان نفسه لما يوقعها في عذاب الله، أو ظلمه للعباد، وأعظم الظلم الشرك بالله، وقد ترجم البخاري لذلك: "بَابُ الْقِصَاصِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وأورد تحته حديث عبد الله بن مسعود، مرفوعا: "أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالْإِمَاءِ"²، فأول ما يقضي به الله بين العباد هو القضاء في الدماء، فبدأ سبحانه بأعظم الجنايات وأشد الذنوب وزرا تعظيما لحرمة النفس، فقتل النفس من أكبر الكبائر، وكم انتشر القتل في زماننا هذا، وكم من ظالم ومجرم سؤلت له نفسه قتل أخيه وسفك دمه، ولا عجب فمتى انتزعت خشية الله من القلب وغابت مشاهد يوم القيامة عن الأبصار، تمادى العبد في الذنب فلا رادع يردعه.

وليس أشد على النفس من أن تتصور هذا المشهد العظيم، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَخَّذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ فطُرِحَتْ عَلَيْهِ"³.

فالله تعالى صاحب العدل المطلق يعطي المظلوم من ثواب حسنات الظالم بقدر سيئاته التي ارتكبها بحقه، فإن انتهت حسناته، أخذ من سيئات المظلوم ووضعته في ميزان الظالم، وإن لم يعف عنه فإنه يعذب⁴. فما أقساه من مشهد أن يركن المرء لبعض حسناته أن تتجيه في الآخرة، فإذا به يتجرد منها بمظلمة قد ارتكبها بحق غيره، من آفة لسان غفل عنها، أو قتل، أو سلب حق، وفي ذلك زاجر ورادع

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قوله الله تعالى {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}، حديث رقم (2441)، (128/3).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، حديث رقم (6533)، (111/3).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، حديث رقم (6534)، (111/8).

⁴ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (397/11).

لكلّ من يفكر ظلم أخيه، فعلى المؤمن متى شعر بأنه قد ظلم أخا له أن يبادر بالتوبة، ويرد المظالم لأهلها، قبل أن يأتي يوم لا دينار فيه ولا درهم يفندي به نفسه.

6. الإكثار من الأعمال الصالحة، ومن ذلك ترجم البخاري: (بَابُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) فالترجمة بالآية تصوّر شدة ما يعانیه الناس من كرب و فزع في هذا اليوم العظيم، فرسمت المشهد بصورة حيّة كأنّ العبد يشاهده أمامه، فالأمّ تتأى عن ولدها الرضيع، والحامل في ذهول تسقط حملها من هول ما ترى قبل تمامه، والنّاس حالهم حال السّكاري لمعاينتهم عذاب الله. ومن استحضر هذه المشاهد بقلبه، أكثر من الأعمال الصالحة التي تتجيه من هول هذا اليوم، واجتنب كلّ ما يغضب الله عنه، وهذا ما ذكره القرطبي بأنّ الفائدة من ذكر أهوال هذا اليوم هو التأهب والاستعداد له بالعمل الصالح، والاحتباس بطاعة الله عن عقوبته¹.

7. اجتناب المعاصي، لأنها سبب رئيسي من أسباب هلاك صاحبها، وحرمانه من حوض النبي صلى الله عليه وسلم، ومن نعيم الجنة، لذا ترجم البخاري: (بَابُ فِي الْحَوْضِ)، وأورد تحتها حديث عبدالله رضي الله عنه، مرفوعاً: "أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ، ثُمَّ لِيُخْتَلَجَنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ"²، فبيّن أن المانع من ورودهم الحوض هو إما الرّدة، لارتدادهم عن الكفر بعده، وإما لتبديلهم أعمالهم الصالحة بالمعاصي³.

8. إيثار الآخرة على الدنيا، ومن ذلك ترجم البخاري: (بَابُ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ) لبيان أنّ محبة الله والشوق لِقائه تستلزم من العبد إيثار الآخرة على الدنيا وعدم محبة المكوث فيها فيكون في

¹ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (4_2/12).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، حديث رقم (6576)، (119/8).

³ الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (64_63/23). انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (64/15).

استعداد للارتحال عنها، وفسر ابن الأثير معنى لقاء الله بالمصير إلى الدار الآخرة، وابتغاء ما عند الله فمن ترك الدنيا وزهد فيها أحب لقاء الله، ومن آثر الدنيا كره لقاء الله¹.

وهو كما فسره النووي ما يحدث عند نزح الروح (الاحتضار) حيث يرى المرء ما هو صائر إليه، فأهل السعادة يبشرون ويجزل لهم العطاء فيحبون لقاء الله، فيحبهم الله ويبشرهم برحمته ورضوانه، وأهل الشقاء يكرهون لقاء الله لعلمهم بسوء ما أودت به أنفسهم، فيكره الله لقاءهم ويبعدهم عن رحمته²، فسره ما روته عائشة رضي الله عنها، مرفوعاً: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ". قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أُرْوَاهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"³.

فلا يلزم من كراهية الموت كراهية لقاء الله، فما ممّا أحد إلا ويكره الموت، وذلك مما جبلت عليه النفوس فهي تنفر من المكروه والضرر. إلا أنّ من عرف الله حق معرفته، وتمكّن حب الله في قلبه، استقبل الموت بحفاوة شوقاً للقاء الله ورغبة فيما عنده، وهذا حاله صلى الله عليه وسلم عندما خيّر بين الموت والحياة فاختر الموت⁴

9. المسارعة إلى التوبة قبل فوات الأوان والبعد عن التسوية وطول الأمل، ومن ذلك قول البخاري:

(بَابُ) وجاء في بعض النسخ (باب طلوع الشمس من مغربها) ولفظ (بَابُ) دون ترجمة فهو كالفصل من الباب الذي سبقه وهو (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ) والمناسبة بينهما واضحة، فطلوع الشمس من مغربها يؤذن بقرب قيام الساعة، وحديث الباب ما رواه أبو هريرة

¹ انظر: الكرماني، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (26_25/23). انظر: ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت 6٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (266/4).

² انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (10_9/17).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، حديث رقم (6507)، (106/8).

⁴ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (644/3). ما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَهُوَ صَاحِبٌ: إِنَّهُ لَمْ يُغْبِضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ. فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأَسُهُ عَلَى فَجْدِي غُضِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السُّقْفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى".

رضي الله عنه، مرفوعاً: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا حَيْرًا} وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ تَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَنْبَإِعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيظُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا"¹، وفيه دعوة للمسارعة إلى التوبة، والإكثار من الأعمال الصالحة؛ فبطلوع الشمس من مغربها، لا يقبل إيمان ولا عمل²، وكما ذكر الطبري ففي قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا حَيْرًا} بيان أن الله لا يقبل من كافر إيمان ولا عمل بعد الطلوع إن لم يكن مؤمناً قبل ذلك، كحال من تاب بعد الغرغرة فلا تقبل منه³.

10. السَّبَاقُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْفِرَارُ مِنَ النَّارِ، وفي ذلك ترجم البخاري: (بَابُ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) مستخدماً أسلوب المقابلة سالكا منهج القرآن، فما في الباب من ترغيب وترهيب، وبشارة وندارة؛ تذكير للإنسان في كل خطوة يخطوها أن يتمثل الجنة والنار أمامه، فلا تخطو قدمه إلا ما فيه مواضع الجنة.

ونكر من صفاتهما من خلال الأحاديث التي أوردها تحت الترجمة، ومن ذلك ما رواه عمران بن حصين رضي الله عنه، مرفوعاً: "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ"⁴، أن أكثر أهل الجنة من الفقراء؛ لما قد تقدم بأن المال فتنة وسبب طغيان صاحبه، ومدعاة للفواحش والسرقة، وأن أكثر أهل النار من النساء لكفرهن العشير وإكثارهن اللعن، ولما يغلب عليهن من الميل للدنيا والإعراض عن الآخرة⁵، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ. فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ،

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب، حديث رقم (6506)، (106/8).

² انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (23/140_142).

³ انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (13/10).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: صِفَةُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حديث رقم (6546)، (113/8).

⁵ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (420/11).

وَتَكَفَّرْنَ الْعَشِيرَ"¹، وفي الحديث التحذير من فتنه المال، وتوجيه النساء للإكثار من الأعمال الصالحة والصدقات تكفيرا عن خطاياهن²، وعدم الاغترار بالدنيا ومتاعها الزائل.

وفي الجنة ما يحفز المؤمن على السباق لها، وهو ما دلّ عليه حديث الباب الذي رواه أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عُدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعٌ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ، لِأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَّتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا يَعْغِي الْخِمَارَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"³، وفي المقابل وُصف عذاب النار بما يقشعر الأبدان، ويجعل العبد في أشدّ الحذر منها، فعن النعمان بن البشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَعْغِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَعْغِي الْمَرْجَلُ وَالْقُمْمُ"⁴ وإذا كان هذا هو أهون عذاب أهل النار، فكيف بمن هم أعظم عذابا!. ولما كانت غمسة واحدة في الجنة تنسي صاحبها كل بؤس ذاقه، وغمسة واحدة في النار تنسي صاحبها كل خير ذاقه في الدنيا، أراد الله سبحانه وتعالى أن يطمئن أهل الجنة بما يقرّ عيونهم فيخبرهم بأنّ هذا النعيم الذي هم فيه نعيم دائم لا أمد له، ويزيد أهل النار حسرة، بما يجعلهم يعضون على أصابعهم ندما، أنهم مخلدون في العذاب، فلا راحة لهم بالموت أبدا، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُدْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، فَيَزِدَادُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزِدَادُ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ"⁵.

ويكفي أهل الجنة شرفا أنّ الله يطلع عليهم فيحلّ عليهم رضوانه، فالمرء منّا يكون بقمة السعادة برضا محبوبه عنه، فكيف إن كان العظيم هو الذي قد رضي عنه؟ قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب، حديث رقم (1462)، (120/2).

² الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (370/3).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: صفة الجنة والنار، حديث رقم (6568)، (117/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: صفة الجنة والنار، حديث رقم (6562)، (115/8).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: صفة الجنة والنار، حديث رقم (6548)، (113/8).

[التوبة: 72] أي: فرضوانه أعظم من كل نعيم، ومن نال رضوانه فقد ظفر بكل مرغوب ونجا من كل مرهوب، ذلك هو الفوز العظيم¹، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"². فهنيئاً لمن سبق بعمله إلى الجنة فأحسن لنفسه ولم يعرضها لعقاب الله وسخطه.

وفي الختام، وبعد سرد هذه الآثار لا بد من القول بأنها وإن بدت جليّة في بعض التراجم فليس معناها أنها تقتصر عليها، بل قد تجتمع في الترجمة الواحدة مثل هذه الآثار وغيرها، فليس ذلك على سبيل الاستيعاب، بل لبيان عظيم أثر الإيمان باليوم الآخر على العبد المسلم، فما تحويه في طياتها من رقائق تأخذ بالقلب إلى الآخرة، وتجعله يصرف نظره عن العاجلة، ما يبعث النفس على الاستقامة؛ فتكف عن المعاصي، وتتشغل بالطاعات، وتجعل العبد في جاهزية للقاء الله. وهذا ما ذكره الطبري في أثر الإخبار عن أهوال يوم القيامة بأن يكون السامع على بصيرة حتى ينجو بنفسه من أهوال ذلك اليوم، فالعلم بالشيء قبل وقوعه فيه رياضة للنفس، ومعونة لها على ما فيه خلاصها، بخلاف إذا ما جاء الأمر بغتة³.

المطلب السابع: التيسير على الناس، والتحذير من المغالاة والتشديد على النفس والغير.

إن مقصد التيسير حاضر عند الإمام البخاري في كامل الصحيح، كيف لا وقد تشرب السنّة النبويّة بفقهها ومضامينها، لذا لم يغيب عن فكره أنّ الآداب ورفائقتها، قد يشوبها المغالاة والتشديد على النفس فجاء ببابين اثنين يعالجان ذلك، (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا)، و(بَابُ الْقَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ).

¹ انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (566_564/11).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، حديث رقم (6549)، (114/8).

³ انظر: العقيل، آثار الإيمان باليوم الآخر من تفسير الطبري، (444).

ففي ترجمة البخاري: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْرُوا وَلَا تُعَبِّرُوا، دعوة للتيسير على الناس، والتخفيف عنهم؛ لتأليف قلوب من قرب إسلامهم، وعدم التشديد عليهم، وكذلك اللطف في زجر من سؤلت له نفسه إلى معصية حتى يقبل النصيحة. وكما يدخل ذلك في باب تعليم العلم، فيجب أن يكون بالتدريج؛ خشية السامة والملل. فكان صلى الله عليه وسلم يأمر بالتسهيل فيما يتعلق بأمر الدنيا، والوعد بالخير والإخبار بالسرور، تحقيقاً لكونه رحمة للعالمين¹، ومن صور التيسير التي برزت في السنة النبوية كثيرة، ومنها:

1. ترفق النبي صلى الله عليه وسلم بالأعرابي الذي بال في المسجد ولم يعنفه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: "أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقْعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ أَوْ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ"².
2. قطع أبو برزة الأسلمي صلاته لكي يتبع فرسه التي انطلقت وهو يصلي، فاستهجن الناس فعله، وقد علل لهم فعله بأن بيته بعيد فلو ذهبت الفرس لما استطاع العودة إلى أهل بيته، وأنه عاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منه من التيسير ما حمله على ذلك، وقد روى القصة الأزرق بن قيس رضي الله عنه، حيث قال: "انظروا إلى هذا الشيخ يقصد - أبا برزة - تَرَكَ صَلَاتَهُ مِنْ أَجْلِ فَرَسٍ، فَأَقْبَلَ فَقَالَ: مَا عَنَّفَنِي أَحَدٌ مُنْذُ فَارَقْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ إِنَّ مَنْزِلِي مُتْرَاحٌ، فَلَوْ صَلَّيْتُ وَتَرَكَتُهُ لَمْ أَتِ أَهْلِي إِلَى اللَّيْلِ" وَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَى مِنْ تَيْسِيرِهِ"³.
3. اختيار النبي صلى الله عليه وسلم أيسر الأمرين إذا خُيرَ بينهما، وهو أقدر الخلق على عبادة الله، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ"⁴.

¹ انظر: الشنقيطي، موثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (156/3).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْرُوا وَلَا تُعَبِّرُوا، حديث رقم (6128)، (30/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْرُوا وَلَا تُعَبِّرُوا، حديث رقم (6127)، (30/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْرُوا وَلَا تُعَبِّرُوا، حديث رقم (6126)، (30/8).

ومن صور التيسير على النفس ما جاء في (بَابُ الْقَصْدِ وَالْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعَمَلِ)، من نهي عن التَّكَلُّفِ والمشقَّة في العبادة، وتحميل النَّفْسِ فوق طاقتها؛ لِأَنَّ بِالْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْقَلِيلِ تستمر الطاعة وتكثر بركتها، بخلاف الكثير الشاقّ فقد يؤدي بصاحبه إلى السَّامة والملل، فيضعف في وسط الطريق، وينقطع عن العمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاعْدُوا، وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا"¹، لذا حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو والتشديد في الدين، وأنّ الأولوية للعمل الدائم لا المنقطع².

ومن جميل ما ذكره الكرمانى، قوله: اقتصدوا في الأقوال والأعمال، واختاروا الصواب منهما، واجعلوا سيركم وسطا حتى تبلغوا مقصدكم، فلا تقضوا أوقاتكم كلها بالسير، بل اغتصموا الوقت الذي تنشطون به أول النهار وآخره، وجزء من الليل، واجعلوا لأنفسكم ما يعينكم على الاستمرار حتى تتمكنكم من المواصلة³.

وأما ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها، حين "سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ، وَقَالَ: اكْفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ"⁴. ففيه أنّ المداومة تكون بما تطيقه النفس وتقدر عليه، فإن قال قائل: كيف يكون الدائم قليلا؟ قيل: فهذا يحمل على ما يطلق عليه مداومة بمعنى العرف، إذ إن شمول الأزمنة غير مقدور عليه⁵. والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع؛ لما فيه من استدامة الطاعة، والإخلاص، والاتصال بالله ومراقبته. وقد يثمر القليل الدائم، فيزيد على الكثير المنقطع أضعافا كثيرة.

والاقتصاد في العبادة يشمل أعمال البر كلها وليس مخصوصا بالصلاة وحدها، فلقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على الرهط الثلاث تشديدهم على أنفسهم وغلوهم في العبادة، وجعل ذلك مخالفا لسنته، فعن

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (6463)، (98/8).

² انظر: القرطبي، في فقه الأولويات، (102_101).

³ انظر الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (223/22). انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (71/6).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (6463)، (98/8).

⁵ انظر الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (223/22).

أنس رضي الله عنه، قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأحسأكم لله وأثقأكم له، لکيي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"¹.

والمسلم الذي ينشأ على تعاليم الوحي يتصف بعلو الهمة، فتحته نفسه على الفضائل والمداومة على الطاعات، يصرف نفسه عن سفساف الأمور وتوافهها، معتدلاً بعيداً عن الغلو والتعمق في العبادة، وهذا شأنه في أموره كلها في عبادته، وعمله، ودراسته، فيوازن؛ ويجعل لنفسه حظاً من الراحة ولا يجهدا؛ حتى تستطيع المواصلة.

المطلب الثامن: التفكير في آيات الكون.

ومن العبادات التي وجه البخاري المسلم لها، ولم يغفل عنها في تراجمه التفكير في آيات الله في الكون، فترجم: (باب رفع البصر إلى السماء، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: 17، 18].

فالنظر في ملكوت السماوات والأرض يُعدّ باباً من أبواب التفكير، "فهو عبادة غفل عنها كثير من الناس، وأفضلها ما يكون سبباً في نفع صاحبه ونجاته في الآخرة، ثم التفكير على ما يعينه على تحقيق مصالح معاشه، والنظر فيما يضره؛ ليتخلص منه"².

والتفكير في ملكوت السماوات والأرض عبادة يهندي بها العبد إلى خالقه، فتفتح له ستائر النور الإلهي وتكشف الحجب عن عقله وقلبه، وتجعله أكثر استجابة لقبول الحق، فمن أعمل بصره أدرك أنّ وراء هذا

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، حديث رقم (5063)، (2/7).

² انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (229/2).

الكون صانع مبدع، حي قيوم، فتعاقب الليل والنهار، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر، بل الكون بكل نواميسه وقوانينه حق ينبأ عن إله حق، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: 191] ولهذا كثرت الأدلة التي تدعو العبد للنظر والاستدلال في ملكوت السماوات والأرض؛ ليكون إيمانه مستندا إلى العلم واليقين لا التقليد. وهذا حال الأعرابي الذي استدل على الإيمان بما رأى من آيات الله في الكون، قائلا: سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟¹

وفي هذا ترجم البخاري: (بَابُ رَفْعِ الْبَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾). وقوله: "رفع البصر إلى السماء للرد على من قال بكراهية رفع البصر إلى السماء، ظنا منه أن ذلك من باب الخشوع والتذلل مع الله..، بل ورد ما يفيد خلاف ذلك من الدعوة إلى النظر في ملكوت السماوات، والتفكر فيها"²، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية: 17، 18]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: بث في بيت ميمونة والنبي - صلى الله عليه وسلم - عندها فلما كان ثلث الليل الآخر أو بعضه قعد فنظر إلى السماء فقرا: ﴿إِنَّ فِي حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: 190].

فعبادة التفكير تبين من هم أصحاب العقول الحقيقية الذين لا ينشغلون بالنعمة عن المنعم، ويجعلون ذكر الله والتفكر في خلقه مصاحبا لهم في جميع أحوالهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.³

والترجمة بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية: 17، 18] تبين ثمرة التفكير فهو يقود العبد إلى معرفة الله بأسمائه وصفاته، ويدلّه على الطريق المنجية والصرراط

¹ انظر: الشعراوي، محمد متولي (ت1418هـ)، تفسير الشعراوي-الخواطر، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (1997م)، (1955/4)، (8420/14).

² انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (361_360/9).

³ انظر، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (310/4).

المستقيم¹، فما حلّ بأهل الشقاء من المشركين الذين أنكروا البعث، إلا بسبب إعراضهم عن النظر في دلائل وحدانيّته، فمن أوجد هذه الموجودات العظيمة من عدم، لأهون عليه إعادة الإنسان بعد فنائه².

ولأنّ خلاف التفكير هو فراغ العقل عن مكونات الكون التي صنعها الله، وصدأ القلوب الذي يسببه الانشغال بسفاسف الأمور، فيصبح القلب خاليا، لقمة سهلة لوساوس الشيطان، يلقي فيها الأفكار الخبيثة، ورحم الله ابن عيينة إذ يقول: "الفكرة نور تدخله قلبك"³.

المطلب التاسع: الحب في الله والبغض في الله.

أشرف أنواع المحبّة هي المحبّة الخالصة لله، إذ هي أصل التوحيد وروحه، ولا تصدق هذه المحبّة ولا تكتمل حتى تغلب جميع المحاب وتسبقها، وأن تكون كل محبة أخرى تابعة لها، متفرعة عنها، فيلزم منها موالاته من يحب الله، ومعاداة من يعاديه⁴. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:54]، فالحب في الله والبغض في الله من متمّمات حب الله ورسوله، فحبّ الله ورسوله من أوجب والواجبات وآكدها، وبالتالي فإنّ بغض رسوله أو بغض ما أوجبه الله، وصحّ عن رسوله فهو من أنواع المكفّرات المخرجة عن الملة⁵.

وفي الحثّ على التحابّ بين المؤمنين، وبيان ضابط هذا الحب، ترجم البخاري: (بابُ الحُبِّ في الله)، أي لأجل الله، وهي المحبة المجردة عن المصالح والأهواء، لا لأجل جاه أو دنيا، بل الذي دفعه لحب أخيه ما رآه عليه من قيام بالطاعات، واجتناب للمعاصي، والمنكرات. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لَا يَجُودُ أَحَدٌ خَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ"⁶، فحلاوة الإيمان

¹ انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (224).

² انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (304_303/30).

³ الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (306/7).

⁴ انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (24/1)، (38/1).

⁵ انظر: عبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد، الحب في الله والبغض في الله، الرياض، دارالوطن للنشر والتوزيع، (ط1/2000م)، ص: (8).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحب في الله، حديث رقم (6041)، (14/8).

ليس المقصود بها حلاوة العسل أو السكر، بل هي حلاوة يضيفها الإيمان على القلب فيطمئن ويأنس، حلاوة بمعرفة الله ورسوله، وحب أهل الخير والإيمان، فهي ألد من كل حلاوة¹.

والمحبة في الله أوثق عرى الإيمان وأوجبه، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً: "والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم"². فقسم النبي صلى الله عليه وسلم بعدم إيمانهم حتى يتحابوا، وعدم دخولهم الجنة حتى يؤمنوا، أكبر دليل على ذلك، فعلى المسلم أن يسعى لكل ما يوجب التوادد والمحبة بين المسلمين؛ لأن الإنسان بعبادته، لا يتعاون إلا مع من يحبه، فالمحبة هي أصل للتعاون على البر والتقوى؛ لذا كانت علامة على كمال الإيمان³.

ومن ثمرات الحب في الله التآلف بين المؤمنين، وزيادة قوتهم، وتمكينهم من عدوهم، فهي قائمة على نفع المسلم لأخيه المسلم، ونصحه، وتقديم يد العون له، فيها يستشعر مصاب أخيه، فيأوي إليه، ويألم لألمه، كأنه هو المصاب به، قال ابن بطال: "وصفة التحاب في الله، أن يكون كل واحد منهما لصاحبه، في تواصلهما وتحابهما بمنزلة نفسه في كل ما نابه، كما روى النعمان بن بشير، قال: سمعت النبي عليه السلام - يقول: (مثل المؤمنين مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد)⁴."

وفي الحب في الله طمأنينة للعبد، وخير معين له في زمن الغربة، حيث يأوي لمن يأمن معهم على دينه، من يذكروه إذا رآهم، ويعينوه إذا وجد من نفسه الفتور، يغفروا زلاته، ويستروا عيوبه، نصحاء أمناء، يسلك بهم طرق النجاة، ولا يبغى عنهم حولا. قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ

¹ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (258/3).

² مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. وأل حبة المؤمن من الإيمان. وأل إفشاء السلام سبب لخصولها، حديث رقم (54)، (74/1).

³ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (265_266/3).

⁴ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (2585)، (1999/4).

⁵ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (238_236/9). انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (265_258/3).

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ^ط وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف: 28].

المطلب العاشر: الاقتداء بأهل الخير والصلاح. (صناعة القدوات).

إن من أهم الأسس التي يحتاجها المسلم في بناء شخصيته هو الاقتداء والتأسي بهديه صلى الله عليه وسلم، فيأخذ من سنته تطبيقاً عملياً وينهل من معين عذبتها الصافي حيث لا كدر ولا زلل، فسنته فاقت كل قوانين الآداب والأخلاق، وهي المفسرة والمؤكدة والمتممة لما جاء به القرآن، قال عمر رضي الله عنه: "إنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... الحديث".¹

ولما كان اتباع هديه صلى الله عليه وسلم سبب نجاته العبد ورفع درجاته في الآخرة، ترجم البخاري: (باب في الهدي الصالح) في الاقتداء بأهل الخير والصلاح والسير على نهجهم، فهم أقرب الناس امتثالاً لهديه صلى الله عليه وسلم، "والهدي هو السيرة، أي الطريقة التي يجب أن يسير عليها المسلم، وهي لزوم طريقة أهل الإسلام، وتمثل هيتهم"²، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: 69] وأي مقام أعظم من ذلك.

وفي قول حذيفة رضي الله عنه: "إنَّ أَشْبَهَ النَّاسِ دَلًّا وَسَمْتًا³ وَهَدْيًا بَرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ أُمِّ عَبْدِ مِنْ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ، لَا نُذْرِي مَا يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ إِذَا خَلَا"⁴، فالثناء على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ لما كان يتصف به من حسن الهيئة والسمت والوقار، حتى كان الصحابة

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: في الهدي الصالح، حديث رقم (6098)، (25/8).

² ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (253/5).

³ السمت: أي حسن هيئته ومنظره في الدين، وليس من الخسن والجمال. وقيل هو من السمت: الطريق. يقال الزم هذا السمت، وفلان حسن السمت: أي حسن القصد. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (397/2).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: في الهدي الصالح، حديث رقم (6097)، (25/8).

رضوان الله عليهم يتشبهون به ويراقبون أقواله وأفعاله وحركاته وسكونه ويرون بجميل خصاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.¹

ومن صور الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ما جاء في: "بَاب: كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَتَخْلِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا"، فمن أدرك حقيقة الدنيا كان أكثر الناس زهدا فيها، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتركون فضول المباحات وما لا ينفعهم بالآخرة، فيكتفون بالقليل من الدنيا دون توسع وتعلق بها²، وأحاديث الباب كلها شواهد على ذلك، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامٍ بُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ"³، وعنها أيضا حين قالت لِعُرْوَةَ ابْنِ أَخْتِهَا: "إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَالِلِ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، فَقُلْتُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: النَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيزَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَاحِجٌ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ"⁴، فهذه الأحاديث تبين حاله صلى الله عليه وسلم وحال أهل بيته وصبرهم على شظف العيش، فكانوا في أغلب أحوالهم لا يشبعون، ويقنصرون على ما يسد رمقهم، ويعينهم على المواصلة، مدبرين عن الدنيا ومتاعها الزائل، راغبين فيما عند الله⁵.

ولمّا كان صلى الله عليه خير من يقتدى به لمن أراد بلوغ درجات الكمال الإنساني في السلوك، والفلاح في الآخرة، ففي سيرة أصحابه رضوان الله عليهم ما يغني لتجسيد نموذج القدوة، ولا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود أفراد ممّن امتثلوا هديه صلى الله عليه وسلم فيصلحوا لأن يكونوا قدوات، فعن المغيرة

¹ انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (222/21).

² انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (353/2).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا، حديث رقم (6454)، (97/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا، حديث رقم (6459)، (97/8).

⁵ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (129_128/7).

بن شعبة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ"¹.

لذا يعدّ اهتمام البخاري موضوع القدوة في تراجمه، للدور المحوري الذي يتمثله، ومن ذلك:

1. "لأنّ القدوة الحسنة تحتل مكانة مرموقة في المجتمعات، فهي تحظى بالتقدير والثناء من الكثير من الناس، ممّا يشكل حافزا قويا للأفراد لمحاكاة هذا الشخص، ومهما ضعف أثر القدوة الحسنة في ظل انحراف المجتمعات، إلا أنّ أثرها يبقى واضحا على بعض الأفراد الذين يمتلكون قدرة على محاكاة الأمور.

2. إنّ الإنسان العاقل، الذي يتطلع لمراتب الكمال إذا استحسن أمرا يحركه دافع الغيرة، لمحاكاة هذا الشخص، وتقليده فيما استحسنه وأعجب به.

3. إنّ القدوة الحسنة المتحلية بفضائل الأخلاق، تمنح الآخرين قناعة بأن الوصول لهذه الفضائل أمرا ممكنا، غير مستحيل، ممّا يجعل الفرد يطوِّع قدراته حتى يكتسبها"²

إنّ هذا الباب يبيّن معالم الطريق للعبد المسلم، ويرسل له رسالة إذا أردت النجاة لدينك فانظر لمن تلتفت، ولمن تصرف وقتك وأنفاسك، وفيه الحثّ على دراسة سيرة السلف الصالح، والافتداء بهم، ف نموذج القدوة في حياة المسلم، رادع للنفس عن الالتفات لغير الصالحين، فكم من الشباب اليوم - للأسف - من انصرفت همّتهم وصرفوا أعمارهم في تقليد الكثير من المشهورين أصحاب المحتوى التافه، لشدة انبهارهم بهم، الذين لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، ويطمحون لحياتهم، ويرون أنّها من التّعيم المعجل، فيسلبون المسلم من هويّته، وينسلخ عن دينه، عندها يصبح في صراع مع نفسه، لا يعرف للرّضا معنى.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم، حديث رقم (7311)، (101/9).

² انظر: الميداني، عبدالرحمن حسن حنيفة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم_دمشق، (ط5/1999م)، (216-214/1).

المطلب الحادي عشر: الحرص على فعل المعروف وإن قلّ.

من عظيم سمات هذا الدين تقديره للمعروف وإن قلّ، فالله عز وجل أرسى مبدأً عظيماً وهو عدم استصغار أي عمل من أعمال البرّ مهما قل، ليربي الإنسان على تقدير المعروف واستشعار الذرة منه، فلا يدري الإنسان ما العمل الذي يكون سبب نجاته، حتى لو كان في نظره حقيراً، فقد يكون عند الله عظيماً، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7_ 8].

وفي الحثّ على فعل المعروف وتقديره، ترجم البخاري: (باب: كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ) والمعروف هو: "ما عرف من جملة الخيرات من عطية مال أو خلق حسن، أو ما عرف فيه رضا الله من الأقوال والأفعال، فكل ذلك من الصدقات التي يثاب فاعلها"¹.

وإيراد البخاري لحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يبرز عموم مفهوم الصدقة والندب للمسارعة إليها، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ، أَوْ قَالَ: بِالْمَعْرُوفِ قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: فَيَمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ"²، فهو كما بين ابن بطال يدخل في باب مكارم الأخلاق وآداب الإسلام، وليس بفرض بالإجماع، وفيه أنّ طرق الخير الموصلة لمرضاة الله كثيرة، فعلى من لم يقدر على باب من أبواب الخير، أن ينتقل لآخر يقدر عليه، فمن لا يملك ما يتصدق به، فالنبي يرشده للعمل بيديه فيعفّ نفسه عن سؤال الناس، وينفع غيره، وإلا فيعين المكروب والمحتاج، فذلك له صدقة، فإن عجز عن الفعل، فجعل له من القول بدلا، فأرشده لقول المعروف والنهي عن المنكر فذلك من الصدقة، فإن عجز، فجعل تركه للأذى وكفّه عنه صدقة، وهذا من سعة رحمته، وعظيم عطائه³.

¹ الملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (1336/4).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، حديث رقم (6022)، (11/8).

³ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (224/9).

إنّ تقدير المعروف من جميل خصال الإسلام، فهو صيانة لكرامة من لا يملك من المعروف إلا الشيء القليل من احتقار النَّاس له، ودعائم هذا الباب كثيرة، ففي عدم احتقار الصدقات، ومواساة الفقراء الذين لا يملكون ما يتصدقون به، فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "انقوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ انقوا النَّارَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"¹، فلا يحتقر نصف التمرة لقلتها فقد تكون سببا لنجاته من النَّار، فمن لم يجد نصف التمرة، فالكلمة على بساطتها يكون لها عظيم الأثر على النفس، والثواب الجزيل².

وأدنى ما يفعله المسلم من المعروف أن يلقى أخاه بوجه طلق، فإدخال السرور على قلوب الناس، لا يكلف شيئا سوى انفراد عضلات الوجه بابتسامة صادقة³، فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"⁴.

فعلى المسلم أن يكثر من أعمال الخير ولا يحقر من الإحسان شيئا، وأن يحرص على استحضار النية في كل عمل يقوم به، فلا يدري ما العمل الذي يكون سببا في رفع درجاته، فيأمل بعبء الرحيم، وينشر الخير في المجتمع، ويطلق أبواب الصدقات فالصدقة لا تقف عند حدود المال، بل تدخل في كل ما يقوله العبد ويفعله من الخير.

المطلب الثاني عشر: ذكر الله على كل حال.

ولمّا كان ذكر الله مستحب للعبد في جميع أحواله، ترجم البخاري بأكثر من باب في ختام كتاب الأدب، لما لها من ارتباط المؤمن بأخيه المؤمن من تشميت العاطس، لذا ترجم البخاري: (بَابُ الْحَمْدِ لِلْعَاطِسِ) بيانا لمشروعية الحمد عند العطس، لأنّ العطاس من النعم الجليلة التي تستحق الثناء والحمد، فهو يحافظ على سلامة الدماغ من الأذى؛ لأنّه منشأ الأعصاب، وقوة الفكر، فسلامته سلامة لجميع الأعضاء. ومقابلة

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: صفة الجنة والنار، حديث رقم (6563)، (115/8).

² انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (639_637/2).

³ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (639/2).

⁴ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة و الآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث رقم (2626)، (2026/4).

العطاس بالحمد من العبد؛ اعترافاً بنعمة الله عليه، وإقراراً بقدرته سبحانه وإضافة الخلق إليه لا إلى الطباع.¹ وهو مستحب باتفاق العلماء كما نقل عن النووي.² فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَمَّتْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: هَذَا حَمْدَ اللَّهِ، وَهَذَا لَمْ يَحْمِدِ اللَّهَ."³

وبهذا تتجلى نعمة الله على العاطس، فكان لا بد أن يقابل هذه النعمة بالحمد والثناء بأن دفع عنه الضرر بالعطاس، وشرع له الحمد الذي يؤجر عليه، ثم دعا من يسمعه بالدعاء له، ففي زمن يسير سيقت إليه نعم متتالية، لا يدركها إلا من كان له قلب، تكرماً منه وفضلاً سبحانه.⁴

ومن مواطن الذكر التكبير والتسبيح عند التعجب، واستعظام الأمور فترجم البخاري: (بَابُ التَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ عِنْدَ التَّعْجُبِ) لما فيه من تعظيم الله وتنزيهه من سوء⁵، فكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يُتعجب منه يسبح ويكبر، ومن ذلك ما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: "اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْخَزَائِنِ، وَمَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحَجَرِ يُرِيدُ بِهِ أَرْوَاجَهُ حَتَّى يُصَلِّيَنَّ، رَبُّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ فِي الْآخِرَةِ" وَقَالَ ابْنُ أَبِي ثَوْرٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ⁶. فتسبيحه هنا صلى الله عليه وسلم شفقة على أمته وتعجباً من عظم الفتن التي ستعرض لها، وما يفتح عليهم من الخزائن، وأنها من أقوى الأسباب المؤدية بهم إلى النار.⁷

وهكذا تأسّى به أصحابه رضوان الله عليهم، فكانوا يسبحون إذا استعظموا أمراً وتعجبوا منه، فعن صفيّة رضي الله عنها، "أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزْوُرُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ

¹ انظر: الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (261_260/11).

² انظر: النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ)، الأذكار، تحقيق: عبد القادر الأرئوط رحمه الله، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (ط١)، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م)، (270). انظر: الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (261_260/11).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (بابُ الحَمْدِ لِلعَطَسِ)، (49/8)، (6221).

⁴ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (610_609/10).

⁵ انظر: ابن بطلال، شرح صحيح البخاري لابن بطلال، (364/9).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: التَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ عِنْدَ التَّعْجُبِ، حديث رقم (6218)، (48/8).

⁷ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (999/10).

الْعَوَائِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ قَامَتْ تَتَقَلَّبُ فَقَامَ مَعَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَلَّبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ الَّذِي عِنْدَ مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ رُوحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَعَدَا، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، قَالَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا"¹، فتسبيحهم هنا بمعنى التعجب أن يظنوا سوءا برسول الله صلى الله عليه وسلم، "لكن إخبار رسول الله لهما أنها زوجته؛ دفعا لسوء الظن، وتأهبا للاحتراز من مكاييد الشيطان ووساوسه، حيث أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم..، والتسبيح عند التعجب مما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ [النور: 16] فالتسبيح هنا واجب بحيث يحمل معنى التتزيه له سبحانه أن يصدر عنهم شناعة هذا الكلام في حق رسول الله، ولو نفيا، لأن النفي فيه مظنة حدوث الشيء².

ومتى اعتاد العبد الذكر في هذه المواطن، كان على غيرها أقدر، فتعود اللسان على الذكر أمر يحتاج إلى رياضة وتدريب رغم أنه لا يكلف شيئا، ومع ذلك فالقلة من يوفق لهذه العبادة التي تعتبر من أجلّ العبادات.

فيستحب للعبد أن يلازم الذكر في كل أحواله حتى تلازمه معية الله وتحققه، "ففي الذكر صيانة للنفس من الوقوع في الزلل، والخوض في القيل والقال، وكما ذكر الربيع بن أنس فالذكر علامة حب الله، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره"³

وبهذا جاءت تراجم كتابي الأدب والرفق بما يحويانه في طياتهما من توجيهات يبينان بعضا من مرتكزات البناء الإيماني للعبد، وما يعترضه من عوائق تقف أمام طريق هدايته.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: التكبير والتسبيح عند التعجب، حديث رقم (6219)، (48/8).

² انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (157_156/14). انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (10219/16).

³ انظر: ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (544_543/2).

المبحث الثاني: الأبعاد الأخلاقية في كتابي الأدب والرقاق.

إنَّ الأخلاق جزء لا يتجزأ من هذا الدين، وكل عمل لا بدَّ فيه من التزام أخلاقياته الخاصة به، فالمسلم بحاجة إلى مكارم الأخلاق في تعامله مع خالقه، ومع نفسه، ومع الخلق، فهي الضمان لعدم تجاوز الحد، وهي المحفز للالتزام، وهي المكتملة والمتممة لجميع العلاقات.

والأخلاق هي الطريق إلى المجتمع، فما قامت المجتمعات إلا بالأخلاق وما انهدمت إلا لانهدام منظومة الأخلاق فيها، والمتأمل لتراجم كتابي الأدب والرقاق يجدها تزخر بالعديد من مكارم الأخلاق، التي لها عظيم الأثر في بناء شخصية المسلم، وسبب فلاحه في الدنيا والآخرة، فعن مسروق رضي الله عنه، قال:

"قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أْخَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا"¹

ويهدف هذا المبحث إلى عرض الأبعاد الأخلاقية من خلال تراجمي كتابي الأدب والرقاق، مع الإشارة إلى أحاديث الباب، وقد ظهرت معالم الأبعاد الأخلاقية من خلال الآتي:

المطلب الأول: الوفاء، وحفظ العهد

يعد حفظ العهد من مكارم الأخلاق التي دعى إليها الإسلام، والتي تدل على وفاء صاحبها، وهو كما فسره ابن الأثير: "الحفاظ ورعاية الحرمة"²، وقال الراغب هو: "حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال"³، ولفظ العهد يطلق على معان متعددة، ومنها: الإيمان، والصحبة، والميثاق، والنصيحة، والوصية، وفي الحث على الوفاء، وحفظ العهد⁴، وقد ترجم البخاري: (بَابُ: حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ)، وهذا الباب جاء في الحديث عن حفظ الود، وحب النبي صلى الله عليه وسلم لزوجه خديجة رضي الله عنها، وحفظه لميثاق الزوجية الذي كان بينهما حتى بعد وفاتها، فقد كان يذبح الشاة ويهدي بها إلى صديقاتها، فعن عائشة

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا مَتَفَحِّشًا، حديث رقم (6029)، (12/8).

² ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (325/3).

³ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (591).

⁴ انظر، العيني، عمدة القاري، (163/22).

رضي الله عنها، قالت: "وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ، ثُمَّ يُهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا"¹. وهذا من حسن عهده صلى الله عليه وسلم، ورعايته لحق خديجة، وودها والبر بها بعدها، وهو دلالة على حسن الإيمان².

إنَّ الإسلام يدعو لكل ما يحفظ العلاقات بين الناس، وينشر المحبة بينهم، فقد كان صلى الله عليه وسلم، الأسوة الحسنة، في أقواله، وأفعاله، وهذا الباب دعوة لاتباع سنته، فمن حسن العهد أن يحفظ الإنسان وده بأهله، وأصدقائه الذين فرقتهم الحياة وأشغالها، وأما بعد مماتهم فيتصدق عنهم، ويدعو لهم، وهو ممَّا لا شكَّ فيه ممَّا يدخل السرور عليهم، ويوثق الصلات بينهم، وحسن العهد من سمات المؤمن التي تدل على كمال إيمانه، فكل أعمال البر من الإيمان³.

وفي هذا الباب بيان واضح لأثر العقيدة في التحلي بمكارم الأخلاق واستقامة العبد، فما الأخلاق إلا ينبوع عقيدة سليمة، فهي المصدر الوحيد المعصوم الذي يعول عليه في البناء والإصلاح الأخلاقي، وهي أعظم رادع يزجره عن كل شرٍّ وأكبر دافع يدفعه لأعمال الخير والتحلي بالفضائل⁴.

المطلب الثاني: الحثُّ على الرِّفْقِ والتحلي به.

ولمَّا كان الرفق ممَّا يوطد العلاقات بين المسلمين، ترجم البخاري: (بَابُ الرِّفْقِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ)، في الحثِّ على التحلي به، والرِّفْقُ: هو لين الجانب في القول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف، والرِّفْقُ يكون مع الإنسان والحيوان، وهو خلق يحبه الله، ويدعو عباده إلى امتثاله في جميع شؤونهم ومعاملاتهم، مع أهليهم، وإخوانهم، وأصدقائهم، والناس عامَّة، بل إنَّ أثر الرفق ينعكس على صاحبه فما تعامل أحد بالرفق إلا ووجد سعة وانشراحاً في صدره، وما تعامل أحد بقسوة وفظاظة إلا وندم⁵، وهو وصية الله لموسى وهارون عندما بعثهما إلى فرعون، في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ وَقَوْلَا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾ [طه: 44]. ولقد

¹ البخاري، صحيح البخاري، باب: حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ، حديث رقم (6004)، (9/8).

² انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (443/7).

³ انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (163_162/22).

⁴ انظر: عبد السلام، محمد عبد المنعم، علاقة الأخلاق بالدين في الإسلام، بحث محكم، جامعة الزقاليق_كلية الآداب، مجلة كلية الآداب، ع63، (31_30).

⁵ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (578/3).

كان صلى الله عليه وسلم النموذج القدوة في ذلك، فما اتصف به من رحمة ولين؛ جعل القلوب تجتمع حوله، فالناس بحاجة إلى من يهون عليهم قسوة الحياة، إلى حلم يستوعب نقصهم، وضعفهم، وجهلهم، من يكون رفيقا معهم في الكلمة، والأمر والنهي، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَوَكُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا ۗ أَلْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]¹.

وأحاديث الباب شاهدة على ذلك، فقد نهى صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها عن الاغلاظ في ردّها لليهود، ومقابلتهم بمثل قولهم، عند قولهم له: " السام عليكم "، وأمرها بالرفق قائلا: " إِنَّ اللَّهَ يُجِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ"²، وكذلك رفقته صلى الله عليه وسلم بالأعرابي الذي بال في المسجد، فأمر بأن لا يلام حتى يفرغ من بوله، رفقا به وإن كانت مقابلة المسيء بمثل فعله جائزة، إلا أنها المدرسة النبوية تدعونا للصبر، ومغالبة النفس رجاء ثواب الآخرة³.

ومن الرفق وما يوثق عرى الأخوة، استقبال المسلم لأخيه المسلم بالتبسم وطلاقة الوجه عند لقائه، وقد كان صلى الله عليه وسلم كثير التبسم، منبسط الوجه، متواضعا للمؤمنين، يحرص على كل ما يدخل السرور لقلوبهم، ويبعث الأمل في نفوسهم، ولو بابتسامة صادقة. فشتان بين من يلقاك بوجه منبسط سعيد برؤيتك، ومن يلقاك بوجه عبوس قمطيريرا!⁴ فعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"⁵، وهذا ما ذكره القاضي عياض من عدم احتقار المعروف مهما قلّ، واستحباب طلاقة الوجه للمسلمين والانبساط إليهم، وعدم الاعراض عنهم، فهو مما يندب إليه شرعا⁶.

¹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (692/1).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الرفق في الأمر كله، حديث رقم (6024)، (12/8).

³ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (226/9).

⁴ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (62_61/4).

⁵ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة و الآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث رقم (2626)، (2026/4).

⁶ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (106/8).

وترجمة البخاري بقوله: (بَابُ التَّنَبُّؤِ وَالضَّحِكِ) ليفرق بينهما، فالتبسم هو انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان ويكون بلا صوت، فإن كان بصوت يسمع من بعيد فهو قهقهة، وإلا فهو الضحك، وأحاديث الباب بمجموعها تبين أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان في أن أكثر أحواله يتبسم، والنادر منه الضحك، أما القهقهة فلم تصدر منه، والذي يكره من هذا الباب وينهى عنه هو الإفراط في الضحك والإكثار منه؛ لأنه يذهب الوقار¹.

ومن الرفق أيضا الانبساط إلى الناس، ومعاملتهم بلطف، وقد ترجم البخاري: (بَابُ الْإِنْبِسَاطِ إِلَى النَّاسِ) فلقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وأبسطهم وجها، وبقيّة الترجمة (وَالدُّعَابَةِ مَعَ الْأَهْلِ) تشير إلى استحباب الملاطفة في القول بالمزاح، ولقد كان صلى الله عليه وسلم يلاطف الصغير والكبير، ويمازح أهله من غير إفراط مزاحا لا يذهب الوقار، ولا يوقع خلا في دينه، ومن ذلك مازحة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عمير، وهو الأخ الصغير لأنس بن مالك رضي الله عنه وكان عنده عصفور، فلما مات هذا العصفور حزن عليه الطفل حزنا شديدا، فإذا به صلى الله عليه وسلم يسأل الصغير عن حاله، ويسمع له، ويراعي مشاعره، فيمازحه ليخفف عنه²، فعن أنس رضي الله عنه، قال: "إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخَالِطَنَا حَتَّى يَقُولَ لِأَخِي لِصَغِيرٍ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النَّعِيرُ"³.

إنّ التحلي بخلق الرفق وما يتبعه من لقاء المسلم لأخيه المسلم بطلاقة وجه، وابتسامة صادقة مما يوثق عرى المحبة، ويوطد العلاقات بينهم، ولو امتثل الناس هديه صلى الله عليه وسلم، في السعي للتخفيف عن الناس، وإدخال السرور على قلوبهم، لما وصلت الأمة على ما هي عليه من الفرقة، والنزاع.

¹ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (506_504/10).

² انظر، القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (77/9).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الإنبساط إلى الناس، حديث رقم (6129)، (30/8).

المطلب الثالث: السخاء، واجتناب الشح والبخل.

(بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ).

والخُلُق بضم القاف واللام: هو ما يُلزم الإنسان به نفسه من الأدب، ويسمى خُلُقًا؛ لأنه يصبح كالخلقة فيه¹، والأخلاق هي: أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره، وتقسم على قسمين: محمود، ومذموم، فالمحمود: كالعفو، والحلم عند الغضب، والصبر، وأجملها القرطبي بقوله: أن تكون مع غيرك على نفسك، فتنتصف منها ولا تنتصف لها. وأما المذموم: فضد ذلك كله. والأخلاق إن كانت جبلة في نوع الإنسان، إلا أن الناس متفاوتون في ذلك، فمنهم من يتصف ببعضها، ويقف عند بعضها، ولا بدّ لهم في ذلك من الرياضة ومجاهدة النفس، لاكتساب الحسن منها، والعدول عن سيئها².

وفي بيان فضل حسن الخلق، والحثّ على التحلي به، ترجم البخاري: "بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ"، ولقد جمعت الترجمة بين حسن الخلق، والسخاء؛ لأن السخاء من جميل محاسن الأخلاق، فعطفه على حسن الخلق، من باب عطف الخاص على العام، وإفراده لخلق السخاء هنا من بين مكارم الأخلاق؛ لإبرازه، والتنويه به، والسخاء هو بذل ما يقتنى بغير عوض، وضده البخل، وهو منع ما يطلب مما يقتنى، وشده ما كان طالبه مستحقًا، وبالأخص إن كان من غير مال المسؤول، وفي قوله: "وما يكره من البخل"، دلالة على أن ما يطلق عليه اسم البخل قد لا يكون مذمومًا³.

والسخاء خلق نبوي، فكان صلى الله عليه وسلم، أجود من الرّيح المرسلّة، فعن أنس رضي الله عنه، قال: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشَجَعَ النَّاسِ"⁴، وفيه بيان ما امتاز به صلى

¹ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (227/18).

² انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (117_116/6).

³ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (457_456/10).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ، حديث رقم (6033) ، (13/8).

الله عليه وسلم من صفات الكمال، فقد كان أحسن الناس قولاً وفعلاً، وكان أجودهم، أي أكثرهم بذلاً، وكان أشجعهم، أي أكثرهم ثباتاً وإقداماً مع عدم الفرار¹.

إنَّ التخلق بخلق السخاء من باب البرِّ بالنفس والإخوان؛ فهو يربي النفس على العطاء، ويطهرها من الشحِّ والبخل، وينزع منها حب المال والدنيا، وهو دلالة على الزهد، وكما يورث صاحبه السيرة الحسنة، والذِّكر الطيب، ويبعث على تكافل المجتمع، والتوادِّ بين الناس².

المطلب الرابع: الحث على التواضع، والنهي عن الكبر.

ويقصد بالتواضع: "هو تَنَزُّل الإنسان عن مرتبته، وتوقير من فوقه من أصحاب الفضائل"³. ولأثره في حفظ العلاقات، وديمومتها ترجم البخاري: (بَابُ التَّوَّاضُعِ)، فهو من أخلاق المؤمنين التي تزيد المجتمع صلابة وقوة، فكل فرد في المجتمع المسلم يتواضع للآخر، ولا يترفع أو يتعالى أحد على أحد، ولقد كان السلف يعاملون مَنْ هم أصغر منهم سناً كأبنائهم بشفقة ورحمة، ومَنْ يكبرهم كأبائهم بتوقير وإجلال، ومن هم في سنهم كأخوانهم، فتسود مشاعر الحب والتقدير والمواساة في المجتمع المسلم، ولا يبغى أحد على أحد⁴.

ولقد صوّرت الآيات ما يجب أن يكون عليه المسلم في تعامله مع أخيه من اللين والتواضع، بصورة الطائر الذي يخفض جناحيه عند الهبوط، في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: 214]⁵.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"⁶. فالتواضع سبب رفعة المرء في الدنيا والآخرة، فيمنحه الله في الدنيا العزة، والمكانة، والذِّكر الحسن، ومحبة

¹ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (457/10).

² انظر: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، (ط4)، (2259/6).

³ انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (21/23).

⁴ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (524/3).

⁵ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (114/5).

⁶ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع، حديث رقم (2588)، (2001/4).

الناس، وفي الآخرة يجزل ثوابه¹، ولنا في رسولنا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فما اتصف به من تواضع جعل الناس تلتف حوله، يمرّ على الصبيان فيدنو منهم ويسلم عليهم، يعلمهم التحيّة وآداب الإسلام، وتذهب إليه الأمة فتأخذ بيده؛ ليقضي حاجتها، فيمضي دون أن يسألها إلى أين تأخذه، وهو نبيّ الأُمّة والأعلى قدراً²، وهيئات هيئات ما هم عليه الأمراء والحكام اليوم الذين يغفلون عن رعاياهم يدفعهم كبرياؤهم للصدّ عن سماع آلام أمتهم! ما جعل القلوب تنفر منهم، والنفوس تتأى عنهم، تغرقهم الدنيا بملذاتها، فتعمي قلوبهم قبل أبصارهم عن إدراك مصيرهم، فعن أنس رضي الله عنه، قال: "إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ"³، فكل ارتفاع في الدنيا مآله إلى زوال، وسينقلب حال هؤلاء، وحال كل من علا على غيره، متماديا في إمهال له إلى وضع وانخفاض.

والأمر بالشيء نهى عن ضده، ولأنّ الكبر ينافي كل هذه المعاني، فقد جاء التحذير منه والنهي عنه، فترجم البخاري (بابُ الْكِبْرِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ {ثَانِي عِطْفِهِ}: مُسْتَكْبِرٌ فِي نَفْسِهِ، عِطْفُهُ: رَقَبَتُهُ)، فالكبر من أمراض القلوب، والمتكبر يحتقر الناس ويرى نفسه أعظم من غيره، والأشد من ذلك أن المتكبر يمتنع عن قبول الحق والإذعان له، وقوله تعالى: ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ [الحج: 9]، أي لاويا عنقه إعراضا عن الحق وتكبرا على الناس.

والكبر من كبائر الذنوب وهو من صفات أهل النار، فعن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ"⁴، والمقصود بالضعيف، المتواضع لله، متضاعف يتكلف الضعف، يستضعفه الجهال، ويتجرأ عليه أولي البأس والقوة، متذلل لله مستسلم له، نقيّ السريرة، فلصدقه مع الله وعلو مكانته لو أقسم عليه لأبره، والعتل الغليظ جافي الطبع، والجواز، الجموع المنوع، المختال في

¹ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (59/8).

² انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (3/526_527).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: التواضع، حديث رقم (6501)، (105/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الكبر، حديث رقم (6071)، (20/8).

مشيئته، المعرض عن الحق، المتكبر على الخلق¹، غافلا أن الكبرياء صفة خاصة بالله ومن نازع الله في كبريائه، وتكبر على عباده، عذبه الله، قال تعالى واصفا ما آل إليه قارون بسبب تكبره وغطرسته:

﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾

[القصص: 81].

إن ثمرات التواضع تبدو جلية الأثر، فمجتمع يتحلى أفراده بالتواضع، مجتمع بعيد كل البعد عن البغضاء والشحناء، يزهد فيه الفقير ويرضى بما قسم الله له، ويسعى فيه كل صاحب مكانة أو مال أو علم بأن ينفع أخيه، ولا يؤذيه بأي تصرف قد يخدش مشاعره، أو يترك أثرا في قلبه، إنها جسدية الإسلام التي توحد الصف، وتقضي على كل مظاهر التفرقة والعلو بين الناس.

المطلب الخامس: التحلي بالصدق، واجتناب الكذب.

ولما كان الصدق من أهم أسباب تماسك المجتمع وحفظ العلاقات بين أفرادها، فإن الكذب من أكبر الأسباب في تقطيع أواصر المجتمع، وانتزاع الثقة بين أفرادها. وفي التحذير منه، ترجم البخاري: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وَمَا يُنْهَى عَنِ الْكُذْبِ). وترجمة البخاري بالآية دعوة لاتباع سبيل الصادقين، فالآية نزلت تعقبا على توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وكيف أدى صدقهم إلى نجاتهم وقبول توبتهم، وبرأهم عن منازل المنافقين²، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ..، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ.."³، والحديث يبين أثر الصدق وأنه موصل للخيرات كلها، فالبر اسم جامع للخير كله، وهو الطريق إلى الجنة، مصدقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [سورة الانفتار: 13] ، ثم حذر من ضده وهو الكذب، وبين أنه يؤدي للفجور، والفجور اسم جامع للشر كله، وهو موصل إلى النار، وبعد أن أطلق عقوبة الكاذب بالنار، جاء الحديث الأخير ليبين هذه العقوبة وذلك

¹ الخولي، محمد عبد العزيز بن علي الشاذلي (ت 1349هـ)، الأدب النبوي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، (142_143).

² انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (288/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وَمَا يُنْهَى عَنِ الْكُذْبِ، حديث رقم (6094)، (25/8).

بشق شدقه، فيعاقب بموضع معصيته، وهو فمه الذي كَذَّبَ به¹، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: "أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"²، قال ابن بطال: "إذا تكرر الكذب من الرجل حتى غلب عليه، لم يكن من صفات عليّة المؤمنين، بل هو من صفات المنافقين وعلاماتهم"³.

والتحذير الشديد من الكذب لأنه أصل الرذائل كلّها؛ يتصدّع به بنيان المجتمع، وتتعدم الثقة بين أفرادها، يُتجنّب مجالسة من اتصف به، فأحاديثه منبوذة، وشهادته مردودة. وما الغش في المعاملة، والإخلاف في المواعيد، والرياء في الأعمال إلا من ضروب الكذب، وأعظم من ذلك كلّه، فهل الشرك والنفاق الذي هو شرّ من الكفر الظاهر إلا كذب! فلا عجب أن شدّد صلى الله عليه وسلم في النهي عنه، (فإنّ الفجور يهدي إلى النار)، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ﴾⁴. [الانفطار: 14]

ومن فروع الكذب التي حذّر منها البخاري في تراجمه (شهادة الزور)، والزور من كبائر الذنوب وهو الميل عن الحق، وكل ما هو كذلك فهو باطل وكذب، وفي التغليظ من شهادة الزور، جاء (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30]) "فلشدة حرمتها فقد قرنها الله بأعظم الذنوب وهو الشرك"⁵، قال تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30]، والشرك افتراء وزور وهو اعتداء على حق الله، ولما يسببه من ظلم واعتداء على حقوق الآخرين؛ فقد جاء التحذير منه كافة⁶.

ولم يكتفِ البخاري بالنهي عن الكذب والتحذير منه، بل جاء للتأكيد على تجنب كل الطرق المؤدية إليه كاستعمال الألفاظ المحتملة التي توهم الكذب، ومن ذلك ما جاء في: (بَابُ مَا جَاءَ فِي زَعْمُوا) فزعموا: من الألفاظ التي لا يتوقف على حقيقتها فلا يُدرى أحق هي أم باطل، إلا أن الأصل فيها أنها تقال في الأمر

¹ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (10/ 507_509).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وما يُنهى عن الكذب، حديث رقم (6096)، (8/25).

³ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (9/281).

⁴ انظر: الخولي، الأدب النبوي، (150).

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (12/55).

⁶ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (16/9800).

الذي لا يُثبت من صحته، وهذا ما أكدّه الخطابي "في أن زعم تقال في الحديث الذي لا سند له ولا ثبت فيه، فيذم من الحديث ما كان هذا سبيله، ووجب التثبت والتوثق لما يقوله، أمّا إن صدر من صادق ثقة فلا ذم فيه ولا نهي¹، وحديث الباب² يذكر أن أم هانئ استعملت لفظ زعم، فلم ينكر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك عليها، ولم يجعلها كاذبة، وفيه ضرورة التثبت من الأخبار، لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة³.

ثم حذر البخاري من أن تكون العلاقات بين الناس مبنية على المداينة والكذب، فترجم (باب المداينة مع الناس) بالندب للرفق بالناس، وترك الإغلاظ عليهم بالقول، والتبسّم لهم؛ اتقاء لشركهم وكفًا لأذاهم، والمداينة من أخلاق المؤمنين، وسببا للتآلف بينهم، فعن عائشة رضي الله عنها: "أَنَّ اسْتَأْذَانَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَقَالَ: ائْتِنَا لَهُ فَبُئِسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بُئِسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ قُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ مَا قُلْتُ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَقَالَ: أَيُّ عَائِشَةَ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ"⁴.

والفرق بين المداينة والمداينة كما بين العيني، أنّ المداينة تنازل عن الدين لأجل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْرَهُنَّ فَيُدَّهِنُونَ﴾ [القلم: 9]. أما المداينة فهي، بذل الدنيا لأجل الدنيا والدين، كالرفق بالجاهل الذي يستتر بالمعصية، ولا يجاهر بالكبيرة، حتى يردّه إلى مراد الله. وأما المداينة المحرمة فهي معاشرتة الفاسق المعلن لفسقه فيألفه ويظهر الرضا به ولا ينكر عليه أفعاله ولو بقلبه⁵.

¹ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (122/4). انظر: الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (388هـ)، معالم السنن، الناشر: المطبعة العلمية-حلب، (ط1/1351هـ-1932م)، (4/130).

² أن أم هانئ بنت أبي طالب تقول: "...زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجزته فلان بن هبيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ، قالت أم هانئ: وذلك ضحى". انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في زعموا، حديث رقم (6158)، (37/8).

³ انظر: ابن بطلان، شرح صحيح البخاري لابن بطلان، (331/9).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مداينة الناس، حديث رقم (6131)، (31/8).

⁵ انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (269_267/22).

ولا تخلو الحياة ممن يختلف الإنسان عنهم في الطبع والعقيدة، ممن تسوؤه طباعهم، فالمداراة هي الوسيلة النبوية الناجعة لكف أذاهم، بل بالمداراة تنتقل كثير من العلاقات من البغضاء إلى الألفة، وقد تكون الكلمة الطيبة، واللفظ في المعاملة سببا في تغيير الإنسان، وتصحيح سلوكه.

المطلب السادس: التحلي بالحياء .

والحياء من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وحثّ على التحلي بها، ولقد جلي البخاري خلق الحياء من خلال تراجمه وما أورد تحتها من أحاديث، وفي الدعوة للتحلي بهذا الخلق الكريم، وبيان أهميته واستحسانه، ترجم (بَابُ الْحَيَاءِ).

والحياء على قسمين إما مكتسب أو غريزي، والناس متفاوتون في ذلك، ولقد جمع صلى الله عليه وسلم بين النوعين، فكان في الجبلي كما وصفه أبو سعيد الخدري: "أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا"¹ وفي المكتسب بلغ صلى الله عليه وسلم الذروة.

إن استعمال الحياء وفق الشريعة، يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، والمرء متى اكتسبه، والتزم بما هو موافق للشرع؛ جعل له علامة على كمال إيمانه²، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ"³.

والحياء يدور على ثلاث شعب، أولها: الحياء من الله، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه. وثانيها: الحياء من الناس، بإعطائهم حقوقهم وترك أذاهم. وثالثها: الحياء من النفس، وذلك بدعوتها إلى العفة، وتجنب الريب

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحياء، حديث رقم (6119)، (29/8).

² انظر: القاضي، إكمال المعلم بقوائد مسلم، (273/1).

³ البخاري، صحيح البخاري، باب: الحياء، حديث رقم (6118)، (29/8).

والشبهات، وألا تعمل عملاً في السرّ، يُستحى منه علانية"¹، وكما قيل: "ولیکن استحيًاؤك من نَفْسك أكثر من استحيائك من كل أحد"².

وللحياء أثر عظيم على سلوك المسلم، فهو أصل كل خير، ينهى عن كل قبيح، ويأمر بكل جميل، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: "الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ"³، فهو يبعث على فعل الخيرات، وترك المعاصي، ومتى انعدم الحياء انتشرت الفواحش والردائل، فهو كالقيد يمنع صاحبه مما يُنفر منه الذوق السليم، يقول الراغب الأصفهاني: "والْحَيَاءُ: انقباض النَّفْسِ عن القبائح وتركه"⁴.

ومن استحيا من ارتكاب المحرمات أمام الناس، فمن باب أولى أن يكون أشدّ حياءً من خالقه، فالله أحقّ أن يستحيا منه، ولا بد من التفريق بين الحياء والخجل، فإن منع صاحبه من استيفاء حقوقه، أو ترك أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فهذا يذم وليس له علاقة بالشرع، بل هو من الخور والضعف⁵.

ولا تقتصر آثار الحياء على سلامة العبد، بل تمتد آثاره إلى المجتمع؛ فالناس تلتف بالشخص الحيّ، الذي يلتزم بمكارم الأخلاق، ويتعدى عن الآثام والشرور، ويؤدي ما عليه من حقوق وواجبات دون تقصير، فيكون سببا في تكافل أفرادهِ⁶.

ولمّا كان الحياء بمثابة القيد الذي يمنع الإنسان من الوقوع في الذنوب والمعاصي، جاء (باب: إذا لم تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)، بمعنى التهديد والوعيد، أي: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء، فسوف تجازي عليه، فمن لا يستحي يقع في القبائح والشرور والآثام، وسيرى عاقبة ذلك في الآخرة، فالحياء هو الذي يحول بين

¹ أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: الدكتور نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، (67).

² انظر: حجازي، سامي عفيفي، حقيقة خلق الحياء وأثره في بناء المجتمع، بحث محكم، فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، ج45، (232_233).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحياء، حديث رقم (6118)، (29/8).

⁴ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (270).

⁵ انظر: الكرمانلي، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (234/21).

⁶ انظر: بتيغور، عبد القادر، التكافل الاجتماعي: أنواعه وأسسهِ التربوية في القرآن الكريم، بحث محكم، (جامعة وهران)، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، ع 8، (2018)، (297_296).

المرء ومواقعة السوء. وقيل هو بمعنى: اصنع ما شئت إذا كنت في فعلك آمنا من أن تستحي منه لجريانك على سنن الصواب، والمعنى الأول هو الأقرب لمضمون الحديث¹.

كما وقد يكون الحياء مذموما إن منع صاحبه عن السؤال في أمور الدين، وطلب العلم، أو عما ينتفع به، وبهذا جاء باب: (بَابُ مَا لَا يُسْتَحْيَا مِنَ الْحَقِّ لِلتَّقْوَى فِي الدِّينِ)، فهذا أيضا كله يذم وليس له علاقة بالشرع، فهذه أم سليم لم يمنعها الحياء أن تتعلم أمور دينها، فعن أم سلمة رضي الله عنها: "جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ... فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ غُسْلٌ إِذَا اخْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ"². وقال مجاهد: " إن هذا العلم لا يتعلمه مستح ولا متكبر"³.

المطلب السابع: التحلي بالأمانة.

وفي الحث على الأمانة، والتحذير من ضياعها، ترجم البخاري: (بَابُ رَفْعِ الْأَمَانَةِ)، والأمانة ضد الخيانة، وهي تشمل كل ما أوتمن عليه الإنسان، ووكل إليه حفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النِّسَاءَ: 58] ومن هذا فكل تكاليف الشرع، مما انتمن الله عليه عباده، وكلفهم بها، مما يدخل في باب الأمانة، وأولى الأمانات التي أناط الله بها فطرة الإنسان، أمانة الإيمان بالله وتوحيده، فهي المبتدأ، ومنها تتبثق كل الأمانات الأخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾. [الأحزاب: 72]⁴

والأمانة إما أن تتعلق بحقوق الله، أو تتعلق بحقوق الخلق، فحقوق الله مثل: الصلاة، والزكاة، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقوق الخلق كأحكام الأسرة، من زواج، وطلاق، وميراث، أو أحكام

¹ انظر: ، الخولي، الأدب النبوي، (299/9).

² انظر: بيتفور، التكاثر الاجتماعي: أنواعه وأساسه التربوية في القرآن الكريم، (298). البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: باب ما لا يستحيا من الحق للفقير في الدين، حديث رقم (6121)، (29/8).

³ الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (287/3).

⁴ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (4 / 2347_2349).

المعاملات، كالبائع، والحوالة، وغيرها من المعاملات¹، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"²، ولو أدى كل إنسان ما عليه من حقوق وأمانات، لأدى الناس ما عليهم من واجبات، وبهذا تحفظ الحقوق، وتنظم مصالح العباد، وتستقيم أحوال المسلمين³.

إن حفظ الأمانة، واحترامها، وأدائها لمستحقيها، والتفكير من خيانتها، مما فطرت عليه النفوس، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ. وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ"⁴، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ"⁵، كَجَمْرِ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَنْفِطُ⁶ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا⁷ وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ الْإِسْلَامَ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا"⁸. والحديث يشير إلى ارتباط الأمانة بالإيمان، وأن سبب رفعها هو فقدان الإيمان الذي يعتبر الحق الأعظم في الوجود، فكيف لمن ضيع هذا الحق أن تستقر بعدها أمانة في قلبه؟ والحديث

¹ انظر: النووي، عبد الله بن ناصر بن صالح، الأمانة شموليتها وأثرها في حياة العباد، بحث محكم، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإسلامية، جامعة طيبة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع26، 2021، (44).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: قول الله تعالى (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، حديث رقم (7138)، (62/9).

³ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (4/2349).

⁴ الوكت: الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (5/218).

⁵ المجل: إذا ثخن الجلد وتعجز، وظهر فيه ما يشبه البثر. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (4/300).

⁶ فنفت: ما يصيب اليد من العمل بالفأس، كالقبة فيه ماء قليل. النووي، شرح النووي على مسلم، (2/168_169).

⁷ منتبر: مرتفعا. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (5/8).

⁸ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: رفع الأمانة، حديث رقم (6497)، (8/104).

يصور مراحل ضياع الأمانة من قلوب الخلق، بفعل ما يدخله من انحرافات وضلالات، حتى تصبح الأمانة اسما لا أثر لها، حتى لا يجد الرجل من يأتمن عليه في بيع ولا شراء¹.

لذا فإن التحلي بالأمانة من أهم الركائز التي يجب أن تقوم عليها شخصية المسلم، فهي صفة لازمة له، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:8]. وهي دلالة على صلاح الفرد ونقائه، فمتى عمّر العبد قلبه بها استقامت جوارحه، وهي التي تتظّم علاقة الأفراد ببعضهم البعض، فتحترم الخصوصيات، ولا تضيّع الحقوق، ولا تعتدي على الحريات².

وفي المقابل فإنّ تضييع الأمانة علامة على اقتراب الساعة، وسبب انتشار الفتن، والشور بين الناس، فمجتمع يخلو من الأمانة، مجتمع هزيل، تضعف الثقة بين أفرادها، تكثر فيه الخيانة و الجرائم، لا أمن فيه ولا أمان³، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم، يحذر من ضياعها والتهاون فيها من زمنه، فعصرنا اليوم أحوج ما يكون إلى هذه الوصية، ولا سبيل للنفس إلا أن تستقي من هدي القرآن والسنة؛ لتحفظ للقلوب استقامتها، فلا تنحرف وتزيغ في ظل انتشار الفساد، في زمن أصبح الخائن فيه مؤتمن، والمؤتمن هو الخائن.

المطلب الثامن: حفظ اللسان

واللسان أيسر ما يتعبّد به المرء من حركات الجوارح، وإن كان أضرها عليه، فأيسر المعاصي فعلا وأكثرها عددا ما تنتج عنه. ولقد تتبّع المحاسبون لأنفسهم آفات اللسان، فوجدوها تزيد على العشرين⁴، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا

¹ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (652_653/1).

² انظر: النوبصر، الأمانة شموليتها وأثرها في حياة العباد، (57_56).

³ المرجع السابق، (57).

⁴ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (229/1).

في جَهَنَّمَ"¹، ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه يمسك بلسانه، ويقول: "هذا أوردني الموارد". ومن وعى ذلك جاهد نفسه، واتقى الله في لسانه، فأمن الوقوع من شروره².

وفي التحذير من آفات اللسان، ترجم البخاري: (بَابُ حِفْظِ اللِّسَانِ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُتَّقِ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾)، وحفظ اللسان كما أشار ابن القيم: هو حبسه عما ليس فيه فائدة، فينظر لكلامه أفيه ربح وزيادة له في دينه، أم هو هلاك له وخسارة؟ فإن كان فيه ربح نظر: أهنالك كلمات أفضل فيأتي بها ولا يضيع ربحها؟ ولللسان آفتان: السكوت، والكلام. وقد يكون أحدهما أعظم وزرا من الآخر، فالسكوت قد يكون آفة حين يمنع صاحبه من قول الحق. والكلام الفاحش والقول الباطل لا يقل إثما؛ فصاحبه عاصي لله، والناس تتقلب بين هذين النوعين. والصنف الثالث: أهل الاستقامة الذين عَفَوْا ألسنتهم عن الخوض في ذلك كله، ولم ينطلق لسانهم إلا بما يكون لهم به نفع في الآخرة، بل من جعلوا من المباح قربة يتقربون بها إلى الله³.

إن ترجمة البخاري للباب بقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. [ق : 18]. توجيه للإنسان بمراقبة أقواله؛ لتذكّره بأنّ هناك ملائكة لا تغيب عنه تسجل كلّ أقواله بما فيها من خير أو شرّ، وما يترتب عليها من جزاء⁴.

ولمّا كان اللسان هو الطريق المؤدي بالإنسان إلى الجنة أو النار، كثرت الوصايا النبويّة التي تدعو لحفظ اللسان لما له من آثار عظيمة على الفرد والمجتمع، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ"⁵، فعدا عن كونه سببا في دخول الجنة أو النار، فهو بريد القلوب، يؤلفها ويوحدها، وكما كانت آفاته سببا في تفريق الأهل، وتقطيع

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: حفظ اللسان، حديث رقم (6478)، (100/8).

² انظر: ابن القيم، الداء والدواء، (374/1).

³ انظر: ابن القيم، الداء والدواء، (363/1) (375/1).

⁴ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (805).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: حفظ اللسان، حديث رقم (6474)، (101/8).

الرَّحْمِ، وَدَبَّ الْفَرْقَةُ وَالنِّزَاعُ بَيْنَ النَّاسِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ"¹.

ومن صور حفظ اللسان، اجتناب الخوض في القيل والقال، وفي التحذير منه ترجم البخاري: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ). والقيل والقال: هو ضياع الأوقات بكلام لا فائدة منه، والانشغال بالحديث عن أحوال الناس وأمورهم، وضياع الأوقات أشدَّ خطورة من ضياع الأموال، فالمال قد يعوّض لكن أنفاس الإنسان هي عمره، التي إن خرجت فلا ترجع². وكما أنّ التحذير منه جاء؛ لما يقع فيه المرء من الكذب، والغيبة، والنميمة، وقول الزور، فمن كثر كلامه كثرت زلاته³.

إنّ اللسان من نعم الله العظيمة التي يغفل عنها كثير من الناس، فبه يعبر الإنسان عن حاجاته وما يختلج داخله، كما أنه أداة التواصل مع الآخرين، عدا عن كونه سبب سعادة الإنسان ورفع مقامه عند الله وعند الناس؛ لذا كان لا بدّ من شكر هذه النعمة، وشكرها يكون بحفظ اللسان عن كل ما حرم الله، وإشغاله بالذِّكر، والكلم الطيب.

المبحث الثالث: الأبعاد النفسية في كتابي الأدب والرفاق

والنفس من صفاتها أنها تشتهي وتهوى، وتصبر وتضجر، وتجد وتبخل، وتحسد ولا تحسد، وتطمع وتقنع، وترضى وتسخط، إلى غير ذلك من صفاتها الوجدانية. ومن صفاتها أنها تضل وتهتدي، وتتزكى وتدنس، يحركها في ذلك كلّ دافع الخير والشرّ، فهي إما ترفع ذاتها إلى العلو وتختار رضوان الله وجنته، وإما أن تهبط بها إلى أسفل سافلين، فهي أمارة بالسوء، مجبولة على حب الدنيا⁴.

ولقد تضمنت تراجم كتابي الأدب والرفاق ما يستثير دوافع الخير لدى العبد، ويمنحه القدرة على مواجهة

هذه الحياة وما فيها من الابتلاءات، والاختبارات، ومما جاء فيها:

¹ المرجع السابق، باب: الانتهاز عن المعاصي، حديث رقم (6484)، (102/8).

² انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (552/6).

³ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (163/5).

⁴ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (230/1).

المطلب الأول: الرضا، وترويض النفس على القناعة

راعى الإمام البخاري في بعض تراجمه ما يحقق علو نفس المؤمن إيجابا، وما يمكنه من مواجهة التحديات التي تقف أمام ذلك، فرضا النفس وتدريبها على القناعة ظهر بشكل واضح في بعض تراجم كتابي الأدب والرفاق، ومن الأبواب ذات الصلة في ذلك هي: (بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ})، و(بَابُ: الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ لَمْ يَعْمَلُوهَا لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَعْمَلُوهَا}). و(بَابُ: كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَتَخْلِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا). و(بَابُ: لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ).

ويقصد بالقناعة: "الرضا والتعفف، وترك المسألة"¹، والقناعة من الأخلاق الإسلامية ذات الأثر الواضح على نفس المسلم، وسعادته في الدنيا والآخرة، ولقد كان صلى الله عليه وسلم النموذج القدوة في التحلي بهذا الخلق العظيم، فكان نعم المدرسة التي يستقي أصحابه منها تعاليمها، وكانوا خير من يمتثل أوامرهم، راضين بالقليل، صابرين على ضنك العيش، صارفين أبصارهم عن الدنيا، آملين بما عند الله. والمسلم اليوم أحوج ما يكون إلى التخلق بخلق القناعة، والتدرب عليه، في زمن أغرقته الماديات، وانعدم الرضا بين أفرادها، فأصبح همهم الشاغل تحصيل المال بأي طريقة سواء أكانت محرمة أم لا، فكل ما ازدادوا منه زادوا طمعا في تحصيله، فسلب عقولهم حكمة وجودهم، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِدْيَانٍ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"².

وفي الحض على ترويض النفس على القناعة، وتدريبها على ذلك ترجم البخاري: (بَابُ: كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَتَخْلِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا)، وفيه الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، والتذكير باتِّباع هديهم كل ما مالت الأنفس إلى الدنيا، وطلب الكفاف، والاستغناء عن سؤال

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (64/12).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: ما يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ، حديث رقم (6436)، (92/8).

الناس، فما هو أبو هريرة يقول: "وإن كنت لأشدُّ الحَجَرَ على بطني من الجوع"¹، ففي ربط الحجر على البطن كسر للنفس، وتخفيف من حرّ الجوع، ومساعدة على الاعتدال والقيام لما يلحق الجسم من الهزل بسبب الجوع². بل وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم، كما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "اللَّهُمَّ ارزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوَّةً"³. فيطلب صلى الله عليه وسلم الكفاف، وما يغنيه عن سؤال الخلق، دون بذخ أو ترف⁴.

ومن وسائل تربية النفس على القناعة أن ينظر المؤمن إلى من هو دونه في عرض الدنيا، فهي من أعظم أسباب تحقق الرضا، وفي ذلك ترجم البخاري: "بَابُ: لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ". فهو يحثّ المسلم في النظر إلى من هو دونه في كل ما يتعلق بعرض الدنيا (المال والبنون)؛ ليهوّن عليه نقصانه، فيغلق على نفسه باب الغمّ والحسد، ويحفظ نفسه من ازدياد النعمة والتقصير في شكرها، وفي المقابل ينظر إلى من هو أعلى فيما يتعلق بالآخرة، من باب التنافس في الخيرات، والترغيب في الازدياد من الفضائل⁵. قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. [الأنفال: 67].

ومن أهم التحديات التي تواجه العبد في طريق تحقيق القناعة حبّ المال، لذا ترجم البخاري: "بَابُ مَا يُنْقَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ"، للتحذير والتذكير من فتنته، وعدم الانشغال بجمعه عن طاعة الله، وقد ذمّ الله من فعل ذلك، قال تعالى: ﴿أَهْلِكُمُ الشَّكَاوُءُ﴾ [التكاثر: 1]. وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم كل من يقدم المال أو اللباس أو غيرها على عبادة الله، ودعا عليهم، وحديث الباب الذي أورده البخاري يؤكد ذلك، وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةَ وَالْحَمِيصَةَ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ"⁶، يصوّر مدى "تعلق قلب العبد بالمال، حتى يوصفه

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا، حديث رقم (6452)، (96/8).

² الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (217/22).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا، حديث رقم (6460)، (98/8).

⁴ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (100/3)، (922).

⁵ انظر: الخولي، الأدب النبوي، (221_222).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم (6435) (92 / 8)

بالعبودية له، وكيف أن غياب القناعة يجعله يسلك طرقا غير مشروعته فلا يعنيه أكتسب المال من حلال أم حرام، فإن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط وانتكس¹.

والمسلم الحصيف دائم التذكر بأن هذا المال اختبار يمتحن فيه فلا يكتسبه إلا من طرقه المشروعة، ولا ينفقه إلا في حقه، من غير إسراف ولا تبذير، بعيدا عن الشح والبخل، فنوعا بما آتاه الله يكره الحرص ويذمه.

وللقناعة والرضى بما قسم الله تعالى آثار عظيمة، خاصة على مستوى النفس الإيمانية، وقد تنبه لذلك البخاري فترجم بـ: "بَابُ الْغِنَى عَنِ النَّفْسِ"، تأسيسا لقاعدة تربوية دينية أن الغنى الحقيقي ليس بكثرة المال، بل هو باستغناء النفس وعدم الحرص على الدنيا، فكم من غني لشدة حرصه وشرهه فقير النفس، غير راضٍ، وكم من فقير غني النفس مطمئن، راضٍ بقضاء الله له²، وفي ذلك يقول ابن القيم: "قالرضا يورث سرور القلب في كل مقدر، وسكينة النفس في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع من أمور الدنيا، فرضا العبد بما قسمه الله له، وفرحه بقيامه بأموره، واعتقاده بحسن تدبيره وكمال حكمته، يجعله يستسلم بين يديه، فيغلق باب التشكي لغيره، يرضى عن الله، ولا يعترض لأي أمر أصابه"³.

ومتى انعدمت القناعة حلّ محلها الحرص والخسة والمهانة⁴، فعن حكيم بن حزام رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ خُلُوءٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِسْرَافٍ نَفْسٍ، لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"⁵.

إن القناعة هي الطريق للحياة الطيبة، كما عبّر عنها الحسن البصري وزيد بن وهب، في تفسيرهما لقوله

تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿النحل: 97﴾⁶ فالمرء الذي يقنع بما آتاه الله، يعيش حياة هنيئة يملؤها الرضا،

¹ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (314_313/6).

² انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (213/22).

³ ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (548/2).

⁴ انظر: ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (35/3).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزقاق، باب: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ خُلُوءٌ، (6441)، (93/8).

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (64/12).

بعيدا عن التَّسَخُّطِ والجَزَعِ، يَرْضَى بما أصابه ولا يحزن على ما فاته، بل يحفظ نفسه عن كثير من الأمراض التي تفتك بالفرد والمجتمع، ولا يلتفت لغيره، فيبتعد عن الحسد والغيرة، فيرجو الخير للجميع، يَذْكُر نفسه دائما بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرِّقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَقْبَلُ﴾ [طه: 131].

المطلب الثاني: مجاهدة النفس.

وجهاد النَّفْسِ في ذات الله أعظم أنواع الجهاد وأشقاها، بل هو الأصل الذي يمكنه من مجاهدة ما سواها، فمن لم يجاهد نفسه في الله ويحاربها بالتزامها بكل ما أمر واجتنبها عن كل ما نهى، لم يتمكن من مجاهدة عدوه، وما جهاد الأعداء إلا فرعا من فروع جهاد النفس فمن أراد أن يخرج لجهاد عدوه، فلن يتمكن من ذلك إلا بمجاهدة نفسه على الخروج¹.

والعبد إذا ما أدرك حقيقة نفسه وكيف تهوي به إلى أسفل دركات جهنم، تبين له ضرورة مجاهدتها، فلا سبيل لنجاتها إلا بامتثال تعاليم الوحي وتوجيهاته، وإلا فسيبقى معها في صراع دائم، ومن هنا جاءت تراجم كتاب الرِّقَاق في الدعوة إلى مجاهدة النفس.

وفي بيان العقبات التي تواجه العبد في طريق المجاهدة، ترجم البخاري: (بَابُ الْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي). والابتداء بانتهاء المعاصي؛ لأنَّ الأصل التخلية قبل التحلية، يقول ابن القيم: "إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصُّورَة عن دخول البيت، فكيف تلجُ معرفة الله ومحبتته وحلاوة ذكره والأنس بقربه، في بيتٍ ممتلئٍ بكلاب الشَّهوات وصورها؟"². وترك المعاصي أمر يشقُّ على النفوس، ويحتاج إلى مجاهدة شديدة، ولربما كانت الطاعة أهون من اجتناب المعصية؛ لقوة الداعي والشهوة، وليس معناها أنْ ترك المنهيات مقدم على فعل المأمورات، بل تفضيل ترك المحرّمات على نوافل العبادات³، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

¹ انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين الجوزية (ت 751 هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، الناشر: مؤسسة الرسالة . بيروت-مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، (ط7، 1415هـ-1994م)، (7/6).

² ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (200/3).

³ انظر: القرطبي، في فقه الأولويات، (238_239).

مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ [النازعات:40] والهوى هو الدافع لكل طغيان ومعصية وتجاوز، بل هو

ينبوع الشرّ، فمن جاهد نفسه وكبح جماحها، كتب الله له بهذا الجهاد الجنة¹.

فمن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ"² يبيّن أن المهاجر الحق هو من ترك ما نهاه الله عنه، من المعاصي والذنوب. "والهجرة هنا على نوعين: باطنة: وهو ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء، وما يدعو إليه الشيطان. وظاهرة: وهو من هاجر بدينه فرار من الفتن، فالحديث هنا جاء بمعنى الوصية لا تجعل هجرتك هي الأساس لسلامتك من الفتنة دون عمل، بل الزم أوامر الشرع ونواهيه. وفيه من المواساة لمن لم يهاجر بفتح مكّة، فجعل أجر من ترك المنهيات كالمهاجر في سبيل الله"³.

ومن أبواب مجاهدة النفس، ترك الشهوات، فترجم البخاري: (باب: حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) في التغلب على شهوات النفس، والصبر عليها، فالشّهوات كما بيّن ابن عثيمين هي كل ما تميل إليه النفس من غير تعقل ولا تبصر، ولا مراعاة لدين ولا مروءة، كالزنا، وشرب الخمر، والمال الذي يفتن صاحبه.

وإنّ نجاة النفس من الوقوع في أسر شهواتها يكون باستحضار العاقبة، فمن هتك الحجاب ووقع في الشهوات، فتح عليه أبواب جهنّم، فمن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ"⁴ فالباطل محبب للنفوس الأمارة بالسوء، والطاعة تشق عليها، "ومن أكره نفسه الأمارة بالسوء على الطاعة بالتزامها بأمر الله واجتنابه ما نهى فقد أوصلها للجنة، واستحضار عاقبة الطاعة بيقين ممّا يعين العبد على اجتناب الشهوات"⁵. ومن هذا تجد صلاة الفجر ثقيلة على كثير من النفوس، لكنّ من جاهد نفسه وأكرهها على الطاعة سلكت به طريقا إلى الجنة.

¹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (6/800).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الإتيان عن المعاصي، حديث رقم(6484)، (8/102).

³ انظر: الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (1/451).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، حديث رقم(6487)، (8/102).

⁵ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (2/87_88).

وقد يتهاون العبد في بعض الصغائر ولا يأبه بها، فترجم البخاري: (بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ) في الحذر من التساهل في الصغائر، فمن أبواب مجاهدة النفس ألا يستصغر الإنسان ذنبا قام به، ولا يستخف به، فذلك من الطرق التي يسعى لها الشيطان للظفر بالعبد كما بين ابن القيم، فالصغيرة قد تجرّ إلى أخرى، فيستسهلها وهكذا حتى تجتمع على العبد فتهلكه.¹

وأورد البخاري حديث الباب الذي رواه أنس رضي الله عنه، مرفوعا: "إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا نَعُدُّ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤَبَّاتِ"²، والذي يصف حال الصحابة بعد موته صلى الله عليه وسلم، بأنهم يعملون أعمالا يرونها بأعينهم صغيرة هيئة، وكانوا يعدونها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من المهلكات، كفوات صلاة الجماعة في المسجد، فلم يكن يتخلف عنها إلا مريض معذور أو منافق، وفي زمننا هناك من يتهاونون بأداء الصلاة، فإما ينشغلوا عنها بأمور الدنيا فلا يصلونها، أو يؤخرونها حتى تخرج عن وقتها، ومتى هانت على العبد الصغيرة أدركته الكبيرة!³

ولما كانت الطاعة ثقيلة على النفس، وكانت الصوارف التي تشغل العبد عنها كثيرة، ترجم البخاري: (بَابُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)، حاثًا على مجاهدة النفس على طاعة الله، فعلى العبد أن يجاهد نفسه على الطاعة ويروضها حتى تسهل عليه، "فكما هو مأمور أن يتق الله حق تقاته، بأن يطاع فلا يعصى، فهو مأمور أن يجاهد نفسه في طاعة الله حق الجهاد، فيجاهد قلبه ولسانه وجوارحه في الله، ويرد هواه، وشيطانه، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: 78]⁴.

وقد تكفل الله سبحانه لمن جاهد نفسه في طاعته أن يبين له سبل الهداية والثبات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69] وبين ابن عاشور "بأن الله

يبسر لهم الطرق الموصلة إلى مرضاته وثوابه، ويمدهم بالعون والنصر والهداية"⁵.

¹ انظر: ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، (350/1).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: ما يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، حديث رقم (6492)، (103/8).

³ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (495_494/1).

⁴ انظر: ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، (9/3). انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (99/12).

⁵ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (635).

والصبر على الطاعة إن كان شاقا إلا أن نهايته حلوة المذاق، فيستلذ العبد بالقرب من ربه، ويسعد بالثواب العظيم في الآخرة، وهذا حال السلف الصالح فنقل عن ثابت البناني، أنه جاهد نفسه في الصلاة عشرين سنة، وذاق حلاوتها عشرين سنة¹.

إن ثمرة المجاهدة واضحة فمتى جاهد العبد نفسه فألزمها الطاعة، وجنبها المعاصي والشهوات، وسلك طريق الأنبياء والصالحين في مجاهدتها، استقام وخضعت جوارحه لله، فلا مالت نفسه لهوى عابر، ولا لدنيا فانية، وحيثما كان الصبر سلاحه، واليقين بما عند الله رجأؤه ملك من القوة ما يعينه على مجاوزة هذا ذلك كله دون أن يضعف، ولهذا كانت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم راسخة كالجبال لما كان الصبر سلاحهم في مواجهة النفس والفتن، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24].

المطلب الثالث: تربية النفس على الصبر.

والصبر لغة: هو الحبس²، واصطلاحا عرفه ابن عاشور بأنه: " احتمال النفس أمرا لا يلائمها إما لأن مآله ملائم، أو لأن عليه جزاء عظيما فأشبهه ما مآله ملائم، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر". ولقد ذكر الصبر في القرآن فيما يزيد على سبعين موضعا، ما خلا فيها موضعا من بيان ثمراته في رفع الدرجات، وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا﴾ [السجدة: 24]³.

وفي بيان أنواع الصبر وعظيم أجره، ترجم البخاري: (بَابُ الصَّبْرِ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ لِإِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} وَقَالَ عُمَرُ: وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ)، وفي الترجمة ذكر الخاص بعد العام، فالصبر أنواع: الأول: الصبر على الطاعة، فالطاعات قد لا تخلو من المشقة والتعب، وهي ثقيلة على

¹ انظر: الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (321/2)، (147/3).

² انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (329/3).

³ ابن عاشور، التحرير والتنوير، (478/1).

النفس، تحتاج إلى صبر. الثاني: الصبر عن محارم الله، بالصبر عن كل ما حرم الله، ودعت إليه النفس من سوء، كالزنا، والخمر، والرياء، فيجاهد نفسه من الوقوع فيها، وكف النفس والهوى فيه معاناة، ويحتاج إلى صبر. والثالث: الصبر على أقدار الله، والأقدار إما ملائمة تحتاج لشكر وهي تتبع النوع الأول (الصبر على الطاعة)، وإما مؤلمة، وتشمل كل أنواع البلايا، فما يُبتلى فيه المرء، في نفسه، وأهله، وماله، ووطنه، كله يحتاج إلى صبر خال من الجزع والضجر، والتسخط على أقدار الله، وهذه الفروع الثلاث شملها قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. فلفظ الصبر فيها عام لم يقيد بنوع دون آخر¹.

وقد ترجم البخاري لسنن الصبر، ومنها الصبر على الأذى (بَابُ الصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى)، والذي هو حبس النفس عن مجازاة الأذى بمثله سواء أكان قولاً أو فعلاً، وهو يقابل الحلم، والصبر على الأذى من أخلاق الأنبياء والصالحين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُم نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34]، وفي التآسي بهم، والحث على التحلي بهذه الفضيلة، ولعظيم هذه الفضيلة فقد وصف الله بها نفسه، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لَيْسَ أَحَدٌ -أَوْ لَيْسَ شَيْءٌ- أَصْبَرَ عَلَىٰ أَدَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"، فمن حلمه سبحانه، عدم تعجيل العقوبة على مستحقها، بل تأخيرها إلى زمان آخر، كمن نسب إليه الولد، وهو سبحانه منزّه عن قولهم، فيقابل ذلك بالإحسان إليهم فيعافيههم، ويرزقهم².

وقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم من نسبة الجور له في القسمة، لكنه صبر وحلم عن القائل؛ اقتداء بموسى عليه السلام، ولعلمه بعظيم أجر الصابرين³ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِسْمَةً كَبِغْضِ مَا كَانَ يُعْسَمُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فُلْتُ: أَمَا أَنَا لِأَقُولَنَّ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ فَسَارَزْتُهُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى

¹ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (173_172/1).

² انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (223/21).

³ انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (223/21).

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَغَضِبَ حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَخْبَرْتُهُ ثُمَّ قَالَ: "قَدْ أُودِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ"¹.

ومما يعين الإنسان على الصبر على أذية الخلق، ما أعدّه الله للصابرين من عظيم الأجر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، وفي هذا تأنيسا لهم، بالأجر العظيم الذي لا يحاط بمقداره، ولا يخطر على قلب بشر؛ لصبرهم على مشقة القيام بالمأمورات، واجتناب المنهيات، ولا شك أن الصبر على درجات وبقدرها يتفاوت الأجر².

والاستعانة بالصبر بفتح المؤمن في الدنيا والآخرة، وسبب الظفر بهما، فالحياة لا تخلو من الكدر والمشقة، وما للمؤمن غير الصبر ضياء ينير به ظلمات هذه الحياة ليتجاوز عقباتها، فهو في كل عبادته، ومعاملاته، وفي جهاده، وفي دراسته وبناء نفسه، بأشد الحاجة للصبر؛ لما فيه الحصانة من كل هشاشة نفسية، أو تدهور أخلاقي، أو خسران ديني أو دنيوي. وما جعل أهل غزّة يثبتوا في ظلّ هذه المحن والابتلاءات سوى أنهم تسلّحوا بسلاح الصبر والإيمان، فقدموا الغالي والرخيص في سبيل الله، محتسبين ما عند الله من عظيم الأجر والثواب، فترى الواحد منهم يقف على ركام بيته، ويفقد فلذة كبده، بل ويهجّر، وقد تقطّع أطرافه، وهو صابر محتسب، يردد اللهم في سبيلك، اللهم رضينا!

هؤلاء هم خريجو مدرسة الصبر النبوية، من جهزوا العتاد منذ زمن حتى ينجحوا في هذا الامتحان، فهنيئا لهم، فقد باعوا دنياهم ليشتروا نعيم الآخرة ورضوان الله!

المطلب الرابع: تجنب الغضب.

في البعد التربوي النفسي لا بد وأن يكون للغضب حصة في النهي عن التخلق به، ومحاربة آثاره، فهو أمر جبلي في غريزة الإنسان، وقد ترجم البخاري هنا بقصد الحذر منه امتثالا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، لذا قيل أنّ مقصود البخاري من الترجمة: تجنب مواضع الغضب وأسبابه، وقيل ترك ما يأمر به الغضب

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الصُّبْرُ عَلَى الْأَذَى، حديث رقم (6100)، (25/8).

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، (53/23).

من أقوال وأفعال¹؛ وقاية لما يترتب عليه من آثار سيئة على باطن الشخص وظاهره، فالغضبان يمتلأ قلبه بالحقد والحسد، ولا يتلفظ لسانه إلا بالشتائم والألفاظ القبيحة، وكما يظهر أثر ذلك على فعله بالضرب أو القتل، فإن لم يتشقى من المغضوب عليه، فإنه قد يؤدي نفسه ومن ليس له علاقة بذلك، فيقوم بتمزيق ثيابه، أو لطم خده، وبالتالي فالغضب يؤدي إلى التخاصم والقطيعة بين الناس، وهو من أعظم أسباب تدمير العلاقات بين الناس²، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، "أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لَا تَغْضَبْ"³، وفي وصيته صلى الله عليه وسلم معاني كثيرة، أساسها درء للمفاسد وجلب للمصالح.

ولما كان الغضب يؤدي إلى مفسد عظيمة، ترجم البخاري "بَابُ الْحَدْرِ مِنَ الْغَضَبِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}"، في التحذير من الغضب واجتناب أسبابه، فقد أثنى سبحانه على من كظم غيظه، وتغلب على نفسه، فلم ينتصر لها، وجعله في رتبة المحسنين، ودلالة الآيتين في التحذير من الغضب، يعرف بمفهوم المخالفة؛ فمدحه سبحانه لمن يتجاوز عند الغضب، ومن يكظم غيظه، هو ذم لصد هذه الأفعال⁴.

ومن جميل ما ذكره صاحب الظلال في تفسيره لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} إن الانتصار على الشح والغيظ سبب الانتصار في المعركة، فمن تمكن من نفسه، وتغلب عليها في هذه المواطن فهو أقدر على مواجهة العدو والثبات في المعركة⁵، إذن فالبخاري يرشد المسلم في هذا الباب على ما يعينه للتغلب على الغضب، أولاً: ضبط النفس، وكظم الغيظ وهذا أيضا ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

¹ انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (234_233/21).

² انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (610/3).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب، (28/8)، حديث رقم (6116).

⁵ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (658 /1).

وسلم: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ"¹، لبيّن أن القوي هو ليس من يصرع الناس، بل هو من يقوى على نفسه، فيملكها عند ثوران غضبه؛ فيقهرها بحلمه؛ ويصارعها بثباته، فالنفس أقوى خصوم الإنسان ومجاهدتها أشد من مجاهدة العدو.²

وثانيا: الاستعاذة؛ فالغضب من تزيين الشيطان، وهي أقوى سلاح لدفع كيده، فعن سليمان بن سرد رضي الله عنه قال: "اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدْ أَحْمَرَ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ"³ فقول الرجل: "لست بمجنون"، يبيّن كيف يخرج الغضب الإنسان عن اعتداله، ويوقعه فيما يذم من الأفعال والأقوال.⁴

كيف لا، وقد دفع الغضب موسى عليه السلام لأن يلقي الألواح، ويمسك برأس أخيه، لعبادة قومه العجل، وإهماله أمرهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا بِأَن سَأَلَ آلَهُ بِمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَفَعَلْتُمْ أَمْرًا رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (الأعراف:150)، وهنا تجدر الإشارة إلى ما جاء في (باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله)، لبيان جواز الغضب إن كان لله والانتصار لدينه، فهو محمود، والنهي عنه إن كان لأجل النفس، فهو مذموم، والذي دفع موسى عليه السلام للغضب ما رآه من عبادة قومه للعجل، وكان حق له أن يغضب، والغضب لله واجب على كل مسلم، وفرض على الأمراء والسلطين فعليهم أن ينصفوا المظلومين، ويحفظوا أمور الشريعة من التغيير والتبديل، وفي هذا ذكر بعض العلماء أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منه فرض ومنه نافلة، فالفرض يجب العمل به، أما النافلة فلا يأتى المرء بتركها، إلا إذا سئل عنها لواجب النصيحة، فهي فرض على جميع المسلمين. وأحاديث

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب، حديث رقم (6114)، (28/8).

² الخولي، الأدب النبوي، (151_152).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب، حديث رقم (6115)، (28/8).

⁴ انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (163/16).

الباب دالة على ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، يغضب لأجل الله، ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم لرؤيته التصاوير في القرام وقيامه بخرقها، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي الْبَيْتِ قِرَامٌ فِيهِ صُورٌ فَتَلَوْنَ وَجْهَهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّتْرَ فَهَتَكَهُ، وَقَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّورَ"¹ وكذلك غضبه ممن طَوَّلَ صَلَاتَهُ بِالنَّاسِ، ونهى عن ذلك؛ لما في الإطالة من تغيير الناس من حضور الجماعة.²

إنَّ تجنب الغضب، أو ما يقابله من كظم الغيظ له دور عظيم في بناء القوَّة النفسية للمسلم، إنَّها القوَّة التي يهبها الإسلام للفرد حتَّى يقدر على مجاوزة هذه الحياة، فحرارة الغيظ ليست هيئة لكنَّه التقوى خير زاد للمسلم هو من يبزدها.

وهذه الأبعاد من أعظم ما يفنقر إليه المسلم اليوم، فالصبر والرِّضا والقناعة وجهاد النَّفس، سلوى العبد وثباته في مواجهة شدائد هذه الأيام، والابتلاءات، فالدنيا لا تخلو من كدر.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الغضب والندبة لأمر الله، حديث رقم (6109)، (27/8).

² ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (293/9_295).

الفصل الثالث

البعد التربوي الاجتماعي، وأثره في بناء شخصية المسلم

بعد النظر والتتبع وُجد أنّ أبواب كتابي الأدب والرفاق في صحيح البخاري، رتبت العلاقات الاجتماعية ترتيباً تربوياً، وظهر ذلك في تراجم كثيرة، وفي هذا المبحث سيتم عرض الأبعاد التربوية الاجتماعية من خلال التراجم، وبيان أثر ذلك على الشخصية المسلمة.

المبحث الأول: المحافظة على تماسك الأسرة.

إنّ المطلع على كتابي الأدب والرفاق يرى بروز الفكر التربوي لدى الإمام البخاري بشكل واضح، فقد جاءت تراجم كتابه بالدعوة للحفاظ على أسباب تماسك المجتمع، ونبذ كل ما يؤدي إلى تفكّكه وفرقته، ولما كانت الأسرة نواة المجتمع، ومنها تبنى الحضارات، وهي المحضن التربوي الأول للأفراد، بدأ بها، ثمّ وسّع الدائرة ليشمل كل ما يحفظ العلاقات بين أفراد المجتمع.

المطلب الأول: مفهوم تماسك الأسرة.

ويقصد بتماسك الأسرة: "صلة الربط الوثيقة بين أفراد العائلة الواحدة، بداية من ربّ الأسرة وربّتها، ثم ما بين الأقارب من ذوي النسب والأصهار؛ ليكون بين أفراد الأسرة عموماً مجالسة وتواصل، ومودة وتراحم"¹. فلا يكون هذا التماسك إلا إذا قام على التوازن بين الحقوق والواجبات، فكما أنّ للوالدين حقوق على أبنائهم فلهم كذلك واجبات عليهم، وكذلك الزوجين فلكل منهما حقوق وواجبات، وبتنظيم كل من هذه الحقوق والواجبات تتكون الأسرة على أساس متين يكفل الترابط بين أفرادها.

¹ انظر: الدويش، إبراهيم، (2009)، التماسك الأسري في ظل العولمة، الأوراق العلمية لندوة: الأسرة المسلمة والتحديات المعاصرة: مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان، الرياض، ومركز البحوث والدراسات في مجلة البيان، (19_58).

المطلب الثاني: أسس تماسك الأسرة.

إنَّ المنتبِع لتراجم كتابي الأدب والرفاق، يجد أنَّ البعد الاجتماعي له نصيب الأسد على مستوى الأبعاد بعد البعد الإيماني، وما ذلك إلا لأنَّ المقاصد الاجتماعية زاخرة بالتوجيهات النبوية، لأنَّ المجتمع هو الحاضنة العليا للإسلام ودولته، والأسرة وذريتها، ومن خلال تراجم البخاري رحمه الله وُجِدَت أسس هامة بنى عليها البخاري نظريته المجتمعية وفق السنة النبوية، تصب جميعها في تحقيق مقصد تماسك الأسرة. وهذه الأسس جاءت على النحو الآتي:

الأساس التربوي الأول: برّ الوالدين.

إنَّ الأسرة التي ينشأ أبناؤها على برّ الوالدين، والاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة، بحيث يؤدي كل فرد فيها دوره، تعزز شعور الأبناء بالمسؤولية تجاه والديهم، كما وتعزز شعور الوالدين بالمسؤولية تجاه أبنائهم، فتنشأ الأسرة في جو من التعاون والاستقرار، يملؤها الحب والتعاطف، فتكون أسرة متماسكة قويّة. وبهذا جاءت تراجم كتاب الأدب في دعوة صريحة للتّرعيب في برّ الوالدين والترهيب من عقوقهما، وجاء ذلك في ثمانية أبواب: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾، و(بَابُ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ)، و(بَابُ: لَا يُجَاهِدُ إِلَّا بِإِذْنِ الْأَبَوَيْنِ)، و(بَابُ: لَا يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ)، و(بَابُ إِجَابَةِ دُعَاءِ مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ)، و(بَابُ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْكَبَائِرِ)، و(بَابُ صِلَةِ الْوَالِدِ الْمُشْرِكِ)، و(بَابُ صِلَةِ الْمَرْأَةِ أُمَّهَا وَلَهَا رَوْحٌ).

أ. برّ الوالدين وصيّة الله للأبناء.

ففي بَابِ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8]، ترجم البخاري للباب بآية قرآنيّة؛ ليضفي قدسيّة على رباط الوالديّة، وللتذكير بأنّ برّ الوالدين والإحسان إليهما هي وصيّة الله للأبناء، واختيار البخاري لترجمة الباب بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8]، لا موضع الأحقاف ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: 15]، أبلغ وأعظم دلالة، فمصطلح:

"حُسْنًا"، أعمّ في البرّ وهي تشمل المؤمن والكافر منهما، لذلك أوصى سبحانه بتقديم الحسّن ذاته، لا مجرد الإحسان إليهما حين يكون منهما كفر؛ فذلك أدعى للقطيعة والخصومة، وهو أمر يحتاج إلى قوة تكليف، فالحق سبحانه لا يجيز إهمالهما أو اهانتها كونهما كافرين وسيُساءل كل من قصّر بهما¹.

وهذا ما جاء في الترجمة السابعة: (بَابُ صَلَاةِ الْوَالِدِ الْمُشْرِكِ)، من وجوب صلة الوالدين المشركين والإحسان إليهما، فلوالدين وإن كانا غير مسلمين، حقّ الأبوة، وهذا من رحمة الله بخلقه، فهو سبحانه يوصي بهما مع كونهما كافرين به، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:15]، والمصاحبة تقتضي المتابعة وتفقد أحوالهما، والمبادرة إلى طاعتها في غير معصية الله²، قال ابن بطال: "صلة الوالدين المشركين واجبة بكتاب الله، وذلك لقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8] ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:15]. فأمر ببرهما ومصاحبتهما بالمعروف وإن كانا مشركين تصديقا لحديث أسماء رضي الله عنها: "أَتَيْتِي أُمِّي رَاغِبَةً، فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَصِلُهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ)"³. ومن أعظم البرّ بهم دعوتهم إلى الله، مع الرّفق والرحمة بهم⁴.

ب. تقديم الأم في البرّ والصلة

وفي (بَابُ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ) جاء التأكيد على حق المستضعف من الوالدين وهي الأم، وذلك جبرا لخطرها ورفعة لقدرها، فمقتضى هذا الحديث يكون للأم ثلاثة أضعاف ما للأب من البرّ، لأنها تحمّلت صعوبة الحمل والوضع والرضاع، فهذه الثلاث منازل تنفرد وتشقى بها الأم دون الأب، وتشارك

¹ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (18 / 11086_11087).

² انظر: المرجع السابق، (11650/19).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: صلة الوالد المشرك، حديث رقم (5978)، (4/8).

⁴ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (201/9).

الأب في التربية¹، وهذا ما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا

عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَدَّهُ فِي عَمَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾. [لقمان:14]. فقد خصّ الأم بوصف حال ما

تجده من الحمل والإرضاع، وما ذلك إلا دعوة لمزيد العناية بها.

ت. بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله ما لم يقع النفير العام.

ولبيان عظم حقهما، ترجم البخاري (باب: لَا يُجَاهِدُ إِلَّا بِإِذْنِ الْأَبَوَيْنِ) لبيّن أنّ برّ الوالدين والإحسان إليهما

مقدم على الجهاد في سبيل الله ما لم يقع النفير العام، فبرهما فرض عين والجهاد في سبيل الله فرض

كفاية، وفيها إشارة إلى أنّ الجهاد موقوف على إذن الوالدين².

وفي هذه الترجمة دلالة على فقه البخاري ومراعاته لفقه الأولويات، حيث قدّم بر الوالدين على جهاد

الطلب، وهذا ما أشار إليه القرضاوي في كتابه فقه الأولويات حيث جعله من أظهر الأمثلة على أولوية

فرض العين على فرض الكفاية، معبراً عن ذلك بأنّ خدمة الوالدين والقيام بواجبهما أولى من الانضمام إلى

صفّ الجيش المقاتل، ففي ذهاب ولدهما للجهاد وقوع لهما في الحرج، فمن يعينهما ويقوم بقضاء

حوائجهما؟³

وإن كان بر الوالدين يقدم على الجهاد في سبيل الله على عظم مكانته، فمن باب أولى يقدم على السفر

المباح، فيحرم السفر دون إذنهما⁴، وكمن من أبّ وأمّ قد تركاهما أبناؤهما وحيدين في سفر لأجل تجميع

مال، لا يعلمون من حقوق الوالدين شيئاً، تأخذهم الدنيا وملذاتها!

ث. التسبب في لعن الوالدين من أكبر الكبائر.

ولقطع الطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى التسبب في سبّ الوالدين ترجم البخاري: "بَاب: لَا يَسُبُّ الرَّجُلُ

وَالِدَيْهِ"، فهو كما بيّن القاضي عياض للدلالة على أن المتسبب في سب ولعن والديه كمن يسب أو يلعن

¹ انظر: قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (241/5).

² انظر: قاسم، حمزة محمد، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (114/4).

³ انظر: القرضاوي، في فقه الأولويات، (139).

⁴ انظر: قاسم، حمزة محمد، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (115/4).

والديه، وهذا يعتبر من أكبر الكبائر، وهو من أبواب العقوق الذي يقع فيه كثير من الناس، ويجب الحذر منه¹.

إن هذا الباب إشارة إلى قاعدة عظيمة من قواعد الفقه وهي سد الذرائع، ومعناها أن كل فعل جائز في الظاهر يؤدي إلى محذور فيحرم عليه ذلك الفعل، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]. واستشهد ابن العربي بحديث الباب الذي رواه ابن عمر رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ"²، في الدلالة على منع الفعل المؤدي إلى محذور ولو كان جائزا في نفسه³.

وفي توظيف البخاري قاعدة سد الذرائع لتوجيه فكري مفاده: لا تسبوا آباء الآخرين، ولا تكونوا سببا في ذلك؛ فيسبوا آباءك، فإذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم من تسبب في لعن والديه سببا لاعنا مقترفا لكبيرة وذلك دون قصد منه، فكيف بمن قام بشتمهما أو ضربهما؟.

ج. بر الوالدين سبب إجابة الدعاء.

ومع الترهيب تارة، يرغب البخاري الأبناء ببرّ والديهم؛ لما لدعائهما من أثر في حياة الأبناء، فقد كافى الله البارّ بوالديه، فجعله مجابا الدعوة: "بَابُ إِجَابَةِ دُعَاءِ مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ"، ومن الشواهد على ذلك، قصة أويس القرني خير التابعين، الذي كان يسكن اليمن، وتنازل عن مقام الصحبة والهجرة برّا بأمه، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته إذا التقوا به أن يطلبوا منه الدعاء لهم، فعن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا

¹ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (358_357/1).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، حديث رقم (5973)، (3/8).

³ انظر: ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الاشيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (ط3)، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، (265/2).

موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "يَأْتِي عَلَيْكَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أُمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مَرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ. كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دَرَاهِمٍ. لَهُ وَالِدَةٌ هِيَ بِهَا بَرٌّ. لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ. فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَكَ فَافْعَلْ"¹. فحاز ببره لأمه هذه المنزلة العظيمة فكان مجاب الدعوة²

ح. التهريب من عقوق الوالدين فهو من أكبر الكبائر.

وفي التهريب من عقوق الوالدين والحذر منه، ترجم البخاري: "بَابُ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْكَبَائِرِ"، فقد جعله الله من أكبر الكبائر، وقرنه بالشرك الذي هو من أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَنْبٍ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]. والكبائر هي: "كل ذنب يعلم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو كان أكبر من مفسدته فهو كبيرة"³، والعقوق ضد البر، وهو من عق، يعوق، عقوقاً؛ أي: قطع وشق. فكان العاق لوالديه يقطع ما أمره الله تعالى به من صلاتهما، ويشق عصا طاعتها⁴.

وهذا القرآن يسطر أولى مراتب الرعاية والأدب مع الوالدين ألا يصدر من الولد ما يعبر عن الضيق والضجر، وما يشير إلى الإهانة وسوء الأدب، قال تعالى: [فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ] [الإسراء: 23]⁵، فإذا حرم سبحانه أدنى ما يصدر من الأذية من الولد وهي كلمة "أف"، فمن باب أولى تحريم شتمهما أو ضربهما؛ لأن الأذية فيه أعظم.

إن هذا الباب يرسم حدوداً للأبناء في تعاملهم مع والديهم ويحذرهم من تجاوزها، فمن تعداها إلى منطقة العقوق فقد أوقع نفسه في العذاب والوعيد وأهلكها. وقد تنوعت مظاهر العقوق في زمننا هذا بألوان شتى!

¹ مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل أويس القرني، رضي الله عنه، حديث رقم (2542)، (1969/4).

² انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، (31_20/4).

³ ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (ت 974هـ)، الزواجر عن اقتراف الكبائر، الناشر: دار الفكر، ط1، 1407هـ - 1987م، (13/1).

⁴ القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (165/5).

⁵ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (534/4).

فأصبح الابن يشتم والديه، ويتمادى بالضرب، ويجلس ساعات على وسائل التواصل يضحك ويلهو فإذا احتاجه أحد والديه تبرم وتأفف لأهون طلب! وكم من بيوت صرخت أما من فلذات كبدها؛ يُؤثر أهله وعياله على والديه فلا يتفقد حاجتهما وهما يسكنان في بيت واحد لا يفصل بينهما سوى السقف!

(ي) جواز صلة المرأة أمها دون إذن زوجها.

وللتأكيد على برّ الوالدين، فقد أجاز الشّرع للمرأة صلة أمها دون اشتراط إذن زوجها، ففي "باب صلة المرأة أمها ولها زوج"، أورد البخاري حديث الباب مبينا إذن النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء زيارة أمها دون استئذان زوجها، فعنها رضي الله عنها: "قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ فُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَبِيهَا، فَاسْتَقْنَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ؟ قَالَ: (نعم، صلي أمك)"¹، وهو من باب الإحسان إلى الوالدين، ودليل لمن قال بجواز أن تتصرف المرأة بمالها، وأن تتصدق به دون إذن زوجها².

فالبيت الذي ينشأ أبناؤه على برّ الوالدين، تقوم العلاقات فيه بين الوالدين وأبنائهم على أسس متينة، فشعور الوالدين باهتمام أبنائهم وحرصهم على برهما، لهو السبيل لكسب قلوبهما. وفي المقابل فإنّ البيت الذي يسيء فيه الأبناء لوالديهم بأيّ من مظاهر العقوق يغشاه التّفكك والانهيّار، وما أكثر مظاهر العقوق في حياتنا اليوم! وكم من الآباء والأمهات الذين يشكون غربة أبنائهم، واعتدائهم عليهم بالشتم، والضرب! يقول صاحب الظلال: "إنّ الوالدين لأقرب الأقرباء، وإنّ لهما لفضلا، وإنّ لهما لرحما؛ وإنّ لهما مفروضا: واجب الحبّ والكرامة والاحترام والكفالة"³.

الأساس التربوي الثاني: بر الأبناء.

وكما أن هناك حقوق للوالدين على أبنائهم، فهناك حقوق للأبناء على والديهم، وكما أن هناك عقوق للوالدين، فهناك عقوق للأبناء، وبر الأبناء من أهم المقومات التي تساهم في إحكام بناء الأسرة وديمومتها،

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب : صلة المرأة أمها ولها زوج، حديث رقم (5979)، (4/8).

² انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (201/9).

³ سيد قطب، في ظلال القرآن، (258/5).

وتستوجب العناية بهم في جميع النواحي الجسمية، والعقلية، والنفسيّة، والدينية، ومن هذا ما جاء في تراجم كتاب الأدب في إحدى عشر باباً: (باب: رَحْمَةِ الْوَالِدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ)، و(باب: وَضَعِ الصَّبِيِّ فِي الْحِجْرِ)، و(باب: وَضَعِ الصَّبِيِّ عَلَى الْفَخِذِ)، و(باب: قَتْلُ الْوَالِدِ خَشْيَةً أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ)، (باب: أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)، و(سَمُّوا بِأَسْمِي وَلَا تَكْتَبُوا بِكُنْيَتِي)، و(باب: اسم الحزن)، و(باب: تَحْوِيلِ الْإِسْمِ إِلَى اسْمِ أَحْسَنَ مِنْهُ)، و(باب: مَنْ سَمَى بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ)، و(باب: تَسْمِيَةِ الْوَالِدِ)، و(باب: الْكُنْيَةِ لِلصَّبِيِّ وَقَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ لِلرَّجُلِ)، ودلالة بعد التماسك الأسري في تراجم بر الأبناء واضحة، وقد تضمنت ما يأتي:

أ. من مظاهر الرحمة بالأبناء تقبيلهم ومعانقتهم.

وهو ما جاء في: (باب: رَحْمَةِ الْوَالِدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ)، فالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أشرف الخلق يقبل الصبيان ويعانقهم، تلطفاً ورافة بهم، ويزجر ويعتف من لا يقبل أولاده ولا يرحمهم، داعياً إلى ترسيخ خلق الرحمة في نفوس المرّبين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: "قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ النَّبِمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَالِدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَتَنَزَّرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ"¹. فتحقيق الحاجات النفسية لهم من العطف والحنان له أعظم الأثر في تكوينهم وإعدادهم، وجعلهم أكثر استجابة، فحاجتهم للأمن المتمثل في العاطفة الدائمة من الوالدين، من أكبر الدعوات في صلاح الأسرة، وتوفير المناخ الصحي والنفسي الملائم.

وأما إذا انتزعت صفة الرحمة من الوالدين، فسيعكس ذلك سلباً على أبنائهم، "فشعورهم بالحرمان العاطفي، يجعل منهم أطفالاً غير سويين، يعانون من اضطرابات نفسية²، وما يتبعه من انحراف في سلوكهم، وفي مقدمته الشذوذ³.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رَحْمَةِ الْوَالِدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ، حديث رقم (5997)، (7/8).

² انظر: البغدادي، ضحى سليمان، بنات، سهيلة محمود صالح، أداء الوالدين لمسؤولياتهم الأسرية وأثره على التماسك الأسري، رسالة ماجستير، (جامعة عمان العربية _ الأردن)، (22-23).

³ انظر، علوان، عبدالله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام، ط1، 1390هـ-1976م، (1/49-50).

وقد ذهب النووي إلى أن تقبيل الرجل خذ ولده الصغير وأطرافه واجب من باب الشفقة والرحمة بهم، وأما أولاد الأقارب سنة، وكذا قبلة أولاد الأصدقاء، أما التقبيل لشهوة فمحرم بالاتفاق¹.

ب. من مظاهر الرحمة بالأبناء وضعهم في الحجر أو على الفخذ.

كما جاء في: (باب: وَضَعِ الصَّبِيِّ فِي الْحَجْرِ، وباب: وَضَعِ الصَّبِيِّ عَلَى الْفَخْدِ)، فعن عائشة رضي الله عنها: "أن النبي صلى الله عليه وسلم وَضَعَ صَبِيًّا فِي حَجْرِهِ يُحْنِكُهُ، فَبَالَ عَلَيْهِ، فدعا بماء فأتبعهم"². ووضع الصبي على الفخذ رحمة بالولد، فقد كان صلى الله عليه وسلم يأخذ أسامة بن زيد فيقعه على فخذه، ويضع الحسن بن علي على فخذه الآخر، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُنِي فَيُعِدُّنِي عَلَى فَخْذِهِ وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخْذِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا"³ فالعطف على الأطفال، ومداعتهم، والصبر على ما يقع منهم، من سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم⁴.

ومن ذلك أيضا مشاركة الأبناء ومعايشتهم في جميع مراحل حياتهم، فعلى الرغم من ضيق وقته صلى الله عليه وسلم وكثرة انشغالاته، إلا أنه استطاع أن يكون الأب الحنون والجد الرحيم، على خلاف كثير من الآباء اليوم يقضون غالب أوقاتهم في العمل، ولا يجدون متسعا؛ ليجلسوا مع أبنائهم جلسة تشعرهم بقربهم منهم، وحاجتهم لهم، فقد يحتاجون لحنانهم وعطفهم، أكثر من حاجتهم إلى المال. وهذا ما تفتقره غالب أسرنا الإسلامية اليوم.

ت. الحفاظ على حياتهم، وتقديم الرعاية لهم.

ومن صور البرّ بالأبناء الحفاظ على حياتهم، وتقديم الرعاية الماديّة لهم، وهذا ما جاء في باب: (باب: قَتْلِ الْوَلَدِ خَشِيَةً أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ)، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم قتلهم خشية الإنفاق، من أعظم الذنوب بعد

¹ انظر: النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت 676هـ)، روضة الطالبين وعمدة المفتين، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان، (ط3، 1412هـ / 1991م)، (10/236).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: وَضَعِ الصَّبِيِّ فِي الْحَجْرِ، حديث رقم (6002)، (8/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: وَضَعِ الصَّبِيِّ عَلَى الْفَخْدِ، حديث رقم (6003)، (8/8).

⁴ البغدادي، أداء الوالدين لمسؤولياتهم الأسرية وأثره على التماسك الأسري، (22-23).

الشرك؛ لأنه يجمع بين القتل، والبخل، وقطع الرحم¹، ففي حديث الباب: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ). قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ)"، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمْلَاقٍ مِمَّنْ نَزَّلْنَا لَهُمُ الرِّزْقَ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]، فالآية سبقت لزجر الآباء عن قتل أبنائهم خوف الفقر والإملاق، وجعله من أعظم الكبائر؛ لزوال الرحمة من القلب، وما فيه من العقوق والتجرؤ على قتلهم دون ذنب أو معصية².

كما وحرّم الإسلام الإجهاض خشية الفقر وأعباء الحياة، وأوصى بالحفاظ على حياة الطفل وهو جنينا، ودعى الآباء إلى التوكل على الله، فقد تكفل برزقهم ورزق أبنائهم، وإيراد البخاري هذا الباب بعد باب رحمة الولد وتقبيله؛ ليخبرنا بأنه إن كان قتل الولد خشية أن يأكل مع أبيه، من أعظم الذنوب، فرحمة الولد والإحسان إليه من أعظم الأعمال بعد الإيمان بالله سبحانه³.

إنّ شعور الأبناء باهتمام والديهم يعزّز من انتمائهم لهم، وشعورهم بوجود من يهتم بشؤونهم، وتوفير احتياجاتهم له أكبر الأثر في استقرارهم النفسي. وكل ذلك داعم للأبناء برد الجميل لأبائهم خاصة عند الكبر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْغُضَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: 24] وقوله تعالى:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]

ث. التسمية الحسنة للأبناء.

ومن البرّ بالأبناء اختيار الأسماء الحسنة لهم، واجتناب القبيح منها، فالاسم لصيق بصاحبه وله تأثير على شخصيته، فهو يربط المولود بهدي الشريعة وآدابها، ويعبر عن معتقده ووجهته ففي التسمية بأسماء الأنبياء، والصالحين، والشهداء حافظ لمن يحمل الاسم والتأسي بهم، والافتداء بهديهم، وهي دافع للاعتزاز

¹ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (300/28).

² انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، (457).

³ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (300/28).

بسلف الأمة والسير في ركبهم. ولا يغيب عن أحد مشاعر الطفل عندما يحمل اسما لا يحبه، وأثر ذلك على تكوين مشاعره وانفعالاته عندما يكبر.

وحسن اختيار الأسماء يدل على مدى ارتباط الوالد بهديه صلى الله عليه وسلم، ومدى سلامة تفكيره عن المؤثرات التي تصرفه عن الاستقامة والإحسان للمولود بالاسم الحسن.

وكما تنعكس آثار الاسم على سلوكيات الأمة وأخلاقياتها، فهو يبرز مدى الاضطرابات الفكرية والعقدية التي تلوثت بها الأمة، وانسلاخها عن أخلاقيات وأدابها، بل من جميل ما قيل فهو انقطاع حبل الاتصال في سلسلة النسب عن الصبغة الإسلامية، وكم من الأسماء الأعجمية التي استولت على عقول كثير من المسلمين، وسلبتهم هويتهم الإسلامية، حتى تطبعوا بطباع غير طباعهم، فأنحرفوا عن سبل الهدى والرشاد¹.

ولقد كان الصحابة يذهبون بأبنائهم إلى النبي ليتخير لهم الأسماء، وما هذا إلا دليل على أهمية اختيار الاسم وعظيم أثره²، ولقد بين البخاري ذلك في سبعة أبواب: (باب: أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)، و(سَمُّوا بِأَسْمِي وَلَا تَكْتُمُوا بِكُنْيَتِي)، و(باب: اسم الحزن)، و(باب: تَحْوِيلِ الْإِسْمِ إِلَى اسْمٍ أَحْسَنَ مِنْهُ)، و(باب: مَنْ سَمَّى بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ)، و(باب: تَسْمِيَةِ الْوَلِيدِ)، و(باب: الْكُنْيَةِ لِلصَّبِيِّ وَقَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ لِلرَّجُلِ).

1. اختيار الأسماء الحسنة لهم، وأحبها إلى الله.

حثَّ النبي صلى الله عليه وسلم الآباء على حسن اختيار الأسماء لأبنائهم وأحفادهم؛ لما في ذلك من أثر في صقل شخصياتهم، وانعكاس على نفسياتهم، وقد ترجم البخاري بصيغة أفعال التفضيل، (أحب) ترغيبا ومعرفة منه بأثر ذلك على الأبناء، وهذا ما جاء في: (باب: أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) من استحباب التسمية باسم عبد الرحمن، ففي حديث الباب: الذي رواه جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "وُلِدَ لِرَجُلٍ مِّنَّا غُلَامٌ

¹ انظر: الركابي، عارف بن عوض بن عبد الحليم، مقاصد الشريعة الإسلامية في تسمية المولود، جامعة أم القرى_السعودية، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات-دمنهور، (ع2-2017)، (571_569).

² انظر: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق: عثمان بن جمعة ضميرية، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، (ط4، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م)، (174).

فَسَمَّاهُ الْقَاسِمَ، فَقُلْنَا: لَا نَكْنِيكَ أَبَا الْقَاسِمِ وَلَا كِرَامَةَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (سم ابنك عبد الرحمن)¹، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ)"²، فاختيار هذين الاسمين؛ لما فيها من وصف العبودية لله، فيعبر الاسم عن المسمى، ويتطابق معه بتحقيق العبودية لله وحده لا شريك له³.

2. التسمية بأسماء الأنبياء.

وفي (باب: مَنْ سَمَّى بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ) الحث على التسمية بأسماء الأنبياء احتفاءً وتأسياً بهم، فرسل الله وأنبيأؤه هم خير البشر، وإن من البرّ بالأبناء التسمية بأسمائهم، وهو بيان مؤكد لقوله وفعله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "سَمُّوا بِأَسْمِي وَلَا تَكْتَبُوا بِكُنِّيَّتِي"⁴ وهو نبيّ هذه الأمة، وأما فعله صلى الله عليه وسلم فقد سمى ابنه إبراهيم تيمناً بنبيّ الله إبراهيم عليه السلام. وما ذلك إلا لإبقاء ذكر الأنبياء وقصصهم مع أقوامهم، ونصرتهم للحق والمظلومين، وثباتهم أمام الباطل، فهناك الكثير من الأبعاد التربويّة التي تُستحضر عند تسمية الغلام بأسماء الأنبياء.

3. التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم، وكراهية التكنّي بكنيته إجلالاً وتوقيراً.

وفي باب: (سَمُّوا بِأَسْمِي وَلَا تَكْتَبُوا بِكُنِّيَّتِي)، الندب إلى التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم، وتخصيص ذكره هنا بعد (باب: مَنْ سَمَّى بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ) من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ لمزيد من العناية والتأكيد. ففي التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم، توقيره وإجلاله والاحتفاء به، ودعوة للتأسي به، وتعظيم هديه⁵.

والباب يبيّن كراهية الجمع بين اسمه وكنيته، فتخصيصه بكنية لا يُدعى بها غيره من باب الأدب معه وإجلاله⁶، وعدم جواز التكنّي بكنيته صلى الله عليه وسلم، وضّحها حديث جابر رضي الله عنه، قَالَ: "وُلِدَ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: أحب الأسماء إلى الله، حديث رقم (6186)، (42/8).

² مسلم، صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب: النهي عن التكنّي بأبي القاسم، وتبيان ما يُستحب من الأسماء، (2132)، (1682/3).

³ انظر: الركابي، مقاصد الشريعة الإسلامية في تسمية المولود، (574).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم سَمُّوا بِأَسْمِي وَلَا تَكْتَبُوا بِكُنِّيَّتِي، (6188)، (43/8).

⁵ انظر: الركابي، مقاصد الشريعة الإسلامية في تسمية المولود، (569_571).

⁶ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (342/9_349).

لِرَجُلٍ مِّنَّا غُلَامٌ فَسَمَّاهُ الْقَاسِمَ، فَقَالُوا: لَا نَكْنِيهِ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: سَمُّوا بِاسْمِي وَلَا تَكْتُبُوا بِكُنْيَتِي". وهذا النهي حال حياته صلى الله عليه وسلم أما بعد وفاته فلا يمنع ذلك؛ لزوال السبب الذي ورد النهي لأجله وهو أنه بدعاء غيره بذلك، يُظنُّ أنه يدعو¹.

4. اجتناب أبعض الأسماء عند الله.

وفي: (باب: أَبْعَضُ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ) توجيهه الى اجتناب التسمي بأبعض الأسماء عند الله، فقد ذكر البخاري في أحاديث الباب أن أبعضها هو (ملك الملوك)، ففي حديث الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَخْنَى الْأَسْمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكِ الْأَمْلَاقِ"²، وحديث سفيان رضي الله عنه: "أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلَاقِ"³، فلفظ أخنى يشير إلى قباحة وفحش الاسم؛ لأنه صفة لله، ولا تليق بمخلوق، والعباد لا يوصفون إلا بالخضوع والعبودية، ولفظ (أخنع) يشير إلى أنه من أصغر الأسماء وأذلها عند الله سبحانه وتعالى، فعاقب الله كل من يطلب الرفعة فيما لا يحل له من صفات ربه، بالذل والهوان في الآخرة، وكل ما يؤدي معناه من الأسماء فيدخل في ذلك، كحاكم الحاكمين، وخالق الخلق، وسلطان السلاطين⁴.

وفي ذلك توجيهه للوالدين باجتناب أبعض الأسماء؛ لما لها من أثر سلبي نفسي، وسلوكي، على الطفل، إضافة إلى الأثر الديني فقد تكون تلك الأسماء قد تدح بالإيمان أو الوجدانية.

5. تجنب التسمية بالأسماء التي تكرهها النفوس.

وفي بابي: (باب: اسم الحزن، وباب: تَحْوِيلُ الْإِسْمِ إِلَى اسْمٍ أَحْسَنَ مِنْهُ) إشارة إلى تغيير الأسماء التي تحمل معاني سيئة، وتكرهها النفوس، إلى أسماء حسنة، من باب التفاضل والتيمن، فقد كان صلى الله عليه وسلم يحبُّ الفأل الحسن، فأمر بتغيير اسم (حزْن) إلى (سهل) لما يحمله معناه من التشاؤم والغلظ والقساوة

¹ انظر: ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، (206).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: بَابُ أَيْغُضِ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ، حديث رقم (6205)، (45/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: بَابُ أَيْغُضِ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ، حديث رقم (6206)، (45/8).

⁴ انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (336_335/22).

في الخلق، ولما يتركه الاسم من أثر في نفس السامع، فاسم عاصي قد يوهم السامع أن هذه صفة للشخص، وأنه سمي به لأنه عاص لربه. "فَعِنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَاهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «مَا اسْمُكَ؟» قَالَ: حَزَنٌ قَالَ: «أَنْتَ سَهْلٌ» قَالَ: لَا أُعَيِّرُ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي. قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا زَالَتِ الْحُزُونَةُ فِينَا بَعْدُ"¹، وفيه بيان لتأثير الأسماء على مسمياتها، لارتباط الأسماء بمعانيها، وكأنها مشتقة منها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أَسْلَمَ سَالِمًا اللَّهُ، وَغَفَّارَ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَعَصِيَّةُ عَصَتِ اللَّهُ"².

والاسم القبيح كما بين علماء النفس له آثاره السيئة على نفسيّة الطفل، فعندما يخالط الناس ويشعر بوجوده ويبرز شخصيته فإنه يتألم عندما ينادونه بهذا الاسم، حتى لو كان نداؤهم بعيدا عن التجريح أو الاستهزاء، فكيف بحاله إذا تصادم بمن لا يتورع في طعنه ومضايقته بهذا الاسم، حينها فلا عجب إن أثر العزلة وعدم الاختلاط بالناس، بل يدفعه ذلك إلى كره من اختار الاسم حتى ولو كان والده، واضطراب العلاقة معه، فتلازمه عقدة نفسيّة ما لازمه الاسم³.

والأمر بتغيير الأسماء المكروهة ليس على الوجوب، بل فيه معنى الكراهة؛ فلو كان الأمر على الوجوب لما ناقش جدّ سعيد بن المسيّب على أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم تغيير الاسم، ولما أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم على بقاء اسمه الذي سماه إياه أبواه⁴.

وكما قد يكون تبديل الاسم لقبحه، فقد يكون التبديل كراهة التزكية، كتبديله صلى الله عليه وسلم اسم (بِرّة) إلى (زينب)؛ لما فيه من مدح وتزكية، فعن أبي هريرة: "أَنَّ زَيْنَبَ كَانَ اسْمُهَا بَرَّةٌ فَقِيلَ: تُزَكِّي نَفْسَهَا فَسَمَّاهَا

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الادب، باب: اسم الحزن، حديث رقم(6191)،(8/43).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع، حديث رقم (3514)،(4/181).

³ انظر: علي، سحر خليفة أحمد، الأسماء والكنى والألقاب في ضوء القرآن والسنة، كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة- جامعة الأزهر، المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقاق،(229).

⁴ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (346/9).

رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: زَيْنَب¹. لما فيه من اختيار الأسماء التي فيها صدق وحق، لا مدح فيها ولا ذم، فالهدف من الأسماء الدلالة والتعريف².

6. جواز التسمية باسم الوليد.

وفي (باب: تسمية الوليد) دلالة على جواز التسمية باسم (الوليد)، وأما ما ورد من أحاديث فيها النهي عن التسمية باسم الوليد، فلم يأخذ البخاري بأي منها لأنها ليست على شرطه، ورجح ما جاء في رواية أبي هريرة في جواز التسمية، فعن أبي هريرة قال: لَمَّا رَفَعَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: "اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلِّمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنَى يُوسُفَ"³. ومن ذهب إلى الكراهة بالتسمية باسم الوليد؛ لأنه من أسماء الجبابرة والفراعنة، كفرعون، وقارون،⁴ لكن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، إقرار منه على جوازه ولو كان مكروها لغيره،⁵ بل وأقره النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان فيه ما يدل على الصغار، لأن من معانيه حديث الولادة، والعبد، والخادم الشاب⁶، ومع ذلك فهو جواز التسمية بالوليد. هـ. تكنية المولود.

ومن باب التلطف مع الأبناء والتودد إليهم، يستحب تكتيتهم، وهذا ما جاء في (باب: الكنية للصبي وقيل أن يُؤلَدَ لِلرَّجُلِ)، فعن أنس رضي الله عنه، قال: " وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ، قَالَ: أَحْسَبُهُ فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّعَيْرُ؟"⁷، وتكنية الطفل الصغير آثار عظيمة في نفسه، منها: "إدخال السرور عليه بمناداته بالكنية المحببة إليه، وتكريمه وتعزيز شعور الاحترام لديه، وتدريبه على أدب الخطاب للكبار، وبناء شخصيته الاجتماعية، ولهذه الآثار العظيمة وغيرها، فقد كنى النبي صلى الله عليه

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الادب، باب: تخويل الاسم إلى اسم أحسن منه، حديث رقم (6191)، (43/8).

² انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (349_346/9).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: تسمية الوليد، حديث رقم (6200)، (44/8).

⁴ انظر: ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، (172).

⁵ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (581_580/10).

⁶ ابن منظور، لسان العرب، (469/3).

⁷ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الكنية للصبي قبل أن يُؤلَدَ لِلرَّجُلِ، حديث رقم (6203)، (45/8).

وسلم الأطفال وناداهم بها، مرشدا المرابين، حتى يستنوا بسنته، في تكنية أولادهم، ومناداتهم بها¹. وفي تبويب البخاري من قبل أن يولد له، دلالة على صناعة المستقبل واستشرافه لدى الطفل، لأنها تدعوهم لأن يكونوا على قدر معانيها.

الأساس التربوي الثالث: برّ الزوجين لبعضهما البعض.

لقد أرسى الإسلام دعائمه للحفاظ على البيت المسلم، فأوجب على كلا الزوجين، حقوقا نحو بعضهما البعض، بما يحفظ عُرى الزوجية، ويضمن استقرار الأسرة وسعادتها، ومن هذه الحقوق مساعدة الرجل زوجته في شؤون المنزل، وهو ما جاء في (باب: كَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ)، فعن الأسود رضي الله عنه قَالَ: "سَأَلْتُ عَائِشَةَ، مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فِيهِ"²، إشارة إلى الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، فكان نعم الرجل الذي يسعى في خدمة أهله، وقضاء حوائجهم، فلا يترفع عن مساعدة أهله، بل كان أكثر الخلق تواضعا، وأرفقهم في المعاملة والعشرة، قال ابن بطلال: "أخلاق النبيين والمرسلين التواضع، والتذلل في أفعالهم، والبعد عن الترفه والتنعيم، فكانوا يمتنون أنفسهم فيما يعين لهم ليستنوا بذلك، فيسلك سبيلهم وتقتفى آثارهم، وقد ذمّ الله من يخلد إلى الدعة والرفاهية، وذكر أنها من صفات غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: 11].³ فوصفهم بأولي النعمة كما بين ابن عاشور: توبيخا لهم، حيث أنّ قصارى همهم في هذه الحياة هي النعمة، والعيش بلا ضيق، والتلذذ بصنوف الطعام، والانبساط إلى النساء والخمر، ممتعون عن كمالات النفس، ونور الهداية والحق⁴.

¹ علوان، تربية الأولاد في الإسلام، (81_82).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: كَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ، حديث رقم (6039)، (14/8).

³ ابن بطلال، شرح صحيح البخاري لابن بطلال، (234/9_235).

⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (270/29).

والبخاري في هذا الأساس اكتفى بترجمة واحدة ولم ينوع فيها؛ لوجود كتب خاصة في كتابه الصحيح، تنظم العلاقات بين الزوجين، أهمها: كتاب النكاح، والطلاق، وفي ثناياها الكثير من القضايا التربوية في شتى المجالات.

الأساس التربوي الرابع: صلة الرحم.

ومن القواعد التي تحفظ العلاقات بين أفراد الأسرة، وتنتشر المحبة بينهم، صلة الرحم، فالتماسك بين أفراد الأسرة، وسلامة المناخ العائلي من الهجران والقطيعة، هو الذي يعصمها من التفكك والانهييار، ويحفظ أواصرها، فصلة الرحم كما عرفها ابن الأثير هي: "الإحسان إلى الأقربين، من ذوي النسب والأصهار، والتعطف عليهم، والرفق بهم، والرعاية لأحوالهم. وكذلك إن بعدوا أو أساءوا"¹، وبهذا جاءت التراجم داعية إلى الأخذ بكل ما يحفظ الصلة بين الأقارب، ومحذرة من كل ما يؤدي إلى القطيعة بينهم، وتمثلت بثمانية أبواب: (باب صلة الأخ المشرك)، و(باب فضل صلة الرحم)، و(باب: إثم القاطع)، و(باب: من بسط له في الرزق بصلة الرحم)، و(باب: من وصل وصله الله)، و(باب: ثبوت الرجم ببالاتها)، و(باب: ليس الواصل بالمكافئ)، و(باب صلة الأخ المشرك)، ودلالة أساس صلة الرحم على بعد التماسك الأسري جاءت حسب الآتي:

أ. الترغيب في صلة الرحم.

وصلة الرحم من أوائل الأعمال الفاضلة التي حثَّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته، يدلَّ عليه ما قاله أبو سفيان لهرقل عظيم الروم حين سأله عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم: "بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْعَقَابِ"² وما ذلك إلا لبيان أهميته، وفي الحثِّ على صلة الرحم ترجم البخاري: (باب فضل صلة الرحم)، لبيان أنها مقرونة بعبادة الله وتوحيده، والتي هي من أعظم

¹ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (5/ 191_192).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: (هل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله * سواء)، حديث رقم (4553)، (6/35).

الأسباب لدخول الجنة¹، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه "أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا لَهُ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَرَبَّ مَا لَهُ). فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ"²

ب. الترهيب من قطيعة الرحم.

والقطيعة ضد الصلة، وهي كما عرفها ابن الأثير: "الهجران والصدُّ، وهي فعلية، من القطع، ويُريدُ به ترك البرِّ والإحسان إلى الأهل والأقارب"³. وليبيان سوء عاقبة القاطع، والتحذير من الفعل ترجم البخاري: (باب: إثمُ القاطعِ)، فمن هجر رَحِمه وعاداهم، فقد جعل الله ذلك مانعا لدخوله الجنة، فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ"⁴، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22]، وأما من وصل رحمه فقد أمن هذه العقوبة.

ج. صلة الرحم سبب في زيادة العمر وبسط الرزق.

وليبيان أثر صلة الرحم على الواصل في الدنيا، ترجم البخاري: (باب: مَنْ بَسَطَ لَهُ فِي الرِّزْقِ بِصِلَةِ الرَّحِمِ)، للترغيب في صلة الرحم فقد جعل الله جزاءه زيادةً في العمر، وبسطاً في الرزق، واختُلف في معنى الزيادة في العمر، هل هي كناية عن البركة في العمر، فيوفق الله الواصل لرحمه للطاعات، ويصونه عن المعاصي، ويحفظ عمره من الضياع، فيبقى له الذكر الجميل بعد موته، بعلم ينتفع به، أو ذريةً سالحة تدعو له، أو صدقةً جارية. أو أنها زيادة حقيقية، مقدرة في علم الله لوصل رحمه، وأفضل الصلة وأولاهها، وأعظمها مثوبة بر الوالدين⁵.

¹ آل الشيخ، عبد العزيز بن عبد الله بن محمد، صلة الرحم: معناها وفضلها وأهميتها، بحث محكم، مجلة البحوث الإسلامية، الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء، ح120، (ربيع الآخر_2019)، (19).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: فضل صلة الرَّحِمِ، حديث رقم (5983)، (5/8).

³ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (4/82).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: إثمُ القاطعِ، حديث رقم (5984)، (5/8).

⁵ انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (22/144).

د. صلة الرحم سبب في رحمة الله وإحسانه.

وفي حث البخاري على صلة الرحم، وتعظيم ذلك ترجم ب: (باب: مَنْ وَصَلَ وَصَلَهُ اللَّهُ)، فالواصل يحظى بفضل الله ورحمته وإحسانه، والقاطع لها منقطع من رحمة الله وإحسانه، قال ابن أبي جمرة¹: "الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه، وإنما خاطب الناس بما يفهمون، ولما كان أعظم ما يعطيه المحبوب لمحبه الوصال، وهو القرب منه وإسعافه بما يريد، ومساعدته على ما يرضيه، وكانت حقيقة ذلك مستحيلة في حق الله تعالى عرف أن ذلك كناية عن عظيم إحسانه لعبده، قال وكذا القول في القطع هو كناية عن حرمان الإحسان"².

ه. صلة الرحم الكافرة.

وفي (بابُ صَلَاةِ الْأَخِ الْمُشْرِكِ، وباب: تُبَلُّ الرَّحْمُ بِبَلَالِهَا)، دليل على حق القريب الكافر بالصلاة، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [الْقَمَان: 15]. أما الولاية والتوارث فهي خاصة بالمؤمنين، فلا ولاية ولا توارث للكفار الأقارب. ولا يحاسب المرء على قطع الصلة بهم ما داموا كفاراً، إن كان القطع في الله، واستحق صلة الله بقطعه من قطع الله، وإلا فصلتهم بالمعروف، وما يباح من أمر الدنيا جائزة³. وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: "...وَلَكِنْ لَهُمْ رَحْمٌ أَبْلُهَا بِبَلَالِهَا"⁴ أي أنّ صلّتهم من باب ما تستلزمه الرحم من جميل الإحسان والصلة، فشبه صلى الله عليه وسلم القطيعة بالحرارة التي تُطْفَأُ بالماء وتُتَدَى بالصلاة⁶.

¹ الشيخ، الإمام، المعمر، مسند المغرب، أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن أبي جمرة الأموي، مولاهم الأندلسي، المرسي، ولد في: رجب، سنة سبع وخمسة مائة، ومات في محرم سنة 599هـ، من أشهر مؤلفاته (نتائج الأفكار في معاني الآثار)، و(إقليد الإقليد المؤدي إلى النظر السديد)، الذهبي، سير أعلام النبلاء، (21/398_399).

² انظر، ابن أبي جمرة، أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي (699هـ)، بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها، دار الجبل، بيروت- لبنان، (146/4). ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (10/418).

³ انظر، ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (9/207).

⁴ البلال جمع بلل. وقيل هو كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره. انظر، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (1/153).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: يُبَلُّ الرَّحْمُ بِبَلَالِهَا، حديث رقم (5990)، (8/6).

⁶ الملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (7/3081).

و. الواصل الحقيقي هو من يصل من قطعه.

وصحح البخاري مفهوم صلة الرحم ب: (باب: لَيْسَ الْوَأَصِلُ بِالْمُكَافِي)، لئلا يظنَّ البعض أنَّ مفهوم الصلة يقتصر على المكافئ الذي يعطي قريبه من الصلة مثل ما أعطاه، بل لتضم أعلى درجات الكمال في الصلة، فهي فيمن يتفضل على قريبه بالوصل وإن قطعه، فيحسن إلى أقاربه إن أساءوا، ويقرب منهم إن ابتعدوا، ويعطيهم إن منعوا، دون انتظار مقابلة المعروف بمثله، مبتغيا بذلك وجه الله¹، وهذا الباب إشارة إلى أنه يندب في معاملة الأقارب مقابلة الإساءة بالإحسان، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إن لي قرابة، أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسينئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال "لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل²، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك"³

وبصلة الرحم تبنى الأسرة على المحبة والتواد، والتراحم والتعاون، فأقارب الإنسان هم أكثر الناس صلة به، وأدراهم بأحواله، وبالصلة يشعر المسلم أن له أهلا وأعوانا يحفظونه، ويسعوا لنصرته، لذا فهم أولى الناس بالبرِّ والإحسان والرعاية. وللأسف كم من الناس الذين قطعوا علاقاتهم بأرحامهم، بحجة صدور الإساءة من طرفهم، وعدم مبادرتهم بالسؤال، غافلين عن النهج النبوي، والسياج الذي يضعه الإسلام لصيانة الأسرة من أي تمزق قد يحوطها!

وفي الختام فإنَّ هذه الأسس الأربعة التي استنبطها البخاري من الهدي النبوي، تحقق مفهوم التماسك الأسري، فالأسرة في الإسلام تقوم على أقوى الروابط، وأمتن العلاقات، التي ما التزم بها أفرادها، واستقرت أمورهم، وشاع بينهم الحب، وما الأسرة إلا الأساس الأول لبناء المجتمعات.

¹ انظر: آل الشيخ، صلة الرحم: معناها وفضلها وأهميتها، (16_13).

² الملن: الرَّمَادُ: أي تجعل وجوههم كلون الرَّمَاد. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (375/2).

³ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم، وتحريم قطيعتها، حديث رقم (2558)، (1982/4).

⁴ انظر: قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (243_242/5).

المبحث الثاني: التكافل الاجتماعي.

لقد سبق المجتمع الإسلامي الكثير من المجتمعات عبر العصور، في إرساء قواعد التساند الاجتماعي بما يحقق الرعاية الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية لجميع أفرادها، فيسعى الإسلام لإقامة العلاقات بين أفرادها على أساس التعاون، ومساندة كل محتاج، والأخذ بيد كل ضعيف، بما يحقق الألفة والإخاء بين أفرادها، ويجدد الصلات والتواصل بينهم، فيحفظ كيان مجتمعه، وينعم بالأمن والأمان، وقد زخرت تراجم كتابي الأدب والرفاق في صحيح البخاري كثيرا من أبواب التكافل الاجتماعي.

أولا: مفهوم التكافل الاجتماعي، ودليل مشروعيته:

ويقصد بالتكافل الاجتماعي هو: "أن يكون آحاد المجتمع في كفالة الجماعة، وأن يكون كل قادر أو ذي سلطان كفيلا في مجتمعه يمدّه بالخير. وأن تكون كل القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية في المحافظة على مصالح الآحاد ودفع الأضرار عن البناء الاجتماعي، وإقامته على أسس سليمة"¹.

ومن أصول أدلة التكافل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:2]، وأعظم تعبير مختصر في

تعريف التكافل الاجتماعي قوله صلى الله عليه وسلم: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»²، وكذلك حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ"³.

وحت الشريعة على التكافل الاجتماعي لما فيه من قيام كل فرد بمسؤوليته تجاه مجتمعه، وتنمية شعوره بالآخرين كإغاثة الملهوف وسد حاجة المحتاج، وتحقيق التساوي بين الأفراد في الحقوق والواجبات⁴.

¹ أبو زهرة، محمد بن أحمد (1898_1974)، التكافل الاجتماعي في الإسلام، (القاهرة: دار الفكر العربي)، (7).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (6011)، (10/8).

³ المرجع السابق، كتاب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، حديث رقم (6026)، (12/8).

⁴ أبو زهرة، التكافل الاجتماعي في الإسلام، (7).

ثانيا: دلالة التراجم على بعد التكافل الاجتماعي:

كعادته الإمام البخاري في تراجمه، تجده يرتب التراجم ترتيبا موضوعيا، منطلقا من الأحاديث النبوية التي صحّت على شرطه، وذات صلة بالموضوع، وفي هذا الاتجاه هناك أسس اعتمد عليها البخاري لتحقيق بعد التكافل الاجتماعي، وجاءت على النحو الآتي:

الأساس الأول: كفالة الأيتام

إنّ العناية بالأيتام، والعطف عليهم، وسدّ حاجاتهم وعوزهم، والعناية بأموالهم، من الأسس التي أوصى بها الإسلام لتحقيق تكافل المجتمع، فالعناية النفسية والماديّة لليتيم، تعوّضه عن الحرمان الذي أصابه، وتسهم في بناء شخصيته وجعله فردا فاعلا في المجتمع، وفي الترغيب على كفالة اليتيم ورعايته، ترجم البخاري: (بَابُ فَضْلِ مَنْ يَغُولُ يَتِيمًا)، فقد وعد الله كافل اليتيم الذي يقوم بتربيته ويتولى شؤونه، من نفقة وغيرها، بمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، بل وحديث الباب جعل منزلة كافل اليتيم من النبي صلى الله عليه وسلم قدر ما بين السبابة والوسطى¹، فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى»². وعلّق ابن بطال بقوله: "حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة"³.

ولأن الأيتام من أضعف فئات المجتمع، ومصابهم جلال، جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعاون على توفير ما يضمن لهم الحياة الكريمة عبادة يتقرب المؤمن إلى الله، وهذا ما نلمحه في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [النساء: 36] بأن الوصية بالأيتام والمساكين جاءت؛ لضعفهما وقلة النصير⁴.

¹ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (436/10).

² البخاري، صحيح البخاري، باب: فضل من يغول يتيمًا، حديث رقم (6005)، (9/8).

³ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (217/9).

⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (50/5).

الأساس الثاني: كفاية الأرملة والمساكين.

ومن فئات المجتمع التي تشترك مع اليتيم في معنى العجز والضعف، ومن هم بحاجة إلى رعاية شؤونهم، وقضاء حوائجهم، الأرملة والمساكين، فهؤلاء مما أوصى بهم الإسلام ولم يضيع حقهم، لذا نص البخاري على ذلك بترجمتين: (بَابُ السَّاعِي عَلَى الْأُرْمَلَةِ)، و(بَابُ السَّاعِي عَلَى الْمَسْكِينِ) لبيان فضل من يسعى في مصالح الأرملة والمساكين والقيام بشؤونهم من نفقة وغيره¹، والأرملة هي التي لا زوج لها، وقد بين النووي سبب تسميتها بذلك؛ "لما يصيبها من الإرمال أي الفقر بفقد زوجها، وذهاب الزاد، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم من يسعى في مصالحهما وكسب مؤونتهما كالمجاهد في سبيل الله، وكصائم النهار، وقائم الليل، لا يفتر دلالة على الديمومة"²، فعن صفوان بن سليم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "السَّاعِي عَلَى الْأُرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ"³، قال ابن بطال: "فينبغي لكل مؤمن أن يحرص على هذه التجارة التي لا تبور، ويسعى على أرملة أو مسكين لوجه الله تعالى _ فيربح في تجارته درجات المجاهدين، والصائمين، والقائمين من غير تعب ولا نصب، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"⁴.

إن في قضاء حوائج الأرملة وتفقد أحوالها، والعناية بالفقراء والمساكين، ما يحقق التوازن في المجتمع، ويعزز جانب اندماج الفئات المكشوفة، ويسهم في القضاء على البطالة والعوز والتسول، واليوم نجد أكثر من عشرين ألف أرملة في غزة هاشم، استشهاد أزواجهم وأبنائهم وأبائهم وإخوانهم ولا معيل لهم إلا الله، ثم الصالحون المنفقون.

¹ انظر، الزبيدي، عبد المجيد بن عمر، التكافل الاجتماعي المالي في ضوء السنة النبوية، مجلة الدراسات التربوية والإنسانية، كلية التربية، جامعة دمنهور، مج 6، ع2، 2024، (911).

² انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (112/18).

³ البخاري، صحيح البخاري، باب: السَّاعِي عَلَى الْأُرْمَلَةِ، حديث رقم (6006)، (9/8).

⁴ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (218/9).

الأساس الثالث: رعاية حق الجار.

إنَّ حسن الجوار من الأخلاق التي أوصى بها الإسلام، وحثَّ عليها، فهذا جعفر بن طالب رضي الله عنه عندما ذهب إلى ملك الحبشة، وعزّف له دين الإسلام، قال: "أيها الملك، إنا كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار..، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار"¹. فهذه هي الدعائم التي قام عليها المجتمع المسلم، حتى انتشر في بقاع الأرض، فملأها حباً، وعدلاً، وسلاماً.

والبخاري رحمه الله ركّز في تراجمه على مسألة الإحسان إلى الجار، ومن أهمها: (بَابُ الْوَصَاةِ بِالْجَارِ، وَبَابُ إِثْمِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ، وَبَابُ: لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةَ لِحَارَتِهَا، وَبَابُ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَبَابُ حَقِّ الْجَوَارِ فِي قُرْبِ الْأَبْوَابِ)، استنبطها البخاري من أحاديثها، ومن صور الرعاية التي تضمنتها:

1. الوصية بالإحسان إلى الجار.

وفي (بَابُ الْوَصَاةِ بِالْجَارِ) إشارة إلى الوصية بالجار ووجوب الإحسان إليه، فقد ترجم البخاري الباب بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّيْلِينَ إِحْسَانًا وَيَذِ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36]، فالجار ذي القربى هو الذي قرب جواره، أو هو القريب بالنسب، والجار الجنب هو الجار الذي بعد جواره، أو البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة²، واستبعد ابن عاشور أن يكون معنى القربى متعلقاً بالقرب المكاني؛ فحسن الجوار من محامد العرب التي جاء الإسلام لتكميلها والتأكيد عليها في مكارم الأخلاق³.

¹ الذهبي، سير أعلام النبلاء، (432/1).

² انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (24/9).

³ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (50/5).

والترجمة بهذه الآية توجيهه للكافل بابتداء البرّ من محيط الأسرة ليمتد ويتسع إلى محيط الجماعة، وتقديم الجار على صاحب المرافق؛ لقربه الدائم، فتحقيق أبواب التكافل يهدف إلى إقامة المجتمع الإسلامي في جو من التّراحم والتّواد، وتوفير الحياة اللائقة لبني الإنسان¹. وهذا ما بيّنه ابن حجر فعلى ترتيب ما في هذه الآية مراتب البرّ والصلة، فبدأ ببرّ الوالدين، وثنى بذى القربى، وثالث بالجار، ورابع بالصاحب، ومن يتكبر عن الإحسان لأقاربه، وجيرانه، فقد جعله الله صغيراً عنده، وحديث الباب ما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "ما زال يوصيني جبريل بالجارِ حتّى ظننتُ أنّه سيُورثُهُ"²، فلفظ يوصيني يقصد به المبالغة في حق الجار والعناية به، وحق الجار إيصال كافة أوجه الخير إليه، وتفقد أحواله، وكف الأذى والضرر عنه، والجار يشمل المسلم، والكافر، والصدّيق، والعدو، والقريب، والأجنبي، والنافع، والضار، وكل من هؤلاء يعطى حقه بحسب حاله³.

2. التحذير من أذى الجار.

وفي التحذير من أذى الجار وإلحاق الضرر والمهالك به، ترجم البخاري: (بَابُ إِثْمِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) وحديث الباب الذي رواه أبو شريح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "والله لا يؤمنُ والله لا يؤمنُ، والله لا يؤمنُ. قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمنُ جاره بوائقه"⁴، فنفي النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عن مؤذي جاره وتكريره ذلك باليمين ثلاثاً، يشعر بعظم الذنب، ونفي الإيمان يقصد به نفي الكمال لا الوجود، وذلك من باب التعليل والزجر، فلا ينعم كالمؤمن بدخول الجنة من أول وهلة دخول الفائزين، ويكفي المؤذي لجاره ذلك الحرمان⁵.

إنّ في أذية المسلم لجاره، تقطيعاً للصّلات بينهم، وسبباً لانتشار العداوة والبغضاء، فكم من الجيران الذين انقطعت العلاقات بينهم بسبب جدار، أو بضعة أمتار، أو اصطفاق سيارة، وفي اتباع الهدي النبوي الذي

¹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (71/2).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الوصاة بالجار، حديث رقم (6014)، (10/8).

³ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (441/10_442).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا تحقرن جارة لجارتها، حديث رقم (6016)، (10/8).

⁵ انظر، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (441/10).

يدعو إلى الصبر على الأذى، وكظم الغيظ، والعفو، والصفح، حفاظا على وحدة المجتمع المسلم، وسلامة أركانه.

ومن جميل ما نقل عن ابن أبي جمرة في الوصاية بالحق الجار والتحذير من أذاه قوله: "إذا أكد حق الجار مع الحائل بين الشخص وبينه، وأمر بحفظه وإيصال الخير إليه، وكف أسباب الضرر عنه، فينبغي له أن يراعي حق الحافظين للذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل، فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات في مرور الساعات، فقد جاء أنهما يسران بوقوع الحسنات ويحزنان بوقوع السيئات، فينبغي مراعاة جانبهما، وحفظ خواطرهما بالتكثير من عمل الطاعات والمواظبة على اجتناب المعصية، فهما أولى برعاية الحق من كثير من الجيران"¹.

3. التهادي بين الجيران.

وفي الحثّ على معاهدة الجار بالهدية والتودد إليه، ترجم البخاري: (بَابُ: لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا وَلَوْ فَرِسٌ² شَاةٍ³، والحديث كما بين ابن حجر إشارة بالهدية ولو بالشيء اليسير، فهذا يزيد الألفة والمحبة بين الجيران، والنهي بعدم الاحتقار فيه يُحتمل أن يكون للمُعطية فلا يمنعها القليل من الصلة، أو للمعطاة فلا تحتقر من المعروف شيئا حتى لو كان هذا الشيء مما لا ينتفع فيه في الغالب.

واختصت النساء بالنهي؛ كونهن أكثر انفعالا، ولأنهن مصدر المودة والبغضاء؛⁴ والمعهود عادة تواصل النساء أكثر من تواصل الرجال، وفي التوجيهات النبوية مدعاة لسنة التغافل عن أخطاء الجيران، وتقريب وجهات النظر بينهما.

¹ انظر، ابن أبي جمرة، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، (165/4). ابن حجر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (444/10).

² الفرس: عظم قليل اللحم، وهو خُفّ البعير، كالحافر للذابة. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (429/3).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا تحقرن جارة لجارتها، حديث رقم (6017)، (10/8).

⁴ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (445/10).

4. إكرام الجار دلالة على كمال الإيمان.

وفي التحذير من إيذاء الجار وإلحاق الضرر به، ترجم البخاري: (بَاب: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ) وأحاديثها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ"¹، وحديث أبي شريح العدوي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ"²، ودلالاتهما: أن من آمن بالله واليوم الآخر والتزم بشعائر الإسلام فعليه أن يلزم هذه الأخلاق الحسنة من إكرام الجار، ودفع أذاه، فالإحسان للجار والقيام بحقه ما هو إلا من مكارم الأخلاق³.

وما أوحى مجتمعاتنا الإسلامية لتمثل مثل هذه المكارم، والالتزام بهذه الأخلاقيات، التي تحقق الأمن المجتمعي، وتنتشر المحبة بين أفرادها.

5. الأولوية بالحق للجار الأقرب.

وجاء في (بَابُ حَقِّ الْجَوَارِ فِي قُرْبِ الْأَبْوَابِ) تقديم الجار الأقرب بالحق، والحكمة في ذلك: "أن الأقرب يرى ما يدخل بيت جاره من هدية وغيرها، فيتشوّف لها بخلاف الأبعد، وأن الأقرب أسرع إجابة لما يقع لجاره من المهمات، ولا سيما في أوقات الغفلة"⁴. فمراعاة لمشاعره كونه مطلعاً على أحوال جاره، والأسبق بمعرفة ما يستجد عليه من أمور، وفي المقابل فإن تقديم الجار البعيد ومشاركته، وتهميش الأقرب، تظهر بعض الآثار النفسية السيئة على الجار الأقرب كالحقد، بل وقد يدفع الأمر به إلى الحسد والخصومة.

واختلف في حدود الجار، فقليل المجاور لبابك، إلى الأربعة دارات، واستنبط أبو جمره من حديث الباب الذي رواه عائشة رضي الله عنها: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَأَلِي أَيُّهُمَا أُهْدِي؟ قَالَ: إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا"⁵

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا تحقرن جارة لجارتها، حديث رقم (6018)، (11/8).

² المرجع السابق، حديث رقم (6019)، (11/8).

³ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (286_284/1).

⁴ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (447/10).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: حقّ الجوار في قُرْبِ الْأَبْوَابِ، حديث رقم (6020)، (11/8).

أن الإهداء إلى الأقرب يحمل على الندب، وليس الوجوب، بدليل أن الهدية في الأصل ليست واجبة، إنما مستحبة¹.

الأساس الرابع: حق الضيف.

ومن أبواب التكافل الاجتماعي إكرام الضيف، فهو من الأخلاق الحميدة التي جاء بها الإسلام وحث عليها؛ لما له من أهمية في الحفاظ على وحدة المجتمع والتآلف بين أفرادها، وهو من صور التعاون على البر، وخصال الخير، وبهذا جاءت تراجم كتاب الأدب في الدعوة للقيام بحق الضيف، والتحذير من التقصير في حقه، وجاء ذلك في خمسة أبواب: (بَابُ حَقِّ الضَّيْفِ)، و (بَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَخِدْمَتِهِ إِيَّاهُ بِنَفْسِهِ)، و(بَابُ صُنْعِ الطَّعَامِ وَالتَّكْلِيفِ لِلضَّيْفِ)، و(بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الغَضَبِ وَالجَزَعِ عِنْدَ الضَّيْفِ)، و(بَابُ قَوْلِ الضَّيْفِ لِصَاحِبِهِ لَا آكُلُ حَتَّى تَأْكُلَ).

1. باب إكرام الضيف، وخدمته إياه بنفسه.

وجاء في ترجمة: (بَابُ حَقِّ الضَّيْفِ) تأكيد على إيتاء الضيف حقه، والندب إلى إكرامه وإتحافه، ويؤيده حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، مرفوعا: "وإنَّ لِزُورِكَ عَلَيْكَ حَقًّا"²، وقد نظم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحق زمانيا في ثلاثة أيام، وجعل كل ذلك صدقة يثاب عليها، وكذلك ترجم البخاري: (بَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَخِدْمَتِهِ إِيَّاهُ بِنَفْسِهِ) وأورده تحتها حديث الباب، الذي رواه أبو شريح الكعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمِ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ يَوْمَ وَلَيْلَةَ وَالضِّيَافَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَوَى عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ"³، فنحمل الثلاثة أيام إن كان الضيف مقيما، فإن لم يكن مقيما فحقه يوم وليلة⁴.

¹ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (447/10).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: حق الضيف، حديث رقم (6134)، (31/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، حديث رقم (6135)، (32/8).

⁴ انظر: سويفي، محمد عبد الحميد محمد، أحكام الضيافة في الفقه الإسلامي، مجلة كلية الشريعة والقانون بأسبوط، جامعة الأزهر_ كلية الشريعة والقانون بأسبوط، (ع20، ج1)، (2008)، (873).

وذهب ابن الملقن إلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم إقامة الضيف زمانيا إلى ثلاث أيام، الأول: حق وواجب، فيكرمه ويتحفه، والثاني: يقدم له مما هو موجود في بيته، وأما ما زاد عن اليوم الثالث فله الخيار إما أن يستمر في ضيافته، وإما أن يمسه، ويعتبر ذلك له صدقة.

وحديث أبي شريح يبيّن أنّه لا يجوز للضيف أن يزيد في إقامته على الثلاثة أيام إن كان المضيف كارها لذلك؛ لئلا يخرج من يقيم عنده ويضيّق عليه، فيكون سبب إثمه بعد أن كان مأجورا¹.

وفي ترجمة البخاري: (بَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَخِدْمَتِهِ إِيَّاهُ بِنَفْسِهِ)، دليل استحباب إكرام الضيف واستحباب قيام المضيف بخدمة الضيف بنفسه، وهو من عطف الخاص على العام، فهذا من حسن استقبال الضيف، وإكرامه، ومما يدخل السرور عليه².

2. النهي عن التكلف للضيف

وفي النهي عن التكلف في خدمة الضيف، ترجم البخاري: (بَابُ صُنْعِ الطَّعَامِ وَالتَّكْلِيفِ لِلضَّيْفِ)، وأورد حديث ابن وهب رضي الله عنه، قال: "أَخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَحْوَكُ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ فَأَكُلَ"³، وقوله (فأكل) موضع الدلالة بعدم استبعاد أنّه أكل بعد أن كان صائما خشية التكلف⁴.

فعلى المسلم إن كان فقيرا أن يقدم لضيفه ما هو بوسعه وقدرته ولا يزيد، فلا يتكلف بما ليس عنده، ويوقع نفسه في الحرج، أمّا إن كان غنيا مستطيعا فيجوز له أن يتكلف لضيفه، وذكر القاضي عياض أنّه روى

¹ انظر، ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (524_523/28).

² انظر: الكاندهلوي، محمد زكريا بن يحيى (1402هـ)، الأبواب والتراجم لصحيح البخاري، تحقيق: ولي الدين بن تقي الدين الندوي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت_ لبنان، (ط1433/1_هـ2012م)، (295/6).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء، (1968)، (38/3).

⁴ انظر: الكاندهلوي، الأبواب والتراجم لصحيح البخاري، (296/6).

عن السلف كراهة التكلف للضيف؛ فقد يكون الضيف جائعا أو مستعجلا فيضره انتظار ما يتكلف له، فأما بما قدر عليه فمن السنن، فقد ذبح إبراهيم عليه السلام لأضيافه عجلاً.¹

3. النهي عن الغضب والجزع عند الضيف.

وفي النهي عن الغضب والضجر أمام الضيف، ترجم البخاري: (باب ما يُكْرَهُ مِنَ الْعُضْبِ وَالْجَزَعِ عِنْدَ الضَّيْفِ)، وعليه فلا بد من استقبال الضيف باليشاشة والترحيب، واختيار محاسن الألفاظ ومكارم الأخلاق معه؛ حتى لا يشعر أن هذا الغضب بسببه، فتضيق نفسه، ويشعر بالوحشة وهو من آداب الإسلام، ومما يثبت المحبة، ويزيد الألفة، وحديث الباب خير شاهد على ذلك، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ تَضَيَّفَ رَهْطًا، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: دُونَكَ أَضْيَافَكَ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَفْرُغْ مِنْ قِرَاهِمُ قَبْلَ أَنْ أَجِيءَ فَنُطَلِّقَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَأَتَاهُمُ بِمَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: اطْعَمُوا، فَقَالُوا: أَيْنَ رَبُّ مَنْزِلِنَا؟ قَالَ: اطْعَمُوا، قَالُوا: مَا نَحْنُ بِأَكْلِينَ حَتَّى يَجِيءَ رَبُّ مَنْزِلِنَا، قَالَ: اقْبَلُوا عَنَّا قِرَاكُمُ، فَإِنَّهُ إِنْ جَاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا لَنَلْقَيْنَ مِنْهُ، فَأَبَوْا فَعَرَفْتُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَلَيَّ، فَلَمَّا جَاءَ تَنَحَّيْتُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَسَكَتُ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَسَكَتُ، فَقَالَ: يَا غُنْبَرُ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَوْتِي لَمَّا جِئْتُ، فَحَرَجْتُ فَقُلْتُ: سَلْ أَضْيَافَكَ، فَقَالُوا: صَدَقَ، أَتَانَا بِهِ، قَالَ: فَإِنَّمَا انْتَهَرْتُمُونِي وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ الْأَخْرُونَ: وَاللَّهِ لَا نَطْعَمُهُ حَتَّى تَطْعَمَهُ، قَالَ: لَمْ أَرْ فِي الشَّرِّ كَاللَّيْلَةِ، وَيُلَکُمْ مَا أَنْتُمْ، لِمَ لَا تَقْبَلُونَ عَنَّا قِرَاكُمُ، هَاتِ طَعَامَكَ، فَجَاءَهُ فَوَضَعَ يَدَهُ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ الْأُولَى لِلشَّيْطَانِ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا² فغضب أبو بكر؛ لما رأى من تقصير ابنه وأهله في تأخير عشائهم، وحلف أن لا يأكل، فقالوا: والله، لا نأكل دونك، فحنث بيمينه وترك الغضب، وأكل مع ضيفه؛ لرغبتهم الأكل معه وتأنيسا لهم³. أخذوا فيما رواه

¹ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (511/6).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُكْرَهُ مِنَ الْعُضْبِ وَالْجَزَعِ عِنْدَ الضَّيْفِ، حديث رقم (6140)، (33/8).

³ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (531_530/28).

عبد الرحمن بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفَّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ"¹.

4. مبادرة الضيف إلى الأكل إذا دعي للطعام.

وترجم البخاري تنمة للباب السابق (بَابُ قَوْلِ الضَّيْفِ لِصَاحِبِهِ لَا أَكُلُ حَتَّى تَأْكُلَ)؛ لبيان جواز مخالفة الضيف لصاحب المنزل في تأخير الطعام، أو ما شابه ذلك، إذا رأى في ذلك مصلحة، فامتناع ضيف أبي بكر عن الأكل دونه كان خشية أن يفرغ الطعام قبل مجيئه²، بدليل أن أبا بكر لم ينكر على ضيفه يمينهم بعدم الأكل دونه، وحدث عن يمينه إثارة لرضاهم، وإلا فالأصل ألا يمتنع الضيف عما قدم له من قراه، فلا يجرح المضيف بالرفض³.

الأساس الخامس: توقير الكبير.

ومن الآداب التي أوصى بها الإسلام وحث عليها، توقير الكبير واحترامه، وتوفير الرعاية له، والعناية به ماديا ونفسيًا، وتقديمه على غيره من الناس، فشعور الكبير باهتمام من حوله به، ورعايتهم له، مما يدخل السرور عليه، ويجعله أكثر اتصالا بمن حوله، ومن صور ذلك ما جاء في كتاب الأدب : (بَابُ إِكْرَامِ الْكَبِيرِ وَيَبْدَأُ الْأَكْبَرَ بِالْكَلَامِ وَالسُّؤَالِ) أي تقديم الكبير في الكلام والسؤال، عند استواء علمه مع الصغير؛ تقديرا له، لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن في الحديث الذي رواه رافع بن خديج وسهل بن أبي حنمة رضي الله عنهما: "كَبِّرِ الْكَبِيرَ"⁴؛ لابتدائه بالكلام في حضرة من هو أكبر منه. أما إن كان الصغير يعلم ما لا يعلمه الكبير فلا بأس أن يبدأ هو بالكلام، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم، عندما سأل أصحابه عن الشجرة التي تشبه المؤمن⁵، وكان فيهم ابن عمر ومن هو دونه في السن، لم يخصص

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: من لم يسأل الإمامة أعانه الله عليها، حديث رقم (7146)، (63/9).

² المقدسي، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، الراميني ثم الصالحي الحنبلي (٧٦٣هـ)، الآداب الشرعية والمنح المرعية (188/3).

³ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (534/28).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: كَرَامِ الْكَبِيرِ وَيَبْدَأُ الْأَكْبَرَ بِالْكَلَامِ وَالسُّؤَالِ، حديث رقم (6142)، (34/8).

⁵ "أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم...فوقع في نفسي النخلة، فكرهت أن أتكلم وثم أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلم قال النبي صلى الله عليه وسلم: هي النخلة، فلما خرجت مع أبي قلت: يا أبتاه، وقع في نفسي النخلة، قال: ما منعك أن تقولها؟ لو كنت قلتها كان أحب إلي من كذا وكذا، قال: ما منعتني إلا أنني لم أرك ولا أبا بكر تكلمنا فكرهت". انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (باب) إِكْرَامِ الْكَبِيرِ وَيَبْدَأُ الْأَكْبَرَ بِالْكَلَامِ وَالسُّؤَالِ، حديث رقم (6144)، (34/8).

الإجابة لكبار السنّ منهم، إضافة إلى أن عمر رضي الله عنه طلب من ابنه أنه لو تحدث وهو في حضرة الكبار والصغار، وعمر رضي الله عنه يستحيل أن يخالف آداب الإسلام¹

الأساس السادس: الرحمة بالأطفال، وملاعبتهم.

والرحمة بالصغار خلق نبويّ، فقد كان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالأطفال، فلم يعنف يوماً طفلاً أو يضربه، بل كان صلى الله عليه وسلم يعطف عليهم، ويسعى لكل ما يكون سبباً في إدخال السرور عليهم، ومن مظاهر الرحمة بهم ما جاء في (بَابُ مَنْ تَرَكَ صَبِيَّةً غَيْرَهُ حَتَّى تَلْعَبَ بِهِ أَوْ قَبَّلَهَا أَوْ مَارَحَهَا) في الحنو على الأطفال واللعب معهم ومداعبتهم، فاللعب معهم يدخل السرور عليهم، ويحسن من مزاجهم، وينمي قدراتهم².

وفيه استحباب تقبيل الأطفال من غير شهوة شفقة ورحمة بهم، وممازحتهم إيناساً لهم، وفي الباب جواز المزاح مع طفلة الغير التي لا يشتهي مثلها لصغرها ومداعبتها، وتقبيلها، وإن لم تكن منه بذات محرم، ولقد كانت أم خالد تلعب وهي صبية بمكان خاتم النبوة، ولفظ التقبيل لم يرد في حديث الباب، وإنما هو استدلال من البخاري بالقياس على جواز مداعبتها³.

وبهذه الآداب، تتضح شمولية الإسلام ودقته، وسعيه لإقامة العلاقة بين الناس على أسس متينة، تحقق الألفة والترابط بين أفرادها.

المبحث الثالث: تحقيق التراحم بين أفراد المجتمع.

وبعد أن بيّن البخاري أهمية بعد التكافل الاجتماعي في حفظ العلاقات بين أفراد المجتمع، انطلق لإبراز دور الرحمة في ذلك، وأشار لذلك في ثلاثة أبواب: (بَابُ: جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةً جُزْءٍ)، و (بَابُ تَشْمِيَتِ الْعَاظِسِ إِذَا حَمَدَ اللَّهَ)، و (بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ).

¹ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (538/28).

² انظر: أبو زناد، خليل، اللعب يعيد فرح الطفولة وينعش الذهن والجسد، صحيفة الغد الأردنية، ع524، (29). الحيارى، محمود، التربية الوجدانية للطفل: رؤية إسلامية، بحث محكم، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مج 5، ع4، 2009، (365).

³ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (291_290/28).

إن مفهوم الرحمة كما بيّنه الأصفهاني ينطوي على معنيين: إمّا الرقة والعطف، وإمّا الإحسان، فأودع سبحانه في طبائع خلقه الرقة والعطف، وتقرّد جلّ وعلا بالإحسان¹، وفي ترجمة البخاري: (بَاب: جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ) بيان لسعة رحمة الله وعظيم إحسانه بخلقه، فإذا رحمة واحدة وسعت الخلق جميعا في أرزاقهم، وأسباب معاشهم، وشملت مؤمنهم وكافرهم، فكيف بالمئة التي ادّخرها سبحانه للأخرة؟²، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخُلُقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَادِّهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ"³.

ويرى الكرمانى أنّ الحصر بعدد مائة يقصد منه التمثيل؛ تسهيلا للفهم وتكثيرا لما عنده سبحانه، فقدرته سبحانه المتعلقة بإيصال الخير غير متناهية⁴، ومن صور الرحمة بر الوالدين، وصلة الرحم، وكفالة اليتيم، والعطف على الفقراء والمساكين، وذوي الحاجات.

إنّ خلق الرحمة يعزّز الشعور بالآخرين فهي رقة في القلب، يتبعها ألم عند الشعور بأن الآخر يتألم، ويتبعها السرور عند الشعور بأن الآخر مسرورا، فهي مشاركة الغير في أفراحه وأحزانه، وهي درجات، فقد يشعر الراحم بمقدار شعور من يرحمه، وقد يزيد عنه درجة أو يقل، وقد تكون بكلمة طيبة، أو دمعة صادقة، أو بمعونة أو صدقة، أو مساعدة، فخلق الرحمة يحرض الراحم على أي شيء قد ينفع مستحقها؛ ليدفعه إليه⁵.

وكذلك من صور الرحمة تشميت العاطس، بل هو حق له على أخيه المسلم، وقد بيّن البخاري ضابط هذا الحق، فترجم: (بَابُ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ إِذَا حَمَدَ اللَّهَ)، بأنّ الأمر بالتشميت يكون لمن حمد الله عند عطاسه، أما من لم يحمد الله فلا يشمت، فعن البراء رضي الله عنه، قال: "أَمَرَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعِ

¹ انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (347).

² انظر: للحياي، الأبعاد التربوية المستنبطة من أحاديث مفردة الرحمة الواردة في صحيح البخاري، (107).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: جعل الله الرحمة مائة جزء، حديث رقم (6000)، (8/8).

⁴ الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (165/21).

⁵ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (7_5/2).

وَنَهَانَا عَنْ سَنْعٍ: أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْحِنَاةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ¹، ظاهر الحديث العموم بأن التشميت يكون لكل عاطس، وحقيقته الخصوص أن التشميت لا يكون إلا لمن حمد الله، وتقييد البخاري ترجمته بالحمد يدل على ذلك، فهو إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَحَقَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمْعُهُ أَنْ يُشَمَّتَهُ"²، وكما ترجم البخاري: (بَابٌ: لَا يُشَمَّتُ الْعَاطِسُ إِذَا لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ). للتأكيد على أن العاطس إذا لم يحمد الله فلا يُشَمَّت، والأمر بالتشميت سنة وليس بواجب، ومن باب الأمر بالمعروف فيستحب تذكير من عطس ولم يحمد الله؛ حتى يشمَّت³.

والتشميت: "هو الدعاء له بالخير، وأما اشتقاقه من الشوامت أي القوائم، ففيه الدعاء للعاطس بالثبات على طاعة الله، وإزالة شماتة الأعداء عنه"⁴. وقيل التشميت فهو من الدعاء له بالبركة بأن يكون على سمت وهدي حسن. ومن جميل ما ذكره ابن العربي في معناها: أن العطاس ينحل به كل عضو في رأس الإنسان، وما يتصل به من العنق ونحوه، فالتشميت رجوع كل عضو إلى هيئته وسمته التي كان عليها. وأما التشميت فهي حفظ الله قوائمه من خروجها عن الاعتدال⁵.

وفي بيان ما يقوله المشميت للعاطس، ترجم البخاري: (بَابٌ: إِذَا عَطَسَ كَيْفَ يُشَمَّتُ)، فالتشميت المطلوب شرعا هو بالقول: "يرحمك الله)، أو يعم بالتشميت، فيقول (يرحمنا الله وإياكم). وأما الرد على المشميت فيكون بقول العاطس (يهديكم الله ويصلح بالكم) أو (يغفر الله لنا ولكم)⁶. وهذا ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِأَلْسِنَتِكُمْ"⁷.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: تشميت العاطس إذا حمد الله، حديث رقم (6222)، (49/8).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُسْتَحَبُّ مِنَ الْعَطَاسِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ النَّتَائِبِ، حديث رقم (6223)، (49/8).

³ انظر: الخولي، الأدب النبوي، (165). انظر: النووي، الأذكار، (446_443).

⁴ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (2/499_500).

⁵ انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (19/219_221).

⁶ انظر: النووي، الأذكار، (442).

⁷ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: إذا عطس كيف يشمَّت، حديث رقم (6224)، (49/8).

وإذا ما تكرر منه العطاس أكثر من ثلاث فإنه يشمت في الأولى والثانية، لعموم الأمر بالتشميت، ويقال له في الثالثة بأنه مزكوم، ويستحب الدعاء له بالعافية¹. وقد نقل عن العيني، قوله: ثلاث مما يثبت لك الود في صدر أخيك: وذكر منها: تشميت العطاس...²

بل إن الرحمة مفهوم واسع تمتد لتشمل البهائم، لذا ترجم البخاري: "بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ"؛ ليدل دلالة واضحة أن كل مسلم مسؤول عما استرعاه وملكه أو لم يملكه من إنسان وحيوان، وأورد تحتها حديث النعمان بن البشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى"³، إشارة إلى تعظيم حق المؤمنين، والحض على معاونتهم، والرفق بهم، "فذلك دلالة على كمال الإيمان، فمن لا يرحم الناس بالعطف عليهم والرفقة بهم، لا يفوز بالرحمة الكاملة، ولا يكون من السابقين إلى رحمته سبحانه⁴، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ"⁵.

وتتجلى آثار الرحمة في مغفرة الله ورضوانه، فقد غفر الله لمن نزل البئر وسقى الكلب بخرقه، بل وكتب الأجر لكل من يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو بهيمة، وليس ذلك فحسب، بل إن من الرحمة بالبهائم عدم تكليفها فوق طاقتها بتخفيف حملها، وعدم ضربها، وعدم تسخيرها في غير أوقات السخرة، فقد نهى دين الرحمة عن تكليف العبيد الخدمة في الليل، وفي هذا أيضاً يدخل الدواب والبهائم، ومن أحاديث الباب التي أوردها تحت الترجمة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: " قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمَحَمَّدًا وَلَا تَرَحَّمْ مَعَنَا أَحَدًا فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: لَقَدْ حَجَرْتَ وَأَسَعًا"⁶، ما يدل على إنكاره صلى الله عليه وسلم على الأعرابي الذي خصّ الدعاء بالرحمة لنفسه، فبخل بها على الخلق، في المقابل أثنى الله على من دعا

¹ انظر: النووي، الأذكار، (445_446).

² انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (187/13).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (6011)، (10/8).

⁴ انظر: الملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (3099/7).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (6013)، (10/8).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (6010)، (10/8).

لنفسه وإخوانه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر:10] وفيه الحثُّ على الاقتداء بهم¹.

وفيما سبق ما دلَّ على دور الرِّحمة في الحفاظ على تماسك المجتمع والتجاوز عن الإساءة، والتحفيز نحو الإحسان في التراحم، وعدم الندم تجاه من قابلناه بالرِّحمة وإن تنكَّر لذلك.

المبحث الرابع: تحقيق التعاون بين أفراد المجتمع.

يعدّ التعاون من الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمعات، وفي الدعوة إلى ترسيخ مبدأ التعاون بين المؤمنين، ترجم البخاري: "بَابُ تَعَاوُنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا"؛ لما له من أثر في تعاضد المؤمنين، وزيادة الألفة بينهم، وتيسير أعمالهم، وقضاء حوائجهم، ففي حديث الباب ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، تُمْ شَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ"² وفيه بيان للصورة التي يجب أن يكون عليها المؤمنون من شدة التلاحم والترابط، وعلق ابن بطال بقوله: "تعاون المؤمنين بعضهم بعضا في أمور الدنيا والآخرة مندوب إليه بهذا الحديث، وذلك من مكارم الأخلاق"³، وفي قوله تعالى: [أَمْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاتِّخَاذِ التَّوَاكُلِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى خُلُقًا لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لِمَا لَهُ مِنْ عَظِيمٍ ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] الأثر في توحيدهم ونصرتهم، ونهي عن التعاون على الإثم وظلم الناس⁴.

وقد راعى البخاري في تراجمه أن يشير إلى قسمي التعاون: المادي والمعنوي، لأنّ التعاون لا يقتصر فقط على الجوانب الماديّة، بل يضم أيضا الجوانب المعنوية، فقد يكون بالفكر، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدال على الخير كفاعله⁵. وهذا ما أشار إليه صاحب الضلال في تفسيره لقوله تعالى:

¹ انظر: ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (316_315/28).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: تَعَاوُنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حديث رقم (6026)، (12/8).

³ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (227/9).

⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (88 /6).

⁵ انظر: بيتفور، التكافل الاجتماعي: أنواعه وأساسه التربوية في القرآن الكريم، (293_294).

﴿وَالَّذِينَ نَبَّوْهُ وَالَّذِينَ لَا يَمْنَنَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] مبيناً صور

التعاون التي كان عليها المسلمون، من بذل المال، والعاطفة، والجهد، والحياة عند الاقتضاء، فكان استقبال الأنصار للمهاجرين حدثاً لم تعرف البشرية بتاريخها مثله¹.

ولمّا كان التعاون لا يقتصر على الجانب المادي فقط، ترجم البخاري: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا كِفْلًا). في استحباب الشفاعة الحسنة، أي المنضبطة بما أذن فيه الشرع، فالشفاعة الحسنة هي أن يتوسط إنسان عند شخص لآخر في جلب نفع له، أو دفع ضرر عنه²، كرفع الظلم عن المظلوم، والعتو فيما أجازته الشرع، والإصلاح بين المتخاصمين، وإيصال الحق لصاحبه، فصاحبها مأجور وهي من باب التعاون على البر والتقوى. أما الشفاعة السيئة فلا تجوز، فهي من باب التعاون على الإثم والعدوان، كالشفاعة في حد من حدود الله، أو اعتداء على حق من حقوق الناس³.

وعليه فإنّ الشفاعة الحسنة تبين مظهر من مظاهر الجسد الواحد الذي يجب أن يكون عليه أخوة الإيمان، بحيث يشعر بعضهم ببعض في أحزانهم وأفراحهم، فيتعاونون ويتساندون⁴، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "اشْفَعُوا فَلْتُؤَجَّرُوا، وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ"⁵.

المبحث الخامس: كف الأذى عن المسلمين.

تتعدد أنواع الإيذاء وتتفاوت على الرغم من عموم النهي عنها جميعاً؛ لما تحدثه من أضرار على الفرد المسلم، وما تسببه من الفرقة والنزاع، فعلامة المسلم الحق هي الكفّ عن أذى المسلمين، لأنّ "إيذاء المسلم من نقصان الإسلام، وهو ضربان: إيذاء ظاهر بالجوارح كأخذ المال بنحو سرقة أو نهب، وإيذاء باطن

¹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (392_391/6).

² انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (31_27/3).

³ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (73_70/2).

⁴ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (209_208/2).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى (مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا * كِفْلًا)، حديث رقم (6028)، (12/8).

كالحسد والغل والبغض والكبر وسوء الظن والقسوة ونحو ذلك، فكله مضر بالمسلم مؤذٍ له وقد أمر الشرع بكف النوعين من الإيذاء وهلك بذلك خلق كثير¹.

ومن خلال تراجم البخاري في تقرير كف الأذى، بدا على نوعين: كف الأذى النفسي ووكف الأذى المادي، وبيانهما كالآتي:

النوع الأول: كف الأذى النفسي:

في بيان البخاري لمعالم كف الأذى النفسي، أبدع كثيرا سيما وأنه استنبطها من الهدى النبوي، حفاظا على تماسك المجتمع، ووحدة الصف، وسلامة النفس وتقديرها، وما ذلك إلا أن أثر الأذى النفسي قد يوازي أثر الأذى الجسدي بل يعظمه، ومن معالم ما ورد فيه:

1. الحث على الكلمة الطيبة، واجتناب الفواحش.

لقد أرسى الإسلام قواعد ضبط اللسان ومراقبته، فدعا الناس إلى الكلمة الطيبة في معاملتهم مع بعضهم البعض، ونهى عن كل ما هو خبيث يفسد العلاقة بينهم، في سبيل تحقيق مقصد الأخوة بينهم، لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:53].

وبهذا توجهت عناية البخاري في الحث على الكلمة الطيبة واجتناب ما فحش من الكلام؛ لما لها تأثير كبير في النفوس فهي من أسباب استمالة القلوب؛ لأنها سبب انشراح الصدر، وإدخال السرور على الناس وإيناسهم، كما أنها من أسباب التآلف بين المؤمنين، فبها تطفأ نيران الغضب، وتنتزع الخصومة والعداوة، ويسود جو الحب والمودة²، وفي الدعوة إليها ترجم البخاري: (بَابُ طَيْبِ الْكَلَامِ)، لبيان أثر وعظم أجر الكلمة الطيبة، فهي من أفعال البر التي يتقرب بها العبد إلى الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

¹ المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي القاهري (ت 1031هـ)، فيض القدير، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر، (ط1، 1306)، (271/6). انظر: الحقباني، مشاعل بنت سعد، الإيذاء في العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم، بحث محكم، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة_ كلية دار العلوم، ع121، 2019، (655).

² انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (552/4).

صلى الله عليه وسلم، قال: "وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ"¹، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالصدقة، كما ذكر ابن بطال أن الصدقة بالمال تدخل السرور على نفس المتصدق فيفرح بها، وكذلك الكلمة الطيبة فإنها تدخل السرور على النفس، وتذهب ما في القلوب من بغضاء، قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34] فجعل بكرمه سبحانه الدفع بالقول كالدفع بالفعل²، وهذا ما جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه المرفوع: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"³.

ومن صور الكلمة الطيبة، ما جاء في ترجمة: (بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ مَرْحَبًا) وفيها الحثُّ على مخاطبة الناس بما يبعث السرور في نفوسهم، ويحمل معاني الحب والأنس من المخاطب، كقوله صلى الله عليه وسلم: "مرحبا" عند استقبال أهله وضيوفه، وقوله لفاطمة رضي الله عنها، فيما روته عائشة رضي الله عنها، مرفوعا: "مَرْحَبًا بِابْنَتِي"⁴، ولفظ (مرحبا) تحمل معنى الدعاء بالرحب والسعة، وقيل معناها: "لاقيت سعة لا ضيقا"⁵ والعرب تقولها بمعنى: "أي لقيت أهلا كأهلك، وسهلت عليك أمورك"⁶.

ولما كان صلى الله عليه وسلم يأمر بالكلمة الطيبة، وكل ما يدخل السرور إلى قلوب الناس، فكان ينهى عن كل قول فاحش وبذيء، وفي بيان صفته صلى الله عليه وسلم، والتأسي بأخلاقه، ترجم البخاري: (بَابٌ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا مُتَّحِشًا)، فقد كان صلى الله عليه وسلم أكمل الناس وأحسنهم خلقا، وأبعدهم عن الفحش قولاً وفعلاً، فقد وصفه الله تعالى بأجمل الأوصاف، في قوله جلَّ في علاه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4].

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَنْ أَخَذَ بِالزُّكَّابِ وَنَحْوِهِ، حديث رقم (2989)، (56/4).

² ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (225/9).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: طيب الكلام، حديث رقم (6023)، (11/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب: مَنْ نَاجَى بَيْنَ يَدَيْ النَّاسِ وَمَنْ لَمْ يُخْبِرْ بِبَيْتِ صَاحِبِهِ فَإِذَا مَاتَ أَخْبَرَ بِهِ، حديث رقم (6285)، (64/8).

⁵ العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (200/22).

⁶ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (335_334/9).

والفحش كما عرّفه العيني: كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح ويدخل في القول والفعل والصفة، وهو في القول أكثر، والمتفحش بالتشديد الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن هذه الأخلاق الذميمة، ويحذّر منها، ولما لم يكن الفحش فيه صلى الله عليه وسلم جبلياً ولا مكتسباً لم يكن يقابل من يسيء إليه أو يسبه بمثل فعله بل كان ممثلاً قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199]¹. وفي ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: "أَنَّ يَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا السَّأْمُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمْ اللَّهُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفِقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ"²، فإذا كان هذا قوله لعائشة رضي عنها وهي تخاطب اليهود، فكيف بمن يتجرأ على إخوانه من المسلمين، فيتعرض لهم بأشد عبارات الطعن، والقذف في الأعراض، والرمي بالفسوق والكفر؟، وكيف بمن يطعن بما يدافع عن المسجد الأقصى المبارك بماله ونفسه!

2. اجتناب السباب واللعان.

وفي المقابل فإنّ البخاري ترجم بما ينهى عن الذم والسب واللعان: (بَابُ مَا يُنْهَى مِنَ السَّبَابِ وَاللَّعْنِ)، لما فيهما من تمزيق وحدة المجتمع ونشر ما يؤدي إلى نخر الأخوة الإيمانية، لأنّ الإسلام يسعى إلى إقامة العلاقات بين المسلمين على أسس الأخوة والتراحم، فجعل الاعتداء على الأعراض حرام، كحرمة الدماء والأموال، وهذا ما أكده البخاري بحديث الباب الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، المرفوع: "سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"³، وهذا يدلّ على أنّ التكلم في أعراض المسلمين يعد فسوقاً؛ لأنّ فيه خروج عن طاعة الله بانتهاك ما حرّم، وما له أكبر الأثر في بثّ الفرقة والبغضة بين المسلمين، وشتات

¹ انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (116/22).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، (6030)، (12/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُنْهَى مِنَ السَّبَابِ وَاللَّعْنِ، حديث رقم (6044)، (15/8).

وحدثهم. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " وقتاله كفر"، فيه من الزجر والحدز للمسلم على أن يقدم على مثل ذلك، أي قتاله كالكفر فليحذر من ذلك، وهي على سبيل التشبيه¹.

أما عن قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: "إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ"²، عندما سبَّ رجلاً أمه أعجمية، ففيه ذم السبِّ، وأنه من بقايا الجاهلية المنهي عنها، لما فيها من احتقار المسلم.

ولذلك فقد نهى النبي عن الغضب وحرَّ منه؛ لأنه من نزغات الشيطان، ويخرج الإنسان عن اعتداله، ويدفع إلى الشرور والمفاسد بين الناس، فعندما استب رجلان، فغضب أحدهما حتى احمرَّ وجهه، أرشد صلى الله عليه وسلم من أصابه الغضب لقول: " أعوذ بالله من الشيطان"³، ليسكن غضبه. ويكفي أن الله رفع الله خبر تعيين ليلة القدر عن عباده، عقوبة لتلاحي الرجلين في حضرة رسول الله⁴.

3. اجتناب السخرية والتنازب بالألقاب.

ولم يكتف البخاري بالتحذير من الكلام الفاحش واجتناب السباب واللعان، بل خصص أبواباً في التحذير من السخرية والتنازب بالألقاب، فهي من الظلم الفاحش الذي يرتكبه المسلم بحق أخيه المسلم، فالأصل في العلاقات بين المؤمنين أن تقوم على الاحترام والتقدير، وأما السخرية فتهدف إلى الانتقاص من الآخرين والاستهزاء بهم، فتترك في النفس ألماً، وفي الصدر ضيقاً، وتؤدي إلى تقطيع الروابط الاجتماعية المبنية على التآخي والتواد، فيحل محلها العداوة والبغضاء، وتولد شعوراً بالانتقام⁵.

فاحتقار المسلم لأخيه، في هيئته، وخلقه، وكلامه، ومشيته، ولباسه، كله من الاعتداء الذي حرمه الشرع، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "قَارَنَ اللَّهُ حَرَمَ عَلَيكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

¹ ابن بطلال، شرح صحيح البخاري لابن بطلال، (241/9).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُنهى مِنَ السَّبَابِ وَاللَّعْنِ، (6050)، (16/8).

³ عن سليمان بن الصرد: "اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَأَشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ، فَاذْهَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ: أَتَرَى بِي بَأْسًا، أَمْجُنُونًا أَنَا، أَذْهَبُ". البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُنهى مِنَ السَّبَابِ وَاللَّعْنِ، حديث رقم (6048)، (15/8).

⁴ ابن بطلال، شرح صحيح البخاري لابن بطلال، (241/9).

⁵ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (230_234/2).

وَأَعْرَاضَكُمْ¹، فالخوض في أعراض المؤمنين، محرم كحرمة دمائهم وأموالهم، والعرض: موضع المدح والذم من الشخص، وهو أعم من أن يكون في نفسه أو نسبه أو حسبه².

وفي النهي عن الاستهزاء والسخرية، وما يتضمن معناه، ترجم البخاري: (بابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُونَهُمْ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: 11]، وفي الآية ثلاثة محاذير تهدم العلاقات الاجتماعية، الأولى: تجنب السخرية بالآخرين، والاستهزاء بهم. والثانية: تجنب اللمز، وهو عيب الآخرين والطنن بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْرُقُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، فمن حق المسلم على أخيه أن يستر عيوبه، وإذا أراد نصحه لنقيصة تقع منه فينصحه بالسّر، ولا يفضحه بين الخلائق، فذلك مما يورث العداوة والبغضاء بينهم³، ومن جميل ما أورده القرطبي في تأكيده على حرمة الأخوة التي تجمع المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْرُقُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، "أَنَّ فِي قَوْلِهِ " أَنفُسَكُمْ" تَتَّبِيهِ عَلَىٰ أَنْ مَنْ يَعِيبُ أَخِيهِ، كَمَنْ يَعِيبُ نَفْسَهُ، وَهَلْ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعِيبَ نَفْسَهُ"⁴! ذلك أَنَّ الأمة كمثل الجسد الواحد والنفس الواحدة المؤمنة، مصداقا لما رواه النعمان بن البشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ"⁵.

والثالثة: تجنب التنازب بالألقاب، بتجنب إيذاء الآخرين بندائهم بما يكرهون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: 11]، فيحرم كل لقب فيه أدية للغير، يحمل معنى التحقير، أو الاستهزاء، أو الذم⁶، ومن صور ذلك ما جاء في: (باب: مَنْ كَفَرَ أَحَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ)، وفيه التحذير والتغليظ من

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْحَرُونَهُمْ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾، حديث رقم (6043)، (15/8).

² انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (246/2).

³ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (236/1).

⁴ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (327/16).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رخصة الناس والنهائم، حديث رقم (6011)، (10/8).

⁶ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (237/1).

تكفير الناس دون بينة، فمن نادى أخاه يا كافر، أو رماه بالكفر، فقد رجع إثم ذلك على القائل إن كان كاذباً؛ لتكفيره المسلم الذي هو مثله، أو لجعله الإيمان كفراً، وهذا ما أشار إليه البخاري بترجمته¹.

ثم جاء (باب مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مُتَّوِّلاً أَوْ جَاهِلاً) لبيان عدم إثم من أطلق ذلك متأولاً أي ظناً منه، أو لجهله بحكم ما قال، أو بحال المقول فيه، فإنه معذور غير آثم، ودليل ذلك، أَنَّ النَّبِيَّ عَدْرَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ وَصَفَ حَاطِبَ بْنَ بَلْتَعَةَ بِالْمُنَافِقِ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ أَصْبَحَ مُنَافِقًا لِمَكَاتِبَتِهِ الْمُشْرِكِينَ بِخَبَرِ النَّبِيِّ، وَقَدْ عَدَّرَ النَّبِيُّ مَعَاذَ بْنِ جَبَلٍ عِنْدَ قَوْلِهِ لِرَجُلٍ أَنَّهُ مُنَافِقٌ لَظَنَّهُ أَنَّ التَّارِكَ لِلْجَمَاعَةِ يَعَدُّ مُنَافِقًا².

وضابط ذلك كله أن كل ما يكرهه الإنسان فلا يجوز أن يُدعى به خشية الأذية، وهو ما أشار إليه البخاري في ترجمته: (باب مَا يَجُوزُ مِنْ ذِكْرِ النَّاسِ نَحْوَ قَوْلِهِمْ الطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ. وَمَا لَا يُرَادُ بِهِ شَيْنُ الرَّجُلِ)، وفيه جواز ذكر لقب الشخص وصفته بقصد التعريف به وتمييزه عن سائر الناس، أما إن كان بقصد عيب الرجل وانتقاصه فلا يجوز، وحديث الباب الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "صَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ"³، أكبر شاهد على ذلك، فقد لقب النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي عرف بطول يديه بذى اليدين، وذكره لوصفه دون اسمه، يؤكد ذلك⁴.

وفيه أيضاً إشارة إلى استحباب الكنى، والألقاب الحسنة فهي من السنة، فجاء (بابُ التَّكْنِي بِأَبِي تَرَابٍ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ كُنْيَةٌ أُخْرَى) في جواز تسمية الإنسان بأكثر من كنية، فالقصد من الكنية هو تكريم الإنسان، وإدخال السرور عليه، فهو لا يُكنى إلا بأحب الأسماء إليه، وخصوصاً إذا دعاه بها أحد الصالحين، فلقد كان اسم أبي تراب أحب الأسماء إلى علي رضي الله عنه؛ لأنَّ الرسول هو الذي كناه بها، عندما حصل بينه وبين فاطمة رضي الله عنها خلاف، فنام في المسجد وعلق التراب على كتفه، فناداه صلى الله عليه وسلم أبا تراب، من باب الملاطفة والمزاح معه وليذهب غيظه⁵ فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ

¹ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (288/9).

² ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (291/9).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَا يَجُوزُ مِنْ ذِكْرِ النَّاسِ نَحْوَ قَوْلِهِمْ الطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ، (6051)، (16/8).

⁴ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (468_467/10).

⁵ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (353_352/10).

كَانَتْ أَحَبَّ أَسْمَاءٍ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَيْهِ لِأَبُو تَرَابٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَفْرُحُ أَنْ يُدْعَى بِهَا، وَمَا سَمَّاهُ أَبُو تَرَابٍ إِلَّا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَاظَبَ يَوْمًا فَاطِمَةَ فَخَرَجَ فَاضْطَجَعَ إِلَى الْجِدَارِ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَّبَعُهُ فَقَالَ: هُوَ ذَا مُضْطَجِعٌ فِي الْجِدَارِ فَجَاءَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَامْتَلَأَ ظَهْرُهُ تَرَابًا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ ظَهْرِهِ يَقُولُ: اجْلِسْ يَا أَبَا تَرَابٍ!¹

وللتفتير من هذه المحاذير الاجتماعية الثلاث والنهي عن اقترابها: السخرية، واللمز، والتنازع بالألقاب، فقد وصف الله من يقع بها بالظلم والفسوق، فهو فاسق وظالم لنفسه، بارتكاب هذه المنهيات واستحقاقه عذاب الله، وظالم لإخوانه بالاعتداء عليهم، قال تعالى: (يَسْأَلُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وبئس من يهوي بنفسه إلى الفسوق بعد الإيمان.²

4. اجتناب الغيبة.

ومن المحاذير الاجتماعية التي تهدم العلاقات بين الناس، وتثير العداوة والبغضاء بينهم، الغيبة، ويقصد بها: ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتدرون ما الغيبة؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال "ذكرك أخاك بما يكره" قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال "إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتته. وإن لم يكن فيه، فقد بهته"³، ومعنى بهته: أي كذب وافترت عليه.⁴

ولقد عالج البخاري هذه الآفة الاجتماعية في ثلاثة أبواب وهي: (بَابُ الْغَيْبَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾) [الحجرات:

12]، و(بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَيْرٌ دُورِ الْأَنْصَارِ)، و(بَابُ مَا يَجُوزُ مِنْ اغْتِيَابِ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالرِّيْبِ). صيانة لحقوق الإنسان وضمانا لحرية وكرامته، فإن الإسلام يقيم سياجا يحذر فيه أي أحد من الاقتراب حول حرمان الأشخاص.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: التَّكْنِي بِأَبِي تَرَابٍ وَإِنْ كَانَ لَهُ كُنْيَةٌ أُخْرَى، حديث رقم (6204)، (45/8).

² انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (330/16).

³ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، حديث رقم (2589)، (2001/4).

⁴ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (165 /1).

ففي صورة تتأذى لها النفوس، ترجم البخاري الباب بقوله تعالى: (بَابُ الْغَيْبَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَا يَغْتَبِ

بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾) [الحجرات:

12] بمشهد من يأكل لحم أخيه ميتاً؛ للكفّ عن هذا الفعل الذي يثير الاشمئزاز، مذكراً بتقوى الله، داعياً كل من سوّلت له نفسه لاقتراف هذا الباب أن يسارع بالتوبة، متأملاً برحمة الله¹، وعداً عن كون الغيبة أديةً بالنيل من أعراض الناس باللسان، فهي تهدر الوقت، وتشغل عن الطاعات، وتعود على صاحبها بسوء العاقبة².

ونبه البخاري في تراجمه إلى ما لا يعدّ من الغيبة، في قوله: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ) في بيان ما لا يدخل في باب الغيبة، وهذا ما بيّنه القاضي عياض من جواز المفاضلة بين الناس، وإنزال الناس منازلهم، وقد كره بعض العلماء ذلك إن كان لغير ضرورة، وأما إن كان ذلك في الجرح والتعديل في الشهادات، والولايات، فالحاجة لقوله ماسّة، وليس هذا من الغيبة، وحديث الباب الذي رواه أبو أسيد الساعدي رضي الله عنه، مرفوعاً: "خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ"³، يشير إلى أفضلية الأنصار بسبقهم إلى الإسلام⁴.

وكذلك ممّا لا يدخل في الغيبة، ذكر مساوئ أهل الفساد، وهو ما جاء في: (بَابُ مَا يَجُوزُ مِنْ اغْتِيَابِ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالرِّيْبِ) فمن يجاهر بالفسق أو الشرّ أو الظلم أو البدعة تجوز غيبته، للتحذير منه، أو خشية الاقتداء به، ويدخل في هذا جواز تجريح الرواة، لبيان أحوالهم، وحفظ حديث النبي، لذا "تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعاً، حيث يتعين طريقاً إلى الوصول إليه بها، كالتظلم، والاستعانة على تغيير المنكر، والاستفتاء، والمحاكمة، والتحذير من الشر"⁵. ويؤيد ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: "اسْتَأْذَنَ

¹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (6/142_144).

² انظر: الحقباني، الإيذاء في العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم، (662_663).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ، حديث رقم (6053)، (17/8).

⁴ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (7/244).

⁵ ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (10/471_472).

رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ ائْتِنَا لَهُ، بِنَسِّ أَخُو الْعَشِيرَةِ أَوْ ابْنِ الْعَشِيرَةِ¹، من باب التحذير منه، حفظاً للمصلحة.

5. اجتناب النميمة.

ومن آفات اللسان التي حذّر منها البخاري في تراجمه النميمة، وجاء ذلك في أربعة أبواب: (باب: النَّمِيْمَةُ مِنَ الْكَبَائِرِ)، و(بابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ النَّمِيْمَةِ)، و(بابُ مَا قِيلَ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ)، و(بابُ مَنْ أَخْبَرَ صَاحِبَهُ بِمَا يُقَالُ فِيهِ).

والنَّمَام هو الذي يسعى بالإفساد بين الناس ونشر الفتن بينهم، يفرّق القلوب ويقطع الأوصال، ويمزق وحدة المجتمع، لذا شدد الإسلام في التحذير منه، فجعل جرمه من الكبائر التي تستحق أشدّ العذاب²، فقد أورد تحت ترجمة: (باب: النَّمِيْمَةُ مِنَ الْكَبَائِرِ) ما رواه ابن عباس رضي الله عنه، قال: "خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَسَمِعَ صَوْتِ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي فُيُورِهِمَا، فَقَالَ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرَةٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ؛ كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيْمَةِ"³.

وجاء في ترجمة: (بابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ النَّمِيْمَةِ وَقَوْلِهِ ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11])، ﴿وَيَلُّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1] يَهْمُرُ وَيَلْمُرُ يَعِيبُ) ما فيها من الوعيد للنَّمَام؛ لما يقوم به من نشر الفتنة والعداوة بين الناس، وأورد تحتها حديث هَمَام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ"⁴، والقَتَات: الذي يتسمّع على الغير وهم لا يعلمون فينمّ عنهم⁵، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة) أي لا يدخل الجنة من يسعى للإفساد بين الناس وإثارة العداوة والبغضاء بينهم، فمن يفعل

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُجُورُ مِنْ اغْتِيَابِ أَهْلِ الْفُسَادِ وَالرِّيْبِ، حديث رقم (6054) ، (17/8).

² انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (586_583/6).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: النميمة من الكبائر، حديث رقم (6055)، (17/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُكْرَهُ مِنَ النَّمِيْمَةِ، حديث رقم (6056)، (17/8).

⁵ انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (11/4).

ذلك مستحلا حرم الله عليه الجنة، ومن فعلها بتأثير نزغات الشيطان، فلا يدخلها حتى يعاقب في النار على ذنبه، أو يتوب منه، أو يعفو الله عنه¹.

وترجمة البخاري الباب بقوله تعالى: {هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ} {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}، فيه من التهديد والوعيد للتمام، فهذا الخلق الذميمة يأكل سلامة المجتمع، فعدا عن كونه يفسد القلب، ويفسد العلاقات بين الناس، فهو يفرق الأحبة والصحب، ويجعل الناس يفقدون الثقة ببعضهم البعض، ويتهم الأبرياء في معظم الأحيان، إنَّ هذا الباب يرسم حدود الأدب في التعامل مع الناس، وحفظ كراماتهم، فلا يتعرض أحد لهم بالهمز والعييب بالقول والإشارة في حضورهم أو غيبتهم².

ولفظ (ما يكره من) في الترجمة يشير إلى أنَّ المحرم هو بعض النميمة، أمَّا إذا ترتب عليها مصلحة شرعية، كإنقاذ شخص من القاتل، أو من لص، أو ما فيه مصلحة للمسلمين، فقد يكون ذلك مستحبا أو واجبا بحسب ما يقتضيه الحال³.

ويطلق على التمام ذو الوجهين، وهذا ما جاء في (بابُ مَا قِيلَ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ)، وهي صفة ذميمة، وصف النبي صلى الله عليه وسلم صاحبها بأنَّه من شرِّ الناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ: الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بَوَجْهِ وَهَوْلَاءَ بَوَجْهِ"⁴، "هي صفة المنافق ذو الوجهين، الذي يأتي كل طائفة بما يُرضيها، ويُظهر أنه منهم، سواءً أكانت على حقٍّ أم باطل، وهو بخلطه هذا استحق صفة المداهنة؛ فهو يظهر لأهل الحق أنه راض عنهم، ويلقاهم بالبشر والترحيب. وكذلك يظهر لأهل الباطل أنه منهم، ويزين لكل طائفة عملها، ويزمها عند الأخرى، وهو في صنيعه هذا متملقا بالباطل، موقعا للفساد بين الناس، ملقيا للعداوة والبغضاء بينهم. أما إن كان قصده الإصلاح بين الطائفتين، فيستر القبيح، وينقل الجميل، فيجمع بينهما، ففعله محمود⁵، ومنه

¹ انظر: قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (245_244/5)

² انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (585_584/6).

³ انظر: قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (245/5)

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما قيل في ذي الوجهين، حديث رقم (6058)، (18/8).

⁵ انظر: ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (475_474/10).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِتْمَانًا فَحُنُّ مَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾¹.
[البقرة: 14].

وكما جاء في ترجمة: (بَابُ مَنْ أَخْبَرَ صَاحِبَهُ بِمَا يُقَالُ فِيهِ) جواز إخبار المسلم أهل الفضل والستر من إخوانه بما يقال فيهم مما لا يليق؛ ليعرفهم بذلك من يؤذيهم وينقصهم، ولا يعد ذلك من النميمة؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم، لم ينكر على ابن مسعود نقله ما قاله الأنصاري عنه، بل عز عليه ما نسبه إليه من الجور في القسمة، ثم عفا عنه، وصبر اقتداءً بموسى عليه السلام، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِسْمَةً، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللَّهِ مَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ بِهَذَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَمَعَّرَ وَجْهَهُ وَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى، لَقَدْ أُودِيَ بِأَكْثَرِ مَنْ هَذَا فَصَبَرَ"¹ وهذا ما يجب أن يكون عليه موقف المسلم إذا علم أن أحداً يتكلم في شأنه فعليه أن يصبر اقتداءً بالأنبياء وأهل الفضل من المؤمنين².

6. اجتناب سوء الظن بالآخرين.

وقد نبه البخاري على اجتناب سوء الظن بباين، (باب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمَانٌ وَلَا جَنَسٌ لَهُ﴾ [الحجرات: 12])، و(بَابُ مَا يَكُونُ مِنَ الظَّنِّ).

فمن حق المسلم على أخيه أن يحسن الظن به، وألا ينتهك حرماته فيتعرض له بالأذى، فمن المبادئ الرئيسية التي جاء بها الإسلام في نظامه الاجتماعي، أن للأفراد حرمتهم وحياتهم وحقوقهم التي لا يجوز العبث بها بأي حال من الأحوال، فجاء الإسلام بتشريعاته يربي الضمائر والقلوب، ويظهرها من كل ما يفسد العلاقة بين الإخوة، فيقرر أساساً في التعامل بين الأفراد، باجتناب الظنون السيئة بينهم، فترجم البخاري الباب بالخطاب الرباني: (بَابُ: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمَانٌ وَلَا تَجَسَّسُوا))، لجعل حسن الظن سمة ثابتة راسخة في المؤمن، فالظنون كما ذكر القرطبي: "تهمة؛ لعدم

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَنْ أَخْبَرَ صَاحِبَهُ بِمَا يُقَالُ فِيهِ، حديث رقم (6059)، (18/8).

² ابن الملن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (397_396/28)

وجود سبب يوجبها، وكل ظنّ لم يعرف له سبب، فهو من الظنون التي يجب اجتنابها، والدليل على أنها تهمة أن الله أردف النهي عنها بقوله "ولا تجسسوا"، فالإتهام يكون في بادئ الأمر ثم يتبعه الظنّ بالتجسس والبحث ليتحقق عن تلك التهمة ويثبتها¹، فيكون قد وقع في محظورين، الأول: الظنّ السيء، والثاني: التجسس وتتبع عورات المسلمين، لكنّ الإسلام يصون هذه الحقوق من العبث، فلا يقيم لهذه الظنون أي اعتبار، إلا بدليل أو بيّنة، ويضع السياج حول حرّامات الأفراد، فينهى عن التجسس هذا الخلق الذميمة الذي يهتك الستر، فمن حق المسلم أن يخلو بنفسه، وأن يستر قبائحه وزلاته، وليس لأحد أن يفتش في بواطن الناس، أو يتتبعهم في الخفاء، بل يكفي بما يظهر منهم من جرائم ومخالفات، فيعيش الفرد في المجتمع المسلم آمنا على نفسه، آمنا على أسراره، آمنا في بيته².

فسوء الظنّ إيذاء يؤدي إلى إتهام الآخرين وانتزاع الثقة بهم، وسبب انتشار الضغينة بين الأفراد، وهدم العلاقات بينهم³. ولا عجب أن عدّه ابن حجر الهيتمي من الكبائر؛ فمن ظنّ بغيره شرا حمله الشيطان على احتقاره، وعدم القيام بحقوقه، وإطالة اللسان في عرضه⁴.

وترجم البخاري (باب ما يَكُونُ مِنَ الظَّنِّ)، في جواز إساءة الظنّ فيمن عرض نفسه لتهمة في دينه وعرضه؛ بقصد التحذير منه، قال ابن بطال: "أجاز أهل العلم سوء الظنّ لمن كان مُظْهِراً للقيح، وجانبا لأهل الصّلاح، غير مشاهد للصلوات في الجماعة، قال ابن عمر: كنا إذا فقدنا الرجل في صلاة العشاء والصبح أسأنا الظنّ به"⁵. إلا أنّه لا ينبغي أن ترتب على سوء الظنّ أي عمل أو وصف إلا بعد ظهور دلائل حقيقيّة على ذلك.

¹ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (333_330/16).

² انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (6/142_140).

³ انظر: الحقباني، الإيذاء في العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم، (664).

⁴ ابن حجر الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، (143/1).

⁵ ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (262/9).

7. عدم مواجهة الناس بالعتاب.

ومن المشكلات الاجتماعية التي تفسد المودة بين الأفراد العتاب وعدم المواجهة، وفي التحذير منه ترجم البخاري: (بَابُ مَنْ لَمْ يُوَاجِهِ النَّاسَ بِالْعِتَابِ) للحث على التآسي به صلى الله عليه وسلم، والالتزام بهديه، فكان صلى الله عليه وسلم من حسن معاشرته، لا يواجه من أخطأ في حقه بالعتاب أمام الناس؛ لتلطفه في التأديب، وسترا للمعاتب، ولغلبة الحياء عليه¹، فإذا رأى شيئا يكرهه، يُعرف ذلك في وجهه، ولا يتكلم به، وهذا فيما يخص نفسه. "أما فيما يتعلق بحقوق الله أو العباد فكان يعاتب ولا يخشى في الله لومة لائم"².

وحديث الباب يظهر الأدب النبوي في ذلك، فلم يعاتب القوم الذين أنكروا عليه أخذه بالرخصة، ومخالفتهم له بأخذهم بالعزيمة، ظناً منهم أن ذلك أقرب لهم عند الله، وأن المغفور له قد تسقط عنه بعض التكاليف، فكان عتابه لهم بالعموم، ولم يعينهم؛ من باب الستر عليهم. وأخذه بالرخصة حرصاً منه للتخفيف على أمته، وإلا فخير الهدى هديه³، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: صَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَرَحَّصَ فِيهِ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ فَلَبَّغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ حَسْبِيَّةً⁴. وهذا ما يقابل خلق التغافل، الذي يتضمن علاقة الإنسان بمن حوله، بأن يغض البصر عن بعض هفواتهم؛ حفظاً لعلاقته بهم، وصيانة للمودة.

وهذا ما بيته ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التَّحْرِيم: 3]، هذه الآية التي جسدت كرم خلقه صلى الله عليه وسلم بإعراضه عن معاتبة زوجه ببعض الحديث الذي أفشته، وتقل عن سفيان: وما التغافل إلا من فعال الكرام⁵.

¹ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (152/6).

² انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (287_286/9).

³ انظر: القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (152/6).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَنْ لَمْ يُوَاجِهِ النَّاسَ بِالْعِتَابِ، حديث رقم (61 01)، (26/8).

⁵ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (353/28).

وما أوجنا لهذا الخلق اليوم؛ الذي أصبح فيه وللأسف الأخ يتصيد الخطأ لأخيه، والقريب يترصد زلات قريبه، والصديق يحاسب صديقه على كل كلمة، حتى انهار المجتمع وأصبح كل فرد فيه، يناى بنفسه عن الآخرين، لسلامته، وراحته.

8. اجتناب المبالغة في المدح.

ومن آفات اللسان التي حذرّ منها النبي صلى الله عليه وسلم، ودعا بشكل صريح على من يببالغ فيه أن يحثو في وجهه التراب (المدح المبالغ فيه)؛ لما يفضي به من آثار سيئة على الشخص المادح والممدوح، وفي بيان ضوابط مدح الإنسان لأخيه الإنسان والثناء عليه، ترجم البخاري: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّمَادِحِ)، فبيّن أن المكروه منه¹:

1. المبالغة في مدح الرجل بما ليس فيه، ووصفه بما لا يستحقه، فهذا محرم لأنه كذب، فيحاسب المادح على كذبه لا على مدحه، ويضرّ بالممدوح بما يدخله على نفسه من العجب، حتى يظنّ أنه يستحق تلك المنزلة.

2. مدح الرجل بما هو فيه، لكنّه يخشى على الممدوح من الاغترار بنفسه، فهذا أيضا محرم؛ لأنه يؤدي به إلى العجب، وترك العمل والركون إلى ما هو عليه، فلا يزداد خيرا، مما يؤدي إلى هلاكه. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يُتَنَبَّى عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ، فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ -أَوْ قَطَعْتُمْ- ظَهْرَ الرَّجُلِ"².

وأما المساحة المسموح بها من حيث المدح فقد أشار البخاري لذلك حيث ترجم: (بَابُ مَنْ أَتَى عَلَى أَخِيهِ بِمَا يَعْلَمُ)، في جواز الثناء على الشخص بما فيه على وجه الإعلام ليعرف فضله ويقتدى به، أو لتشجيعه وتثبيته، إذا ظهر منه بعض الأوصاف والأخلاق الحميدة، بشرط ألا يببالغ في مدحه، ويصفه بما لا يستحق، بل يقتصر على ما أعطاه الله من منزلة، فيأمن على الممدوح من الإعجاب والكبر.

¹ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (563/6_565).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يُكْرَهُ مِنَ التَّمَادِحِ، حديث رقم (6060)، (18/8).

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم صحابته، وأثنى عليهم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ذَكَرَ فِي الْإِزَارِ مَا ذَكَرَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ إِزَارِي يَسْقُطُ مِنْ أَحَدٍ شَقِيهِ، قَالَ: إِنَّكَ لَسَمْتٌ مِنْهُمْ"¹. ففي الحديث، مدح لأبي بكر وثناء عليه، أنه ليس ممن يفعل ذلك خيلاء². وكذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ"³.

والضوابط في اجتناب المدح، حمل النهي على المبالغة في المدح والزيادة في الأوصاف؛ لما يخشى عليه مفسدة من عجب، أما إن كان الممدوح من أهل الإيمان ويعرف بكمال عقله، ورسوخ تقواه، بحيث لا يفتتن، فلا ينهى عن ذلك ما اقتضت المصلحة. ولقد أرشدنا صلى الله عليه وسلم إلى هديه في التزكية والمدح⁴ فعن أبي بكر رضي الله عنه، مرفوعا: "إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فَلْيُكَلِّمْ: أَحْسَبُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِبُهُ اللَّهُ، وَلَا يُرَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا"⁵.

والمدح والثناء لا يعني عدم النصيحة، فقد كان صلى الله عليه وسلم مع مدحه لأصحابه لا يتورع عن نصحهم بل يحرص على ما ينفعهم ويرفع درجاتهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ"⁶، فكان عبد الله رضي الله عنه بعدها لا ينام من الليل إلا قليلا⁷.

9. النهي عن الحسد والتدابير.

والحسد من أمراض القلوب التي تفتك بالمجتمع، وتفكك بنيانه، وهو كما عرفه صاحب الظلال: انفعال نفسي بتمني زوال النعمة عن المحسود. وهو شر سواء توقف الحاسد عند الانفعال النفسي، أو أتبع هذا

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَنْ أُنْتَى عَلَى أَخِيهِ بِمَا يَغْلَمُ، حديث رقم (6062)، (18/8).

² انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (210_207/22).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَنْ أُنْتَى عَلَى أَخِيهِ بِمَا يَغْلَمُ، حديث رقم (6062)، (18/8).

⁴ انظر: الكرماني، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (200_199/21).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّمَادِحِ، حديث رقم (6061)، (18/8).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، (3738)، (24/5).

⁷ انظر: الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (13/11).

الانفعال بسعي في زوال هذه النعمة عن المحسود أو ضرره، ومن يسعى في ذلك فهو باغيا أثما¹، وهو الذنب الأول لبني البشر فهو الذي دفع ابن آدم لقتل أخيه.

وفي القضاء على هذه الآفة الاجتماعية ترجم البخاري: (بَابُ مَا يُنْهَى عَنِ النَّحَاسِدِ وَالتَّدَابِيرِ {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}) للنهي عن هذا الخلق الذميم، فهو ينافي أخلاق المؤمنين، فالمؤمن يحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"²، وكما يأمر بالتعوذ من شر الحاسد لما قد يوقعه من أذى بالمحسود، قال تعالى: {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، بل والحسد مذموم حتى وإن لم يتبعه سعي لسلب النعمة عن الغير، فإن خطر للإنسان جاهده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]³.

والقسم الثاني من الترجمة جاء لينهى عن التدابر بين المؤمنين، والتدابير نوع من التقاطع والتهاجر، وهو أن يولي أحدهم دبره لأخيه المسلم إعراضا عنه⁴، وبه فسر القرطبي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: 18] فتفسير "التدابير بالإعراض؛ لأن من بغضته أعرضت عنه ووليت له دبرك، ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك لتسرّه ويسرّك، فمعنى التدابر موجود فيمن يُصعّر خدّه"⁵.

وحذر البخاري أيضا منه في: (بَابُ الْهَجْرَةِ وَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَجِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ)، "والهجرة هي ترك المؤمن كلام أخيه المؤمن عند تلاقيهما، أو اجتماعهما، وإعراض كل واحد منهما عن الآخر، سواءً أكان هذا الترك قولاً وفعلاً، والهجر لمدة ثلاثة أيام رخصة من الشارع؛ لأن الإنسان مجبول على الغضب وسوء الخلق، والغالب أن ذلك يقل في ثلاثة أيام"⁶، وأما ما زاد عن الثلاث

¹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (6/ 1063).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (13)، (12/1).

³ انظر: الخولي، الأدب النبوي، (136).

⁴ انظر: الخطابي، معالم السنن، (4/ 122).

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (14/ 70).

⁶ انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (22/ 141).

فهو محرّم؛ فالألفة بينهم واجبة، وفي التقاطع فساد أمرهم، وانحلال عقدهم، واضطراب أمر دينهم ودنياهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِيَاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا".¹ إشارة إلى ترك كل هذه المنهيات التي تؤدي إلى الفرقة بين المؤمنين، ومن جميل ما ذكر الخولي في معنى (وكونوا عباد الله إخوانا) "الدعوة إلى أن تكون الأخوة بينهم كإخوة النسب، في الشفقة، والمواساة، والرحمة، والنصيحة، فيكونوا كأفراد الأسرة الواحدة في الشعور، يسعى كلا منهم في مصلحة الآخر، ودفع الضرر عنه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10] فالآية وإن كانت خبرا فهي بمعنى الأمر، فإن رابطة الإيمان فوق رابطة النسب".²

وبعد أن بيّن البخاري تحريم الهجران بين المسلمين، جاء (باب ما يجوز من الهجران لمن عصى) لبيان الأحوال التي يجوز فيها الهجران، وأنه يقدر بحسب الجرم، فهجرة أهل المعاصي تكون بترك الكلام معهم، وقصة المتخلفين الثلاث أصل في ذلك، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامهم خمسين ليلة، وأما بين أهل والإخوان فيكون بترك الاسم، وبسط الوجه، وترك السلام، والإعراض هو المباح عند المغاضبة بين المسلمين، على ألا يزيد على ثلاث أيام، كفعل عائشة رضي الله عنها حين مغضبتها مع النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي لَأَعْرِفُ غَضَبِكَ وَرِضَاكَ؟ قَالَتْ قُلْتُ: وَكَيْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا كُنْتَ رَاضِيَةً قُلْتُ: بَلَى وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتَ سَاخِطَةً قُلْتُ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ، قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلٌ، لَسْتُ أَهَاجِرُ إِلَّا اسْمَكَ"³، وذلك من باب الغيرة، فقد كان قلبها مملوء بحبه صلى الله عليه وسلم، وإلا فالغضب عليه كبيرة⁴.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما ينهى عن التخاصد والتدابر، حديث رقم (6064)، (19/8).

² الخولي، الأدب النبوي، (137).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الهجران لمن عصى، حديث رقم (6078)، (21/8).

⁴ انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، (446/7).

واختلف في سبب جواز هجرة العاصي والمبتدع والفاسق كونه موحدًا، وعدم جواز هجرة الكافر، فذهب ابن بطال إلى أن ذلك من الأحكام التي فيها مصالح العباد، والله أعلم بأسبابها، وما علينا إلا التسليم بها¹، وأضاف الكرمانى إلى أن الهجران على نوعين هجران بالقلب، وهجران باللسان، وهجران الكافر يكون بالقلب بمنع التودد إليه، ومعاونته، ونصرته، وأمّا هجرانه بالكلام فلا يقصد؛ لأنه لا يرتدع بذلك، بخلاف المسلم العاصي فإنه يرتدع بذلك².

ولمّا جاء النهي عن الهجران بين المسلمين، جاءت التراجم للحثّ على التزاور بينهم، فالزيارة تستجلب المودة، وتجمع القلوب، وتذكّر الناسي، وتوقظ الغافل، وتعلّم الجاهل، وغيرها مما يحصل من المنافع³، فترجم البخاري: (بَابُ الزِّيَارَةِ وَمَنْ زَارَ قَوْمًا فَطَعِمَ عِنْدَهُمْ) في بيان مشروعية الزيارة، وأنّ من تمامها التقديم للزائر مما حضر، من غير تكلف، وفيه استحباب دعاء الزائر لأهل البيت الذي طعم عندهم، تأسياً به صلى الله عليه وسلم، فذلك من مكارم الأخلاق، ومما يثبت المودة بينهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَارَ أَهْلَ بَيْتِ فِي الْأَنْصَارِ فَطَعِمَ عِنْدَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَمَرَ بِمَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ، فَنُضِحَ لَهُ عَلَى بَسَاطٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَدَعَا لَهُمْ"⁴ وجاء في ترجمة: (بَابُ: هَلْ يَزُورُ صَاحِبَهُ كُلَّ يَوْمٍ أَوْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا) جواز زيارة الصديق الملاطف لصديقه، يومياً بقدر الحاجة إليه وانتفاعه بمشاركته له، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "لَمْ أَعْقِلْ أَبَوِي إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِمَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفِي النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا" أمّا من ليست له خصوصية ولا مودة ثابتة، فالزيارة المتواصلة منه تؤدي إلى الضجر، وبالتالي البغضة والقطيعة⁵.

¹ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (273_272/9).

² انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (210_209/21).

³ انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، (243/3).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الزّيارَة وَمَنْ زَارَ قَوْمًا فَطَعِمَ عِنْدَهُمْ، (6080)، (22/8).

⁵ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (275_274/9).

ثانيا: كف الأذى الجسدي:

إن الإيذاء الجسدي لا يقلّ خطورة عن الإيذاء النفسي، وقد أطلّ البخاري الحديث عن الجانب النفسي في تراجمي كتابي الأدب والرفاق، بخلاف حديثه عن الإيذاء الجسدي الذي اختصر الحديث عنه؛ لأنه قد بسط الحديث عنه وما يترتب عليه، في كتب الحدود والديات.

وفي النهي عن أذية المسلمين جسديا وإلحاق الضرر بهم، ترجم البخاري: (بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْخَذْفِ)، والخذف¹ هو ما يرمى من الحجارة بالأصابع، والنهي عنه جاء؛ لما قد يلحق من يصيبه بأذى وضرر، من فقأ عين، أو كسر سنّ، أو جرح، ولا يرتجى منه أي فائدة من نكاية بالعدو، أو قتل صيد، فهو من اللهو المذموم، وذلك من آداب الإسلام² فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَذْفِ، وَقَالَ: "إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ وَلَا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ"³، و(لا ينكأ العدو): أي لا يوقع فيهم جراحا ولا قتلا⁴.

المبحث السادس: ترسيخ العدالة في المجتمع المسلم، واجتناب الظلم.

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ [النساء: 58]).

ولضمان سلامة المجتمع المسلم وحفظ أركانه أفرادا وجماعات، ترجم البخاري: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ [النساء: 58]). فترجم بالآية وجعلها من أصول أدلة ترسيخ العدالة في المجتمع

¹ الخذف: هو رميك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتك وترمي بها، أو تتخذ مخذفة من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (16/2).

² انظر: الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، (67/22).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: النهي عن الخذف، حديث رقم (6220)، (49/8).

⁴ انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (117/5).

المسلم، فكانت كما وصفها ابن مسعود أجمع ما يستشهد به في جلب كل خير، ودفع كل شر¹، بما تضمنته من محاسن الأخلاق، وخصال الخير، فحوت ثلاث مأمورات، وثلاث منهيات، تعتبر أهم الأساسات في بناء المجتمع وتماسكه، وحفظ العلاقات بين أفرادها، وهي على النحو الآتي:

أ. العدل: وهو أصل ثابت من أصول الشريعة يضمن لكل فرد وجماعة وأمة حقوقهم، فيزن الناس بميزان واحد لا يتأثر بؤد ولا بغض، ولا غنى ولا فقر، ولا قوة ولا ضعف، فلا يحابي فيه أحد على أحد²، عدل يعمّ الأحوال كلها، في كل دوائر التكليف العقديّة، والمعاملات الاجتماعيّة³، وذهب ابن العربي أن مجالات العدل هي⁴:

1. العدل مع الخالق، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، والإيمان بصفاته والإقرار بها.

2. العدل مع النفس، بصيانتها، وحفظها من كل ما يؤدي إلى هلاكها.

3. العدل مع المخلوقات، بإعطائهم حقوقهم التي أوجبها لهم الشرع، وترك أذاهم، والإنصاف من النفس لهم بكل وجه.

والعدل هو ضمان شرعي بإعطاء كل ذي حق حقه، سواء بالقول أو العمل، مع القريب أو البعيد، بل وفي كل ولاية خاصة أو عامة فالمسلم مطالب بالعدل، فالرجل في أهل بيته يعتبر واليا، كما الحاكم ومن يتولى أمور المسلمين⁵، فعن أبي جحيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِلْأَهْلِ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ"⁶.

ب. الإحسان: وهو درجة تفوق العدل الواجب في المعاملة، فإن كان العدل المعاقبة بالمثل، قال تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126]. فالإحسان: أن تترك من ظلمك وتعفو

¹ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (165/10).

² انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (166/10).

³ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (491).

⁴ انظر: ابن العربي، أحكام القرآن، (154_153/3).

⁵ انظر: الهاجري، مبارك سيف، وجوب العدل وتحريم الظلم، بحث محكم، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت_ مجلس النشر العلمي، مج 21، ع65، 2006، (13_11).

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: صنْعُ الطَّعَامِ وَالنُّكُفُ لِلصَّيْفِ، حديث رقم (6139)، (32/8).

عنه ابتغاء مرضات الله، قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]. فكل معاملة بالحسنى غير واجبة، فهي من الإحسان¹.

والى هذا المعنى أشار ابن بطال في سرّ ترجمة البخاري بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وَقَوْلِهِ {إِنَّمَا بُغِيكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ} {إِنَّمَا بُغِيكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ} {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصَرَّتْهُ اللَّهُ} وَتَرْكِ إِثَارَةِ الشَّرِّ عَلَىٰ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ) وإيراده لحديث عائشة رضي الله عنها في الباب: "أَمَا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَمَا أَنَا فَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا"؛² تأويل منه بالندب على ترك معاينة المسيء والإحسان إليه. وأما عن وجه إيراده لآيات البغي هنا؛ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَعْلَمَ عِبَادَهُ بِأَنَّ ضَرَرَ الْبَاغِي سَيَنْقَلِبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ سَيَنْصُرُ مِنْ بُغْيِ عَلَيْهِ، فَكَانَ الْأَوْلَىٰ لَهُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَىٰ مَا ضَمِنَهُ مِنْ نَصْرِهِ لَهُ، فَيَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَلِهَذَا كَانَ مَوْقِفُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ الْعَفْوُ عَنِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي سَحَرَهُ³.

وقد ذهب البعض إلى أن معنى الإحسان هو: أن تكون سريرة الإنسان أفضل من علانيته، فهو تربية للنفس، على أن يكون ظاهرها كباطنها، فتبتعد عن الرياء، وتلتزم الصدق مع الله، فأعلى درجات الإحسان ما كان في حق الخالق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، رفعه: "الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"⁴، فاستشعار مراقبة الله، وأداء العبادات على أكمل وجه، والتقرب إليه سبحانه بالنوافل، لهي أعلى درجات الإحسان⁵.

إن الإحسان يفتح الباب للخلق ليرببهم على التسامح، والعفو، لحفظ الود، وكظم الغيظ، وسلامة الصدر، وكما ذكر ابن عاشور فكل أصول وفروع آداب الصحبة، ومعاشرة الأهل وليدة هذا الباب⁶.

¹ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (8165/13).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، حديث رقم (6063)، (18/8).

³ انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري لابن بطال، (257_256/9). انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (168/10).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: سُؤَالُ جَنْرِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، (50)، (19/1).

⁵ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (8167_8165/13).

⁶ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (256 / 14).

ج) إيتاء ذي القربى: وهي من صور العدل والإحسان، وتخصيص ذكرهم هنا؛ لتعظيم شأنهم، والتأكيد على حقوقهم بالبر والعطاء، فمن عادة الناس أنهم يغفلون عن أقاربهم، ويتساهلون في حقوقهم، فيقدمون حق البعيد؛ اتقاء لشره، وطمعا في المحمدة، وحسن الصيت¹.

إن الآية كما بيّنها الشعراوي تنبيه للناس بأن القريب أحق بالإحسان والصلة، فلو أنّ كل قادر أعطى أقرباءه المحتاجين، لما بقي فقيرا، ولو أنّ كل فقير له عدّة أقارب أغنياء يتقدّمونه لما آل حال المجتمع إلى ما هو عليه من البون الشاسع في طبقاته. فدائرة التكافل الاجتماعي التي يرسمها الإسلام تتدرج من الأسرة للمجتمع، فكل بعيد عنك هو قريب لغيرك، وبهذا يعم العطاء للجميع، فالمجتمع حلقات، وكلما سدت ثغرات الفقر في حلقة، ساد التوزيع العادل للثروة، وقضي على الفقر والبطالة فيه².

إنّ مجتمعا يلتزم بهذه الأوامر، لهو مجتمع بعيد كل البعد عن المظالم الاجتماعية التي أغرقت مجتمعاتنا الإسلامية، مجتمع آمن يخلو من الجريمة والعقاب، يستبدل فيه الاعتداء بالعفو والتسامح، فالقلوب فيه آمنة من التّشفي، واللسان فيه واليد أمينتان فلا يتعرض لأذى أحد، مجتمع تعمّه النعمة والخير، ويسوده الحب والسلام. ثمّ بعدها انتقلت الآية للحديث عن ثلاث منهيات، تعتبر أصول المفاسد والآثام، وهي:

1. الفحشاء: وهو كل ما يستتبع من الأقوال والأفعال، التي تقتك بالفرد والمجتمع، كبطلان الاعتقاد، والسرقه، والقتل، وشرب الخمر، كما ويشمل كل ما يوقع الخلل في الضروريات³، وذكر القرطبي أنّ ابن عباس فسرها بالزنا⁴، وإلى ذلك ذهب بعض العلماء، يقول الشعراوي: والزنا هو الذنب الوحيد الذي أطلق عليه فاحشة في القرآن؛ لما فيه من اعتداء على الأعراض، واختلاط الأنساب، وبه يشك الرجل في زوجته وأولاده، فيؤدي إلى اضطراب المجتمع وفساده، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَاَ إِنَّهُ كَانَ

فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [الإسراء: 32]⁵.

¹ المرجع السابق (14 / 256).

² انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (13/8168_8169).

³ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (14/257).

⁴ انظر، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (10/167).

⁵ انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (13/8170).

2. المنكر: وهو كل ما تتكره النفوس السويّة ويستقبحه الشرع من الأقوال والأفعال المنهي عنها، ابتداءً بالحرام وانتهاءً بالمكروه، ويشمل كل ما يؤدي إلى الإخلال في الحاجيات، والتحسينات التي لا تقضي إلى ضرر.

3. البغي: وهو الظلم، والاعتداء، ومجاوزة الحد، وهو من جنس الفحشاء والمنكر، وأُفرد بالذكر هنا؛ "لما يترتب عليه من أضرار، فقد كان منتشرًا بين العرب بكثرة، حيث كانوا أهل بأس وقوة، ولا يقفون عند حد الجزاء، بل يسرفون في المؤاخذه، وقد كانوا يعتدون على غيرهم دون سبب، كالغارات التي كنت وسيلة كسب لهم، قال تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. [الأعراف:33]. وكل اعتداء في المعاملة فهو من الظلم"¹.

وأعظم الظلم ما يتعلق بالعبادة، كالشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، بأن تجعل لله ندًا وهو الذي خلقك ورزقك، أو تسلبه صفة من صفاته. ومن البغي أيضا، ظلم النفس بارتكابها المحرمات الموجبة للعذاب، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 191]²

وكيف لمجتمع أن يقوم وهذه المنهيات منتشرة في أرجائه؟ إن النفس السويّة تأبى انتشار هذه العوامل الهدامة التي تفتك بالفرد والمجتمع، فالدين دين الفطرة، وكل ما يتعارض معها فإن النفس تعترضه، فكان لا بدّ لبقائها وسعادتها التزامها بما أمر، وانتهائها عما نهى، فالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، هو ما يوافق الفطرة السويّة، كما أنّه السبيل الوحيد لديمومتها.

إنّ هذا الباب يحدد الصورة التي يجب أن تكون عليها علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فإما العدل أي الإنصاف وهو الحد الأدنى في المعاملة. وإمّا الإحسان وهو ما يتضمن التفضل في المعاملة الحسنة³. ومتى ساد المجتمع المسلم العدل والإحسان، حلّ السلام والأمن في أرجائه، وانعكست آثاره على أفرادها، من

¹ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (14/257_258).

² انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي-الخواطر، (13/8171).

³ انظر: المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي (٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المحقق: بكرى حياني - صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، (ط5)، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، (2/451). انظر: الكيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة، دار البشائر الإسلامية للنشر والتوزيع-بيروت-لبنان، (ط1/ 1407هـ-1987م)، (136_137).

تحقيق العبودية الكاملة لله، وتحقيق صلاح البشريّة فلا مكان للظلم والفساد بين أركانه، ولا شيوع للفاحشة والمنكرات¹.

المبحث السابع: التآخي بين المسلمين.

والمؤاخاة بين المسلمين من أسباب المودة بينهم، ولقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، ليزدادوا ألفة، ونصرة لبعضهم البعض، فكان من أول الأعمال التي قام بها صلى الله عليه وسلم عند هجرته هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ حتى يوحد صفّهم، ويقوي شوكتهم، ويسعون في حاجات بعضهم البعض، فقد خرج المهاجرون تاركين ديارهم، وأموالهم، يستشعرون الغربة، فكانت المؤاخاة مواساة لهم.

وفي بيان مشروعية المؤاخاة والمعاهدة بين المسلمين، ترجم البخاري: (بَابُ الْإِخَاءِ وَالْجُلْفِ) فتستحب إذا كانت موافقة لأحكام الشرع كنصرة المظلوم، والقيام بأمر الدين، والمؤاخاة في الله تؤدي إلى التوادد بين المسلمين والمصادقة بينهم، فقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين وسعد بن الربيع من الأنصار، فعن أنس رضي الله عنه، قال: "قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَأَخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ"².

ولقد مدح الله هذا التآخي والتلاحم الذي كان بين المهاجرين والأنصار فكان من أولى الدعائم التي اعتُمد عليها في بناء المجتمع المسلم، وما انبثق عنه من تكافل وترابط اجتماعي وإيثاري، فهو يعدّ حدثاً بارزاً في تاريخ البشريّة كلّها³، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي

¹ انظر: العلمي، راشد سعد، مقصد الععل في القرآن الكريم، كلية التربية - الكويت، (381).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، (3937)، (69/5).

³ انظر: ليلة، نادية نصر المتولي، الأحاديث الواردة في التماسك الاجتماعي (دراسة حداثيّة موضوعية)، بحث محكم، جامعة أم القرى، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، ع84، 2021، (448).

صُدُّوهُمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: 9].

وأما ما رواه عاصم رضي الله عنه: قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَبْلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ)، فَقَالَ: قَدْ خَالَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِي¹، فيحمل على ما كان في الجاهلية، ومخالفا لأحكام الشرع كنصر الحليف وإن كان ظالما، والثأر بالقبيلة بسبب قتل واحد منها² وهذا ما ذكره النووي في معنى: "لا حلف في الإسلام": أي لا حلف توارث، وما يمنع الشرع منه. وأما المؤاخاة والمخالفة على طاعة الله، والتعاون على البر والتقوى، والتناصر في الدين، وإقامة الحق فلم ينسخ إنما المنسوخ ما يتعلق بالجاهلية³.

إنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ اليوم بحاجة ماسَّة إلى تجديد مظاهر التآخي بينها، من تعاون، ونصرة، وتوحيد صف، فما يحدث في غزّة والسودان، من قتل، وتجويع، وتشريد، تقشعر له الأبدان، وتنفطر له القلوب، وتشيب له الرؤوس، فأين شعور المسلم بأخيه؟ وأين حقه في النصرة؟ وأين الأسس التي أرساها النبيّ للحفاظ على وحدة المسلمين؟ فمن للأمة الغرقى، وقد قلَّ النصير؟

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الإخاء والجلف، حديث رقم (6083)، (22/8).

² ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (502_501/10).

³ انظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (82/16).

الفصل الرابع

أثر الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق

في بناء شخصية المسلم

المبحث الأول: معالم بناء الشخصية المسلمة من خلال تراجم كتابي الأدب والرقاق

من خلال استقراء تراجم كتابي الأدب والرقاق، وُجدت معالم عديدة تصوغ الشخصية المسلمة بشكل مفصل ووفق حلقات محددة تتفاعل مع بعضها البعض لتجتمع وفق مقصد أساسي سنامه (رضا الله)، وعليه استطاع الإمام البخاري ترتيب الأحاديث وفق مضامينها بما يسمح بتشكيل شخصية إيمانية متزنة، ومعطاء، وقادرة على إدارة ذاتها في الأزمات، من هنا جاءت هذه المعالم وفق الآتي:

الفرع الأول: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد الإيمانية

إنّ المتتبع للأبعاد المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق يلحظ دورها في البناء الإيماني للمسلم، وتصحيح عقيدته، وربطها بعبادة الله والتوجه إليه وحده، فإنّ من أعظم التحديات التي تواجه الفرد المسلم في هذه الأيام، الخلل في البناء العقدي لديه، وما يعانيه من الخواء الروحي؛ وذلك لما يتعرض له من انحرافات في الفكر، ووقوعه أسر الحضارة المادية، عدا عن كثرة المدخلات الغربية التي تؤدي به إلى اليأس والإحباط، والعدول عن الطريق المستقيم، وبهذا فقد بيّن البخاري معالم بناء الشخصية المسلمة وفق الأبعاد الإيمانية، وهي كالاتي:

المعلم الأول: الإخلاص في العبادة، فيخلص العبد النية في كلّ أعماله وأقواله ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثواب الآخرة لا لمحمدة أو لدنيا، ويحرص على تجديد نواياه في كل صغيرة وكبيرة قاصدا بها وجه الله تعالى، وقد بيّن البخاري في تراجمه طرق تحقيق معلم الإخلاص، من خلال الآتي:

1. طهارة الباطن، بطهارة القلب من الشرك، والرياء، والعجب، فهذه من آفات القلوب التي تحول دون

تحقيق العبد للإخلاص، وهذا ما أشار إليه البخاري في: (بَابُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ)¹.

2. أن يعمل العمل لا يريد به إلا وجه الله، غير ملتفتا لغيره، فمن عرف ربّه بأسمائه وصفاته، وأنّ النّفع

والضرر بيده وحده، وعرف الخلق وضعفهم، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، انقطع طمعه

منهم، وأقبل بكلّيته لخالفه²، وهذا ما جاء في: (بَابُ الْعَمَلِ الَّذِي يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ).

المعلم الثاني: تكوين عاطفة الحب والخوف، فهي من أعظم الدوافع التي تعين المسلم على فعل الخيرات،

وترك المعاصي والمنكرات³، فالخوف يجعله يبتعد عن كلّ ما يغضب الله، ورجاؤه يوقد فيه العزم على

الطاعة، وقد أشار البخاري في تراجمه إلى هذا المعلم في: (بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ). وبين أنّ من الطرق

التي تعين على تحقيق هذا المعلم هي:

• عقيدة الإيمان باليوم الآخر التي تجعل العبد في رقابة دائمة لأقواله وأفعاله، "وتجعله يضبط جميع

دوافعه وغرائزه وفق شرائع الإسلام وأحكامه، فإيمانه باليوم الآخر هو الحافظ له والمعين من الوقوع في

ظلمات الهوى والشهوات"⁴. وهو الذي يبعث فيه الأمل والرجاء بالمغفرة والثواب العظيم في الآخرة، ومن

ذلك ما جاء في: (بَابُ: الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)⁵.

المعلم الثالث: تركية النّفس، ابتداءً بالتخلية قبل التحلية، وذلك باجتتاب كل أنواع المعاصي والآثام، ثمّ

تحقيق العبوديّة الخالصة لله، والتّحلي بأنواع الفضائل، وقد أشار البخاري في تراجمه إلى طرق تحقيق هذا

المعلم:

• اجتناب المعاصي، وكل ما يغضب الله، ومن ذلك ما جاء في باب: (بَابُ الْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي).

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (104/8).

² انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (119/1).

³ انظر: بالجن، جوانب التربية الإسلامية الاساسية، (170-171).

⁴ انظر: جودة، أسامة عبد الرحمن، الآراء التربوية للشيخ محمد قطب، رسالة ماجستير، إشراف: الدكتور فايز كمال الشلдан، فلسطين، غزة، الجامعة الإسلامية، كلية

التربية، 1432هـ-2011م، (118).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (102/8).

• مجاهدة النفس، وذلك بمجاهدة هواها وشهواتها، التي تحول بين العبد وطاعة الله، ومن ذلك ما جاء في باب: (بَابُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)¹.

• "التبصر في آيات الكون، طريق الاهتداء إلى الخالق، فالصنعة تدلّ على الصانع"²، وهي من أكبر أسباب زيادة الإيمان، وهذا ما جاء في باب: (بَابُ رَفْعِ الْبَصْرِ إِلَى السَّمَاءِ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية: 17، 18].

المعلم الرابع: التوكل على الله، والاستسلام والخضوع لأمره، فهو علامة على سلامة إيمان العبد، يقول ابن القيم: "وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكّلين، والمعلّق على الشرط عدم عند عدمه، وهذا يدلّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكّل"³. ولقد أشار البخاري إلى هذا المعلم في: (بَابُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3])، في الحثّ على التوكّل وبيان ثمرته، ومن الطرق التي تعين على تحقيق معلم التوكل على الله، هي:

• "استشعار الحاجة الدائمة إلى الله في كل أحوال العبد"⁴، في السراء والضراء؛ لأنه يعلم أنّ النفع والضرر بيد الله وحده، فلا يتوجه إلا إليه، ولا يلتفت لغيره. وهذا ما عناه البخاري عندما أورد قول الربيع بن خيثم بعد الترجمة: (مَنْ كُلِّ مَا صَاقَ عَلَى النَّاسِ)، لبيان ثمرة التوكل وحاجة العبد الدائمة إلى الله في كلّ ما أهمّه من أمور الدنيا.

• الأخذ بالأسباب، مع الاعتماد على الله، وهذا ما أشار إليه البخاري في حديث الباب الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (105/8).

² انظر: بالج، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، (158_159).

³ ابن القيم، مدارج السالكين، (408/2).

⁴ انظر: بالج، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، (178).

حَسَابٍ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ، وَلَا يَنْتَظِرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ¹. ليتبين أن الممنوع من الرقية هي

ما كان بغير القرآن من التمايم وغيرها، أو النظر إلى الرقية بأنها هي الدافعة محالة لا كونها أسبابا.

المعلم الخامس: الاعتدال في العبادة، والبعد عن الغلو والتشدد في الدين، واتباع هديه صلى الله عليه وسلم بالموازنة بين متطلبات الروح والجسد، ولقد أشار البخاري في تراجمه إلى هذا المعلم، حين قال: (بَابُ الْقُضْدِ وَالْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعَمَلِ)². وأحاديث الباب كلها شواهد على ذلك، ومنها: حديث عائشة رضي الله عنها، أَنَّهَا قَالَتْ: "سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ؟ قَالَ: أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ، وَقَالَ: اكْلُوهَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ"³. بعدم التكلف في العبادة؛ مراعاة لحق الجسد من الراحة، وخشية السامة والترك.

وبالتالي فإعداد الإنسان العابد الصالح، الذي يتبع في عبادته المنهج الإسلامي القويم، من يتخذ من العبادة منهاج حياة، ولا يكون عبداً إلا لله، في كل عمل يعمل، وكل سلوك يقوم به، متصل بالله، مستشعر معيته، هو ما تسعى إليه التربية الإسلامية. واختيار لفظ إنسان لا مواطناً كما بين قطب؛ لأن الإنسان حسب منظور التربية الإسلامية، يجب أن يكون صالحاً في كل مكان يتواجد فيه، أما المواطن فهو من يلتزم بما هو داخل حدود الدولة فقط، وقد يُسيء التصرف إن خرج عن حدودها⁴.

الفرع الثاني: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد النفسية.

ومن الآثار الواضحة لتراجم كتابي الأدب والرفاق على شخصية المسلم، بيان أثر الأبعاد النفسية في ضبط غرائز المسلم وانفعالاته، وتجلى ذلك في:

المعلم الأول: تهذيب الغرائز: إن الإسلام يراعي مكنونات الفطرة البشرية، ويدعو إلى أخذ الضروري منها دون إسراف، أو كبت، فهو يهدب تلك الغرائز، ويشبعها بالطريقة التي تعين الفرد على المواصل⁵.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: (لَوْ مَنَّ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)، حديث رقم (6472)، (100/8).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (98/8).

³ المرجع السابق، باب: الْقُضْدِ وَالْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، حديث رقم (6465)، (98/8).

⁴ انظر: جودة، الآراء التربوية للشيخ محمد قطب، (109).

⁵ انظر، سيد قطب، في ظلال القرآن، (514/1).

ويصونها من الوقوع في الرذائل، وقد بين البخاري في تراجمه عددا من التوجيهات في تهذيب الغرائز، ومنها:

أ. الهوى: "وهو ميل النفس إلى الشهوة، وسمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية"¹، وقد أشار البخاري في تراجمه إلى ما يهدب هذه الغريزة وهو مجاهدة النفس، وكبح جماحها عن العزوف إلى شهوات المعاصي، ومن ذلك ما جاء في: (بَابُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)²، و(بَابُ: حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)³.

ب. حب الدنيا: فحب الدنيا والتعلق بها مما فطر عليه الإنسان، وقد أشار البخاري في تراجمه إلى ما يهدب هذا الحب، ومن ذلك ما جاء في: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) بالدعوة إلى جعلها دار غربة لا دار إقامة، حتى لا يأنس العبد بها فتتسبه ملهياتها الغاية التي خلق من أجلها.

ت. العدوانية: وقد أشار البخاري في تراجمه إلى ما يهدب العدوانية، حيث قال: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90])⁴. برفض كل اعتداء على الآخرين لسانا ويدا، والدعوة إلى الإحسان في المعاملة، بالتجاوز عن أخطأ، والتفضل عليه.

ث. الكبرياء، وهي صفة خاصة بالله، وقد حذر البخاري في تراجمه من سيطرة غريزة الكبر في: (بَابُ الْكِبْرِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ {ثَانِي عَطْفِهِ} مُسْتَكْبِرٌ فِي نَفْسِهِ عَطْفُهُ رَقَبَتُهُ)، ودعا إلى التأسى به صلى الله عليه وسلم في تواضعه مع المؤمنين وخفض الجناح لهم، فأورد حديث أنس بن مالك رضي الله عنه،

¹ الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (849).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (105/8).

³ المرجع السابق، (105/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (18/8).

المرفوع: "إِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ"¹.

ج. الحبّ والبغض، وقد حث البخاري في تراجمه إلى البوصلة التي تهذب النفس عليهما، وذلك ببيان ضابط هذا الحب، يجعلها تابعة لعقيدة العبد، فيحبّ في الله ويبغض في الله، وذلك ما جاء في ترجمة: (بَابُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ)².

المعلم الثاني: ضبط الانفعالات: وكذلك حوت تراجم كتابي الأدب والرفاق ما يدعو إلى ضبط الانفعالات، بما يحفظ للمسلم اتزانه النفسي ولا يخرججه عن اعتداله، ومن ذلك:

أ. انفعال الغضب، وأشار البخاري في تراجمه لذلك في باب: (بَابُ الْحَذَرِ مِنَ الْعُصْبِ) وذلك بتجنّب أسبابه ابتداءً، ثم النهي عن الانجرار وراء تبعاته بضبط النفس والاستعاذة من الشيطان الرجيم، فأورد حديث سليمان بن سرد رضي الله عنه، قال: "اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتُ بِمَجْنُونٍ"³. ثم بين البخاري أن الغضب الجائر هو ما كان لله، وذلك في ترجمة: (بَابُ مَا يَجُورُ مِنَ الْعُصْبِ وَالشَّدَّةِ لِأَمْرِ اللَّهِ).

ب. انفعال الحسد، وأشار البخاري في تراجمه لذلك في: (بَابُ مَا يُنْهَى عَنِ النَّحَاسِدِ وَالتَّدَابِيرِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 5])، بتحريمه ودعوة المسلم لمحبة الخير لأخيه المسلم، وجواز شعور الغبطة؛ وما يدفعه ذلك إلى السعي والعمل. وترجمة البخاري: (بَابُ: لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ)⁴ تغلق باب الحسد بالدعوة إلى الزهد فيما في أيدي الناس، والنظر إلى من هو دونه في المال، وفوقه في أمور الدين.

¹ المرجع السابق، باب: الكبير، حديث رقم (6072)، (20/8).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (14/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب، حديث رقم (6115)، (28/8).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرفاق، (102/8).

ت. انفعال الحياء، وأعظمه الحياء من الله، بعدم استحلال محارمه، والخشية منه، والتقريب بينه وبين الخجل، فالخجل الذي يمنع صاحبه من العلم أو استيفاء حقوقه أو التقفه في الدين فهو مذموم في الشرع، وأشار البخاري لذلك في تراجمه: (بَابُ الْحَيَاءِ)، و (بَابُ مَا لَا يُسْتَحْيَا مِنَ الْحَقِّ لِلتَّقَهُ فِي الدِّينِ)¹.

ث. انفعال الندم، وهو من السلوكيات الانفعالية التي يحتاجها المسلم، كما يُعدّ علامة على صحة الإيمان، فالمسلم الحق إن رأى من نفسه تقصير، أو ميل إلى معصية، قادته نفسه إلى التوبة والندم.² وقد أشار البخاري إلى ذلك في ترجمة: (بَابُ: مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمْرِ)³، فعلى من بلغ هذا العمر أن يوجه نظره إلى الآخرة، وأن يسارع إلى التوبة والأعمال الصالحة. ج. انفعال الضحك، وأشار البخاري لذلك في قوله: (بَابُ التَّبَسُّمِ وَالضَّحِكِ)، بجواز التَّبَسُّمِ، واستحبابه، والنهي عن القهقهة، تأسياً به صلى الله عليه وسلم؛ فذلك مما يحفظ وقار المسلم.

الفرع الثالث: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد الأخلاقية.

ويظهر أثر الأبعاد الأخلاقية من تراجم كتابي الأدب والرفاق في ضبط سلوك الفرد، فسلوك الفرد يعكس طبيعة القيم التي يؤمن بها وهي التي تحركه⁴، وكلما كانت هذه الأخلاق مستندة إلى الشرع زاد ضبط السلوك، وبرز كل ذلك في المعالم الآتية:

المعلم الأول: ضبط الألفاظ: إن تراجم كتابي الأدب والرفاق ضبطت ألفاظ المسلم، بالنهي عن كل قبيح من الألفاظ، والأمر بما هو حسن منها، وذلك تحقيقاً لمنظومة الأخلاق، ومن ذلك:

أ. الدعوة إلى الكلمة الطيبة، والابتعاد عن الفحش في القول، وأشار البخاري إلى ذلك في باب: (بَابُ طَيْبِ الْكَلَامِ)، و(بَابُ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا مُنْفَحِشًا)⁵.

¹ المرجع السابق، كتاب الأدب، (29/8).

² انظر: بك، أماني عثمان محمد، دور السنة في اعتدال سلوك المسلم: دراسة موضوعية لأحاديث من الصحيحين، بإشراف: الفاتح، الحبر عمر أحمد، السودان-جامعة أم درمان الإسلامية، 2008، (43-46)، (101-105). * قد استعدت من تبويبات هذه الدراسة.

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرفاق، (89/8).

⁴ انظر: حسين، عمر علي، المقاصد التربوية في سورة النحل وأثرها في بناء شخصية الفرد، رسالة ماجستير، إشراف خالد خليل إبراهيم، كلية العلوم الإسلامية_جامعة ديالى، (118_119).

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (12/8).

ب. اجتناب الغيبة، والنميمة، وأشار البخاري إلى ذلك في: (بَابُ الْغَيْبَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾، و(بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ النَّمِيمَةِ وَقَوْلِهِ ﴿هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ﴾). بالتحذير من هاتين الآفتين.

ت. اجتناب السخرية والاستهزاء، وأشار البخاري إلى ذلك في باب: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾)¹.

ث. اجتناب المبالغة في المدح، وأشار البخاري إلى ذلك في باب: (بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّمَادُحِ).

المعلم الثاني: ترسيخ الأخلاق الإيجابية: فتراجم كتابي الأدب والرفاق رسمت للمسلم صورة تُعبّر عن نُبل قيمه وأخلاقه العليا التي يستمدّها من وحي الشريعة، ومن الأخلاق التي دعت إليها:

أ. السخاء، واجتناب الشحّ والبخل، وأشار البخاري إلى ذلك في: (بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ)².

ب. الأمانة، واجتناب الخيانة، وأشار البخاري إلى ذلك في: (بَابُ رَفْعِ الْأَمَانَةِ)³.

ج. الصدق، واجتناب الكذب، وأشار البخاري إلى ذلك في: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وَمَا يُنْهَى عَنِ الْكُذْبِ)⁴.

د. العدل، واجتناب الظلم، وذلك ما جاء في: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾).

هـ. الوفاء وحفظ العهد، وهذا ما أشار إليه البخاري في: (بَابُ: حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ).

وغيرها ممّا تضمنته تراجم كتابي الأدب والرفاق من الأخلاق والآداب، التي تضبط سلوك المسلم، وتحفظ

له هويته، وتصور الحقوق بين الأفراد، وتقوي الروابط بينهم.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (15/8).

² المرجع السابق، (13/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرفاق، (104/8).

⁴ المرجع السابق، كتاب الأدب، (25/8).

الفرع الرابع: معالم بناء الشخصية وفق الأبعاد الاجتماعية.

وظهر أثر هذه الأبعاد في تنظيم علاقة المسلم مع ربه ابتداءً ثم مع المجتمع، فشكلت هذه الأبعاد بمجموعها بما حوته من فضائل الآداب، ومكارم الأخلاق، إنساناً اجتماعياً راقياً فذا فريداً، فكان كلٌّ من يراه يرى بجميل خصاله، سمو النظام الإسلامي وشموليته، فالإنسان المؤمن شخص اجتماعي، فهو في رابطة دائمة مع الناس، وما أودعه الله في فطرته من التعاون على البرِّ والتقوى يستدعي منه ذلك، فالأصل في الشرع الاختلاط لا العزلة؛ لما يترتب عليه من المنافع، وهو صاحب رسالة لا يمكن له من تحقيقها إلا بالتواصل، وبرزت ملامح شخصيته في الجوانب الآتية:

1. مؤمن مطيع لربه، يتصف بأعلى معاني العبودية، وهذا مما لا حصر له، فالتزام المؤمن لأوامر ربه في كلِّ مجال من المجالات الإيمانية، أو الأخلاقية، أو النفسية، أو الاجتماعية، هو مما يحقق مفهوم الطاعة.
2. بارٌّ بوالديه، شديد الحذر من عقوقهما، ومن صور البرِّ التي أشار إليها البخاري في تراجمه: (باب: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ)، و(باب: لَا يُجَاهِدُ إِلَّا بِإِذْنِ الْأَبَوَيْنِ)، و(باب: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْكَبَائِرِ)¹.
3. الأبَّ القدوة في تربية أبنائه، من يعتني بحقوقهم النفسية والمادية، وأشار البخاري لذلك في عدّة تراجم منها: (بابُ رَحْمَةِ الْوَالِدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ)، و(بابُ قَتْلِ الْوَالِدِ حَشِيَّةً أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ)².
4. ملتزم بهدي الإسلام في حقوق زوجه، وأشار البخاري لذلك في: (باب: كَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ).
5. واصلاً لرحمه، حتى وإن لم يصلوه، وأشار البخاري لذلك في عدّة أبواب منها: (بابُ فَضْلِ صَلَاةِ الرَّحِمِ)، و(بابُ إِثْمِ الْقَاطِعِ)، و(باب: نَيْسَ الْوَأَصِلُ بِالْمُكَافِئِ)³.
6. محسناً إلى جاره، لا يصدر منه ما يؤذيه، وأشار البخاري لذلك في عدّة أبواب منها: (بابُ الْوَصَاةِ بِالْجَارِ)، و(بابُ إِثْمِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَأَيْقِهِ).

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (14/8).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (8/8).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (6/8).

7. يحب إخوانه في الله، ويسعى لكل ما يحفظ هذه العلاقة بينهم، وأشار البخاري إلى ذلك في تراجم كثيرة، منها: (بَابُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ)، وغيرها من التراجم التي راعت حق الإخوة في النصرة، والمعونة، وحفظ حقوقهم.

8. يقيم علاقته مع أفراد مجتمعه على أساس العدل والإحسان¹. وهذا ما أشار إليه البخاري في: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}).

وبهذا التكامل بين العلاقات، تبرز عناية الإسلام في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع، وقيامها على أساس المحبة والتعاون، فالأفراد هم أساس بناء المجتمعات، وهم المنطلق الذي يعول عليه في كل نهضة اجتماعية، أو تقدم حضاري.

الفرع الخامس: حسن إدارة الأزمات في الحياة.

إن الحياة لا تخلو من ابتلاءات وفتن، فهي سنة من سنن الله في أرضه، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُرْكَوُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْنَاوهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2]، فقد يبئلى المسلم بمرض، أو فقد عزيز، أو فقر، أو قد يتعرض لعدو غاشم، يأسر، ويقتل، ويهدم البيوت، وقد يبئلى بمحيط اجتماعي قد لا ينتمي إليه ويؤثر على ثباته، فما هو أثر هذه الأبعاد في القدرة على مواجهة مثل هذه الأزمات التي تحوط بالمسلم؟

• إدارة الأزمات على المستوى الشخصي، ومن صورته:

1. الصبر خير سلاح يواجه به المسلم ما يتعرض له من أزمات، فهو مفهوم واسع يتضمن كلا من الصبر في الثبات على الطاعة، والصبر في مجاهدة النفس على ترك المعاصي والشهوات، والصبر على الابتلاءات، والمحن، وضبط النفس، بالصبر على الأذى وكظم الغيظ. فالصبر هو الذي يعين على تحمل المشاق وتكاليف الشرع بنفس راضية مطمئنة، ويقهر النفس ويزجرها عن ارتكاب النواهي، وهو الذي يجعلها تحتسب ما تلاقيه من الأقدار المؤلمة². ومن ظفر

¹ انظر: الهاشمي، محمد علي، شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، (ط10/ 1423 هـ_2002م). وقد اعتمدت في تقسيم هذه المجالات على ما جاء في هذا الكتاب لموافقته ما تضمنته تراجم كتابي الأدب والزقاق من أبعاد.

² انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (321/1).

بهذه الغنيمة، هانت عليه كثير من الصعاب، فلا عجب من ابن عمر بعدها، حين قال: " إنا وجدنا خير عيشنا بالصبر"¹.

2. مواجهة الابتلاءات بالتوكل على الله والثقة به، مع أخذ الأسباب المناسبة، فالتوكل هو الذي يثبت النفس ويسليها، وهو الذي يمنحها القدرة على التحمل والثبات، والصبر على مكابدة الأمراض، والأعداء، والبلاء بجميع صنوفه وأشكاله. وأمّا من خلا قلبه من التوكل على الله، فسرعان ما ينهار، ويبتلى بأنواع الأمراض النفسية، التي قد تؤدي به إلى الانتحار.²

3. العزلة، توجيه نبوي للعبد باعتزال الناس وقت الفتن؛ لمن خاف على سلامة دينه. وهذا ما كان سبب نجاة الفتية المؤمنین حين لجأوا إلى الكهف فرارا بدينهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف:16].

• إدارة الأزمات على المستوى المجتمعي، ومن صورته:

1. المؤاخاة بين المسلمين، وهو صمام الأمان في مواجهة أي مخاطر تحوط بالمجتمع، وهو الزباط الذي يوحد الأمة ويجمعها، وأكبر دليل على ذلك، ما حصل من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حين ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم وأولادهم، فكانت المؤاخاة التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم وما امتاز به المهاجرين من خلق الإيثار من أعظم المعينات على ثباتهم. وما أحوج الأمة اليوم لإعادة مفهوم المؤاخاة، ودوره في التخفيف والمواساة عن المسلمين في ظلّ الحروب، والمجاعات، والكوارث، وهذا التوجيه برز في حديث الباب الذي رواه أنس رضي الله عنه، مرفوعا: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُجِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُجِبُّ لِنَفْسِهِ"³. فمن حق الأخ أن يشعر بأن له إخوانا يؤازرونه في السراء والضراء، وأنه يستمد قوته منهم. يقول الغزالي: "وأخوة الدين تفرض

¹ ابن المبارك، الزهد والزرّاق، (630/222).

² انظر: خالد السبت، أعمال القلوب، (560/2).

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، (باب: من الإيمان أن يُجِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُجِبُّ لِنَفْسِهِ)، حديث رقم (13)، (12/1).

التناصر بين المسلمين..، فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده في معترك، بل لا بدّ من الوقوف بجانبه على أي حال لإرشاده إن ضلّ..، والدفاع عنه إن هوجم، والقتال معه إن استبيح..وذلك معنى التناصر الذي فرضه الإسلام". ويضيف أيضا بأنّ: "الإنسان وحده أضعف من أن يقف طويلا تجاه هذه الشدائد، ولئن وقف إنه لباذل من الجهد ما كان في غنى لو أنّ إخوانه أهرعوا لنجدته وظاهروه في إنجاح قصده"¹.

2. التكافل الاجتماعي ودوره في رعاية الفئات المحتاجة في المجتمع كالفقراء، والمساكين، والأرامل، واليتامى، للقضاء على ظاهرة التسوّل، والبطالة، والفقير.

المبحث الثاني: صفات البناء التربوي للشخصية المسلمة من خلال التراجم

يمتاز البناء التربوي للشخصية المسلمة كما أوضحته تراجم كتابي الأدب والرفاق، بعدّة صفات جعلت منه منهاجا شاملا متكاملا، ومن ذلك:

أولاً: الشمولية والتكامل في البناء التربوي للشخصية المسلمة.

إنّ ما يميّز البناء التربوي للشخصية الإسلاميّة شموله لكلّ جوانب الإنسان وما يدور حوله من علاقات، فما تراه من التكامل بين هذه الجوانب يعكس صورة البناء التربوي الفريد للشخصية المسلمة وتميّزه عن كثير من فلسفات ونظريات التربية المعاصرة.

فتجده شمل علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقة الإنسان بنفسه، بل وتضمّن أيضا علاقة الإنسان بالبهائم، ومن ذلك ما جاء في ترجمة: (بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ)². فلم يغفل عن أي دائرة منها.

¹ الغزالي، محمد السقا، (1416هـ)، خلق المسلم، (ط1/1408هـ-1987م)، دار الريان للتراث_ القاهرة، (173). انظر: الشلوي، شهد بن ناجي بن عبيد، دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات من خلال السيرة النبوية في العهد المدني، بحث محكم، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس -كلية التربية-الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، ع244، (125_122).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (9/8).

بل ولم يغفل هذا البناء عن أهمية الجانب النفسي للشخصية المسلمة، واستقرارها وتوازنها، وهذا ما أشار إليه البخاري في كثير من التراجم، منها: (بَابُ رَحْمَةِ الْوَالِدِ وَتَقْيِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ)، و(بَابُ اسْمِ الْحَزْنِ).

ومن صور التكامل في هذا البناء التوازن الذي يقيمه بين جانب الرّوح والجسد، بالقدر المطلوب الذي يجعله يؤدي رسالته دون خلل، ومن ذلك ما جاء في ترجمته ب: (بَابُ الْقَصْدِ وَالْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعَمَلِ). فلم يغفل الجانب الرّوحي، وفي الوقت نفسه نهى عن الرهبانية بكل صورها واعتزال الناس، وهذا ما نلمحه في ترجمة: (بَابُ: الْعَزْلَةُ رَاحَةٌ مِنْ خُلَاطِ السُّوءِ)¹.

وكذلك لم يُهمل جانب البناء الفكري للمسلم فخطب العقل ودعاه إلى التفكّر وجعله الطريق للاستدلال بوجود الله واستشعار قربهِ ومعيتِهِ، وبرز ذلك في ترجمته: (بَابُ رَفْعِ الْبَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: 17، 18]².

ثانيا: الثبات في البناء التربوي للشخصية المسلمة.

إنّ صفة الثّبات الذي امتاز به البناء التربويّ للمسلم يجعله صالحا لكلّ زمان ومكان؛ فالذي فطر النفوس أعلم بما يصلح لها، وهناك أمور ثابتة لا تتغير بتغيّر الأزمان كأمر العقيدة والأخلاقيات، فمن الثوابت الراسخات في البناء العقدي للمسلم، والتي تناولته تراجم كتاب الرّفاق، الإيمان باليوم الآخر، والنظر إلى الدنيا أنها دار ابتلاء، وهذا ما أشار إليه البخاري في كثير من تراجم كتاب الرّفاق، منها: (بَابُ مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ)، و(بَابُ نَفْخِ الصُّورِ)، و(بَابُ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ)³. وغيرها من الأبواب التي بيّنت حاجة المسلم الدائمة إلى استحضار اليوم الآخر وأثره في توجيه سلوك المسلم.

وفي مجال الأخلاقيات تبرز صفة الثبات بوضوح، وبيان دورها في بناء المسلم، فمن ذلك الدعوة إلى التواضع وتحريم الكبر الذنب الأوّل الذي كان سببا لخروج إبليس من الجنة، ولا زالت آثار هذا الذنب حتى

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرّفاق، (103/8).

² المرجع السابق، كتاب الأدب، (47/8).

³ المرجع السابق، كتاب الرّفاق، (113/8).

الآن واضحة في هلاك صاحبها وتدمير كثير من علاقاته، وهذا ما أشار إليه البخاري في: (بابُ الكِبْرِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: {ثَانِي عَطْفِهِ} مُسْتَكْبِرٌ فِي نَفْسِهِ، عَطْفُهُ: رَقَبَتُهُ)¹، و(بابُ التَّوَّاضُعِ)².

وما هي إلا صورة من صورِ شتى من الثبات في البناء التربوي، ففي جميع أنواع المعاملات التي يصادفها الإنسان في حياته جُعِلَ العدل هو الحد الأدنى في العلاقات.

إن الثبات في البناء التربوي هو الذي يحفظ للفرد هويته الإسلاميّة، وهو الذي يحفظ المجتمع من التفكك والانهييار أمام تبدل القيم وانحراف منظومة الأخلاق، فهي مبادئ ثابتة في الشرع استقتها تراجم كتابي الأدب والرفق من معينه ما يصلح ليكون منهاج حياة.

ثالثاً: المرونة في البناء التربوي للشخصيّة المسلمة.

ولمّا كانت الأخلاق والعقيدة صفة ثابتة في البناء التربوي، جاءت صفة المرونة لتبين صلاح هذا البناء واعتداله، وقابليته للتغيّر، والأخذ بأيسر الحلول، ودفع شرّ الشرين، وتقبّل الآخر، ومن صور ذلك ما جاء في (باب: الْمُدَارَاةَ مَعَ النَّاسِ وَيُذَكِّرُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ إِنَّا لَنَكْثِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ)³. فالمدارة جائزة لما يترتب عليها من المصلحة، ودفع الأذى⁴.

وكذلك من صور المرونة في البناء التربوي، الحث على الرفق والتحلي به، وذلك ما جاء في (باب: الرَّفْقِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ)، من الرفق بالنفس وعدم التشديد عليها أو على الغير.

ومن صور المرونة أيضاً ما جاء في (باب: الْعُرْلَةَ رَاحَةً مِنْ خُلَاطِ السُّوءِ) من جواز العزلة أو الخلوة لمن خاف على دينه من الفتنة، ولا يعني هذا الانعزال عن الناس بشكل تام، بل يكون ذلك بصورة مؤقتة، أو عند اللزوم، ويجوز ذلك أيضاً اتخاذ الخلوة دواءً لمراجعة النفس وإصلاحها، وإلا فالأصل في العلاقات كما تبين الخلطة لا العزلة⁵.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (20/8).

² المرجع السابق، (105/8).

³ المرجع السابق، كتاب الأدب، (31/8).

⁴ انظر: هلال، محمد هلال الصادق، المرونة في العمل الدعوي: دراسة تأصيلية، بحث محكم، جامعة أم القرى، ع61، 2014، (266)، (307)

⁵ هلال، المرونة في العمل الدعوي: دراسة تأصيلية، (283).

رابعاً: التوازن في البناء التربوي للشخصية المسلمة.

إنّ المتتبع لتراجم كتابي الأدب والرفاق يلحظ صفة التوازن في البناء التربوي للشخصية المسلمة في كافة المجالات، ففي المجال العقدي جاءت ترجمة: (بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ)¹ لبيّن توازن المسلم في سيره إلى الله بالجمع بين الرجاء والخوف بحيث لا يطغى جانب على آخر، كجناحي الطائر.

وكذلك ترى صورة التوازن في المجال الروحي والتعبدي للمسلم ففي (بَابُ: الْقَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ) يدعو ليوازن بين حاجات الروح والجسد، وأن يكون قصداً بينهما، فيعطي نفسه حقّها من الراحة، ويلبي رغباتها باعتدال، دون أن يقصر في عبادته.

بل ويظهر التوازن في المجال الأخلاقي ففي (بَابُ: الْحَيَاءِ)² جُعِلَ الْحَيَاءُ أَسَاساً فِي اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي وَمَا تَسْتَقْبِحُهُ النَّفُوسُ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ يَجِبُ أَلَّا يَمْنَعَهُ مِنْ أَنْ يَسْتَوْفِيَ حَقُوقَهُ، أَوْ أَنْ يَنْفَقَهُ فِي دِينِهِ، أَوْ يَسْأَلَ مَا يَنْفَعُهُ، وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَخَارِيُّ فِي (بَابُ: مَا لَا يُسْتَحْيَا مِنَ الْحَقِّ لِلتَّقَهُ فِي الدِّينِ).

وكما جاءت صفة التوازن واضحة في المجال الاجتماعي لبناء المسلم، ففي (بَابُ: الْعُزْلَةُ رَاحَةً مِنْ خُلَاطِ السُّوءِ) أعطت للمسلم حظّه من العزلة والجلوس مع نفسه ليراجعها ويحاسبها، لكنّه تبيّن أن هذه العزلة مؤقتة غير دائمة، مقيدة بخلطاء السوء.

وبهذا تظهر أهمية صفة التوازن في بناء الشخصية المسلمة وإعدادها فهي تلبّي حاجات النفس، وتحفظ لها توازنها باعتدال، وتضبط سلوك المسلم، بما يتوافق مع تعاليم الشرع.

خامساً: الإيجابية السوية في البناء التربوي للشخصية المسلمة.

ومن صفات البناء التربوي الإيجابية فهو يهدف لإيجاد الإنسان الصالح الذي يتفاعل مع أفراد مجتمعه، ويسعى لتقديم الخير لهم، صالحاً في نفسه، مصلحاً لغيره، يسهم في بناء مجتمعه³، وهذا ما نلمحه في

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرفاق، (99/8).

² المرجع السابق، كتاب الأدب، (28/8).

³ انظر: جودة، الآراء التربوية للشيخ محمد قطب من خلال كتاباته، (43_42).

كثير من تراجم كتابي الأدب والرفاق، فهي تسعى لبناء المسلم الملتزم بأوامر ربه، صاحب الخلق الحسن، فلا يظلم نفسه بارتكابها للمحرمات، ولا يظلم غيره بالاعتداء عليهم.

وهي تُعدّ المسلم الذي يلتزم بأداب البرّ والصلّة، باراً لوالديه، يقدّم حقّهما على الجميع، واصلاً لرحمه، جاء ذلك في تراجم عدة، منها (بَاب: مَنْ أَحَقَّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ)، و (بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الرَّجْمِ)¹.

كما وظهرت آثارها واضحة في أبواب التكافل الاجتماعي المعنوي والمادي، فهي التي تنشئ المسلم على توقير الكبير، وإعانة المحتاج، والأرملة، والمسكين، واليتيم، وبرز ذلك في (بَاب: إِكْرَامِ الْكَبِيرِ وَبَيْدَا الْأَكْبَرِ بِالْكَلَامِ وَالسُّؤَالِ)، و (بَاب: السَّاعِي عَلَى الْأُرْمَلَةِ)، و (بَاب: السَّاعِي عَلَى الْمُسْكِينِ)، و (بَاب: فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا)².

وهي التي توجد المسلم الفاعل في مجتمعه، من يسعى لخدمة إخوانه ومعونتهم، ويؤثرهم على نفسه، وهذا ما برز في: (بَاب تَعَاوُنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)، و (بَابُ الْإِخَاءِ وَالْحَلْفِ)³، و (بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ).

المبحث الثالث: معيقات البناء التربوي للشخصية المسلمة في تراجم كتابي الأدب والرفاق.

وقد بيّنت تراجم البخاري في كتابي الأدب والرفاق عددا من المعيقات التي تواجه البناء التربوي للمسلم وتقف عقبة في طريق تحقيقه، ومنها:

(1) الشيطان: فمن أعظم أسباب ضلال الإنسان وغوايته؛ فهو الذي يزيّن له المنكرات ويبدّل الحقائق، ويجعله يتمادى في الذنب، وفي التحذير منه والدعوة إلى اتخاذه عدوّاً، وفي ذلك ترجم البخاري:

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (5/8).

² المرجع السابق، (9/8).

³ المرجع السابق، (22/8).

(﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ

فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ [فاطر: 5، 6] ¹.

(2) حبّ الدنيا: ومن الأمور التي فطر عليها الإنسان وتقف عائقا أمام هدايته، حبّ الدنيا والتعلق بها، وفي ذلك ترجم البخاري: (بَابُ مَا يُحْدَرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا) للتحذير من الاغترار بها وبزخارفها الفانية؛ فحب الدنيا يعمي الأبصار ويجعل الإنسان يطغى فلا رادع له ولا حسيب، وهي التي تشغل الإنسان عن الهدف من وجوده، ولولا فتنتها لما كان النبي صلى الله يخشى على أمته منها، فعن عمرو بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قَوْلَ اللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَحْسَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْسَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ" ².

(3) طول الأمل: يعدّ طول الأمل من أعظم أسباب غفلة الإنسان، وتكاسله عن الطاعة، فلو استحضر الإنسان دنو أجله، وأكثر من ذكر الموت، لنشط على الطاعة، وابتعد عن التسويف، فكان في جاهزية للقاء الله، وهذا ما نلمحه في تعليق القرطبي على قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلَ﴾ [الحجر: 3]: "قَالَ الْأَمْلُ يُكْسِلُ عَنِ الْعَمَلِ وَيُورِثُ التَّرَاجِي وَالتَّوَانِي، وَيُعَقِبُ التَّشَاغُلَ وَالتَّقَاعُسَ، وَيُخْلِئُ إِلَى الْأَرْضِ وَيُمِيلُ إِلَى الْهَوَى، وَقِصَرَ الْأَمَلِ يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ، وَيُجْبِلُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ، وَيَحْتُ عَلَى الْمُسَابَقَةِ" ³.

(4) الشهوات: وهي من القوى التي تسيطر على الإنسان، وتخرجه عن اعتداله، فإذا غلب شهوته صيرته من تكريم الإنسانية إلى البهيمية، وهي من أعظم أسباب دخول النار، وفي التحذير منها ترجم البخاري: (بَابُ: حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) ⁴. وفي باب آخر بين البخاري أنواع الشهوات التي تكون سببا في فتنه الإنسان وحذر منها، وهي: النساء، والأولاد، والمال، والأنعام، فترجم: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا الْمَالُ حَضْرَةٌ خُلُوةٌ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿زِينَةَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (92/8).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الرقاق وألا عيش إلا عيش الأجرة، حديث رقم (6425)، (90/8).

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (3/10).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (102/8).

وَالْبَيْنِ وَالْفَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: 14]. وبين السبل التي تعين الإنسان في النجاة من فتنها، فدعا إلى الوسطية فلم يهملها ولم يجعلها تسيطر على عقل الإنسان وتشغله عن غايته.

(5) الجهل: وهو من أعدى أعداء المسلم التي تقف أمام طريق هدايته، فجهل المسلم بربه هو الذي يقف في طريق إخلاصه، فلو عرف الله بأسمائه وصفاته حق المعرفة، لما التفت لغيره، وما تعلق قلبه إلا به، وقد تضمنت تراجم كتابي الأدب والرفاق ما يدعو إلى التسلح بالعلم، كدراسة سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه، ودراسة سير السلف الصالح والتأسي بهم، وهذا من أعظم ما يفتقده المسلم في ظل غياب القدوات، ومن ذلك ما جاء في (باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا)¹، و(باب: في الهدى الصالح).

(6) البيئة غير الصالحة: إذ إنها من أعظم المعوقات التي تقف في طريق بناء المسلم، ويزداد أثرها في ظل الانغماس في وسائل التواصل، وتبدل القيم، وضياع الأمانة، وانتشار الفساد والباطل، والانبهار بحضارة الغرب وتسرب مدخلاتها، حتى استحوذت على عقول الكثير وسلختهم عن طابعهم الإسلامي، وعندما أصبحت البيئة مكتظة برفقاء السوء جاءت العزلة ملجأ للمسلم ينأى به عن أهل الفساد، وهذا ما أشار إليه البخاري في: (باب: العزلة راحة من خلط السوء)².

(7) الحسد: والحسد تمنى زوال النعمة عن الغير، وهو آفة نفسية واجتماعية؛ فيسلب صاحبه الرضا والقناعة، ويجعله يسخط على أقدار الله، ولا يتوقف حده عند الرغبة بتمنى زوال النعمة عن المحسود، بل تتعدى ذلك، فقد يقوم الحاسد لغيظه بالتعرض لأذى المحسود، فما دفع الأخ لقتل أخيه في قصة ابني آدم إلا بسب الحسد، وفي النهي عن هذه الآفة ترجم البخاري: (باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر)³.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرفاق، (96/8).

² المرجع السابق، (103/8).

³ المرجع السابق، كتاب الأدب، (19/8).

8) الغضب: وهو انفعال نفسي يسلب الإنسان القدرة على التحكم بنفسه، فيوقعه فيما لا تحمد عاقبته، وتسوء أقواله وأفعاله. وفي الحذر منه ترجم البخاري: (باب الحذر من الغضب) في الدعوة إلى تجنب أسبابه، وبيان سبل التغلب عليه من ضبط النفس، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

9) قسوة القلب: فقسوة القلب من أعظم أسباب التمادي في الذنب، وهي سبب حرمان العبد مقام خشية ومعرفة ربه، وعلّة الجشع والحرص على الدنيا، والإعراض عن الآخرة والغفلة عن أهوالها. وفي الحذر من هذا الداء يقول سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 22] ويقول حذيفة المرعشي: "ما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه"¹.

10) قطيعة الرحم: إذ إنها من كبائر الذنوب التي تمنع صاحبها من دخول الجنة، وحرمانه من رحمة الله وإحسانه، كما وتحرمه البركة في الرزق والعمر، وهي سبب لعنة الله عليه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿٢٣﴾] [محمد: 22-23]. بالإضافة إلى أنها تؤدي إلى التفكك الأسري، وانتشار العداوة والبغضاء بين الأقارب. وفي التحذير منها ترجم البخاري: (باب إثم القاطع)².

وبهذا تبرز شمولية النظرية التربوية لدى الإمام البخاري في تراجمه، والتي انبثقت من وحي آيات القرآن، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وآثار الصحابة، وما يميزها من التوازن والتكامل الذي ينظم علاقة المسلم مع خالقه، ومع نفسه، ومع المجتمع حوله، بما يتفق مع البناء العقدي للمسلم، فالغاية من الخلق هي تحقيق العبودية لله، وهذا ما برز في تراجم كتابي الأدب والرفاق، وآثارها التي انعكست على الجوانب الإيمانية، والنفسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والتي تمثل مجموعها ما يكون سببا لإعداد الإنسان الصالح العابد، بما يصلح لأن يكون منهاج حياة.

¹ الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (269/8).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، (5/8).

الخاتمة

الحمد لله حمدا لا ينفد أن بلغنا الوصول إلى النهايات، وما توفيقنا إلا برحمته وفضله، جلّ أهل الثناء والمجد، وبعد دراسة أهم الأبعاد التربوية المستنبطة من تراجم كتابي الأدب والرقاق، كان من أهم النتائج التي توصلت إليها:

- الأبعاد التي تضمنها كتابي الأدب والرقاق هي: الأبعاد الإيمانية، والنفسيّة، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة.
- ركّز البخاريّ في كتاب الأدب على الجانب الاجتماعي والأخلاقي، وأمّا كتاب الرقاق فقد ركّز فيه على الجانب الإيماني والنفسي، وذلك بما يتوافق مع مضمون أحاديث الباب في كل منهما.
- برزت الأبعاد الإيمانية عند البخاري في: تربية النفس على الإخلاص، التوكل على الله، الحصانة من فتنة الدنيا والتنافس فيها.
- أظهرت تراجم البخاري معلم الوسطية في الدين، كالوسطية وعدم الغلو والتشدد في الدين، والاعتدال في العبادة، والاعتدال في المدح وعدم المبالغة، والتوازن بين الخوف والرجاء.
- برزت الأبعاد الأخلاقيّة عند البخاري في: الوفاء وحفظ العهد، حفظ اللسان، التحلي بالحياء، التحلي بالصدق.
- برزت الأبعاد النفسيّة عند الإمام البخاري في: تجنب الغضب، مجاهدة النفس، تربية النفس على الصبر، الرضا وترويض النفس على القناعة، وظهر تركيز البخاري فيها على أثر ضبط النفس.
- برزت الأبعاد الاجتماعيّة عند البخاري في: التماسك الأسري، والتكافل الاجتماعي، كف الأذى عن المسلمين، فالأساس في العلاقات بين المؤمنين هي العدل والإحسان.
- إنّ البناء العقدي للعبد هو الأساس الذي يضبط سلوكه، ويحفظ علاقاته مع الآخرين.
- من أهم معيقات البناء التربوي للشخصيّة المسلمة: الشيطان، وحبّ الدنيا، والشهوات، الجهل، والبيئّة.
- إنّ من صفات البناء التربوي للشخصيّة المسلمة كما بيّنته التراجم: الشمول والتكامل، الثبات، المرونة، الإيجابيّة السويّة.

- كشفت التراجم عن ظاهرة التناسب بين الأبواب، والتي ساهمت في توضيح مراد البخاري من الترتيب، فجاءت مفسرة مكتملة لبعضها البعض.
- شمول النظرية التربويّة عند الإمام البخاري.

التوصيات

- تزويد المكتبات الإسلاميّة، بأبحاث تناولت التراجم في مجال الأبعاد النفسية، لا سيّما في كتب المرضى، والمعاملات، والعبادات.
- عقد دورات تربويّة ومؤتمرات تهدف إلى الوقوف على صنيع الإمام البخاري في تراجمه، وما ينطوي عليها من توجيهات تربويّة.
- الكشف عن الجوانب التربويّة في السنّة النبويّة، وضرورة تطبيقها في المدارس.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي أبو العباس (ت 668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1431هـ.

ابن أبي جمرة، أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي (699هـ)، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، دار الجيل، بيروت - لبنان.

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي _ محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ - 1979م.

ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو (ت 643هـ)، صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1408.

ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر (ت 543هـ)، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3، 1424هـ - 2003م.

ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (691 - 751)، تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق: عثمان بن جمعة ضميرية، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، ط4، 1440هـ - 2019م.

ابن القيم، **الداء والدواء**، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، ط4، 1440 هـ - 2019 م.

ابن القيم، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27، 1415 هـ-1994 م.

ابن القيم، **مدارج السالكين في منازل السائرين**، تحقيق نبيل بن نصار السندي، الناشر: دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1441 هـ - 2019 م.

ابن المبارك، **عبد الله المروزي (ت 181 هـ)**، **الزهد والرقائق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، محمد عفيف الزعبي.

ابن الملقن، **سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد (723-804 هـ)**، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث بإشراف خالد الرباط، جمعة فتحي، دار النوادر، دمشق - سوريا، (ط1)، 1429 هـ - 2008 م.

ابن بطلال، **أبو الحسن علي (449 هـ)**، **شرح صحيح البخاري لابن بطلال**، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض - مكتبة الرشد.

ابن حجر الهيتمي، **أحمد بن محمد بن علي السعدي الأنصاري (ت 974 هـ)**، **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، دار الفكر، ط1، 1407 هـ - 1987 م.

ابن حجر، **أحمد بن علي بن حجر أبو فضل العسقلاني (ت 852 هـ)**، **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**، تحقيق: سمير بن أمين الزهري، دار الفلق، الرياض، ط7، 1424 هـ.

ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت،
1379.

ابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري، تحقيق، عبد القادر سيبية الحمد، ط1، 1421هـ_2001.
ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل (164 - 241 هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد
شاکر، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1416هـ- 1995 م.

ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد
الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ - 2001 م.

ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد الحنبلي (795هـ)، جامع العلوم
والحكم في شرح خمسين حديثاً، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، دار الإعلام، القاهرة، ط2،
2004_1224.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر (1393هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية،
تونس، 1984 هـ.

ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد (ت 1421هـ)، شرح رياض الصالحين، دار الوطن، الرياض،
ط1، 1426هـ.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء أبو الحسين (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام
محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت 273 هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد
الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، (ت 711هـ)، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر - بيروت، ط3، 1414 هـ.

أبو زناد، خليل، اللعب يعيد فرح الطفولة وينعش الذهن والجسد، صحيفة الغد الأردنية، ع524.

أبو زهرة، محمد بن أحمد (1898_1974)، التكافل الاجتماعي في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة.

أبو لحية، نور الدين، الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد، دار الكتاب الحديث، القاهرة.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، 1397هـ - 1974م.

آل الشيخ، عبد العزيز بن عبد الله بن محمد، صلة الرحم: معناها وفضلها وأهميتها، مجلة البحوث الإسلامية، الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء، ع120، 2019.

آل عبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد بن علي، الحب في الله والبغض في الله، دار الوطن، الرياض، ط1، 1421هـ-2000م.

الألباني، محمد ناصر الدين (1420هـ)، صحيح سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1420هـ-2000م.

بارشيد، عبد الله محمد، المضامين التربوية في كتابي (الإيمان و الرقاق) من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم التربية، 1425هـ - 1426هـ.

بتبغور، عبد القادر، التكافل الاجتماعي: أنواعه وأسس التربوية في القرآن الكريم، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران، ع 8، 2018.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (194_256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، دار طوق النجاة-بيروت، ط1، 1422هـ.

بدح، مجدي حسن، الأبعاد التربوية لأحكام الزواج والطلاق في ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1421 هـ_ 2001 م.

البستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان (ت 354هـ)، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت.

البغدادي، ضحى سليمان، بنات، سهيلة محمود صالح، أداء الوالدين لمسؤولياتهم الأسرية وأثره على التماسك الأسري، رسالة ماجستير، جامعة عمان العربية، الأردن.

بك، أماني عثمان محمد، دور السنة في اعتدال سلوك المسلم: دراسة موضوعية لأحاديث من الصحيحين، بإشراف: الفاتح، الحبر عمر أحمد، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية أصول الدين، السودان، 2008.

البلقيني، أبي حفص عمر بن رسلان بن نصير، تراجم البخاري المسمى مناسبات أبواب صحيح البخاري لبعضها بعضاً، تحقيق الدكتور أحمد بن فارس السّلم، الرياض_ مكتبة المعارف، ط1، 1431هـ_2010.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى(ت279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط1، 1996م.

التميمي، عز الدين خطيب، الدفاع الاجتماعي في مرآة الإسلام، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، عمان، الأردن.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت 816هـ)، التعريفات، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م.

جودة، أسامة عبد الرحمن، الآراء التربوية للشيخ محمد قطب، الجامعة الإسلامية، كلية التربية، غزة، 1432هـ - 2011م.

الحازمي، خالد بن حامد، أصول التربية الإسلامية، دار عالم الكتب، ط1، 1420هـ.

حجازي، سامي عفيفي، حقيقة خلق الحياء وأثره في بناء المجتمع، فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، ج45.

الحربي، هيا صالح محض الحذيفي، بعض المبادئ التربوية المستنبطة من كتاب التجهد والرقائق في الصحيحين، جامعة أم القرى، كلية التربية، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، المملكة العربية السعودية، 1429هـ - 1428هـ.

حسين، عمر علي، المقاصد التربوية في سورة النحل وأثرها في بناء شخصية الفرد، رسالة ماجستير، إشراف خالد خليل إبراهيم، جامعة ديالي، كلية العلوم الإسلامية.

الحقباني، مشاعل بنت سعد، الإيذاء في العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، ع121، 2019.

الحويني، أبي إسحاق الحويني، محاضرات فك الوثاق في شرح كتاب الرقاق.

الحيارى، محمود، التربية الوجدانية للطفل: رؤية إسلامية، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مج 5، ع4، 2009.

الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي(388هـ)، معالم السنن، المطبعة العلمية، حلب، ط1، 1351هـ-1932م.

خطاطبة، عدنان مصطفى، الأصل الأخلاقي للتربية الإسلامية وانعكاساته التربوية، (دراسة تأصيلية)، مجلة العلوم التربوية، جامعة اليرموك، كلية الشريعة، قسم الدراسات الإسلامية، ع3، 1436هـ.

الخولي، محمد عبد العزيز بن علي الشاذلي (ت 1349هـ)، الأدب النبوي، دار المعرفة، بيروت.

الدار قطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود (ت 385هـ)، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، دار طيبة، الرياض، ط1، 1405 هـ - 1985م.

دراز، محمد عبد الله، كلمات في مبادئ علم الأخلاق، المطبعة العالمية، القاهرة، 1372_1953.

الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1404 هـ - 1985 م.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424 هـ - 2003 م.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412 هـ.

الركابي، عارف بن عوض بن عبد الحليم، مقاصد الشريعة الإسلامية في تسمية المولود، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات - دمنهور، جامعة أم القرى، السعودية، ع2، 2017.

الزبيدي، عبد المجيد بن عمر، التكافل الاجتماعي المالي في ضوء السنة النبوية، مجلة الدراسات التربوية والإنسانية، جامعة دمنهور، كلية التربية، مج 6، ع2، 2024.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، (1385 - 1422 هـ) - (1965 - 2001 م).

الزهراني، سعاد بنت سعيد بن درويش، المبادئ التربوية المتضمنة في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، جامعة أم القرى، كلية التربية بمكة المكرمة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، المملكة العربية السعودية، 2005 م.

الزهراني، علي إبراهيم، الأساليب التعليمية المستقاة من خلال تراجم الإمام البخاري على أحاديث كتاب العلم في جامع الصحيح، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج15، ع27، 1424هـ.

السبت، خالد بن عثمان، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ_2017م.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000 م.

السعدي، عبد الفتاح أحمد عبد الحي، وبستان، المتولي علي شحات، الأبعاد التربوية الأخلاقية في التشبيهات القرآنية: سورة الكهف أنموذجاً، جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، مجلة القلم، ع 21، 2020.

سويفي، محمد عبد الحميد محمد، أحكام الضيافة في الفقه الإسلامي، مجلة كلية الشريعة والقانون بأسبوط، جامعة الأزهر، كلية الشريعة والقانون بأسبوط، ع20، ج1، 2008.

الشرعة، ناصر إبراهيم، معالم الفكر التربوي عند الإمام البخاري من خلال تراجم أبواب العلم في صحيحه،
المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، 2015م.

الشعراوي، محمد متولي (ت1418هـ)، تفسير الشعراوي-الخواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997م.

الشلوي، شهد بن ناجي بن عبيد، دور التربية الإسلامية في مواجهة الأزمات من خلال السيرة النبوية في
العهد المدني، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، كلية التربية-الجمعية المصرية للقراءة
والمعرفة، ع244.

الصغير، خلود قاسم محمد، (القيم ودلالاتها التربوية من كتاب الرقاق في صحيح البخاري)، جامعة
اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الأردن، 2014.

الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، أبو إبراهيم، (ت1182هـ)، توضيح الأفكار
لمعاني تنقيح الأنظار، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب
العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1417هـ - 1997م.

ط1، 1408هـ-1987م.

الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د عبد الله بن عبد
المحسن التركي، دار هجر، ط1، 1422هـ-2001م.

عبد السلام، محمد عبد المنعم، علاقة الأخلاق بالدين في الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقايق،
كلية الآداب، ع63.

عبد المذكور، عائشة محمد نور الدين محمد، الخوف والرجاء في ضوء السنة النبوية (دراسة
موضوعية)، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية، مصر.

عتر، نور الدين محمد، الإمام البخاري وفقه التراجم في جامعه الصحيح، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، ع4، 1406هـ_ 1985 م.

عدد من المختصين، بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، دار الوسيلة، جدة، ط4.

العقيل، سعود بن عبد العزيز، آثار الإيمان باليوم الآخر من تفسير الطبري، دار ابن الجوزي، الدمام- السعودية، ط1، 1432هـ.

علوان، عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام، ط1، 1396هـ-1976م.

علي، سحر خليفة أحمد، الأسماء والكنى والألقاب في ضوء القرآن والسنة، المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقايق، جامعة الأزهر، كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة.

العلمي، راشد سعد، مقصد العدل في القرآن الكريم، كلية التربية، الكويت.

العيني، بدر الدين أبي محمود بن أحمد (855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1421هـ-2001م.

الغزالي، محمد السقا، (1416هـ)، خلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة.

الفلاح، عبد الباري العفاقي، الأبعاد التربوية لسؤال في القرآن الكريم، (مقاربة تربوية)، إشراف الدكتور: سعيد القنطري، جامعة عبد الملك السعدي بتطوان، 2015-2016.

قاسم، حمزة محمد، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية

السعودية، 1410 هـ - 1990 م.

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن أبو الفضل (ت 544هـ) إكمال المعلم بفوائد مسلم (شرح صحيح مسلم)، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط1، 1419 هـ - 1998 م.

القرضاوي، يوسف عبد الله رحمه الله (1444هـ)، في فقه الأولويات، ط2، 1316هـ-1996م.

القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (578 - 656 هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، ط1، 1417 هـ - 1996 م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، (ط2)، 1384هـ-1964م.

القسطلاني، أحمد بن محمد (ت: 923هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط7، 1323هـ.

قطب، سيد إبراهيم حسين الشاذلي (1966)، في ظلال القرآن، دار الأصول العلمية، تركيا، ط1، 1440هـ-2019م.

قطب، محمد (1400هـ-1980م)، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط10، 1409هـ-1989م.

قطب، محمد، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط14، 1414هـ-1993م.

الكاندهلوي، محمد زكريا بن يحيى (1402هـ)، الأبواب والتراجم لصحيح البخاري، تحقيق: ولي الدين بن تقي الدين الندوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، ط1، 1433هـ-2012م.

الكرماني، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين (ت 786هـ)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، (ط1، 1356هـ - 1937م)، (ط2، 1401هـ - 1981م).

الکشميري، أمالي محمد أنور شاه بن معظم شاه الهندي (ت 1325هـ)، فيض الباري على صحيح البخاري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية بداهيل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1426 هـ - 2005 م.

الکيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، (ط1، 1407هـ-1987م).

اللياني، فاطمة غازي، الأبعاد التربوية المستنبطة من أحاديث مفردة الرحمة الواردة في صحيح البخاري، مجلة العلوم التربوية والنفسية، المركز القومي للبحوث غزة، مج3، ع15، 2019.

ليلة، نادية نصر المتولي، الأحاديث الواردة في التماسك الاجتماعي، دراسة حديثة موضوعية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ع84، 2021.

الموردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (ت 450هـ)، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، 1986م.

المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي (ت 975هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المحقق: بكري حياني - صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ/1981م.

المحاسبى، الحارث بن أسد، أبو عبد الله (ت ٢٤٣هـ)، رسالة المسترشدين، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة،
مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب - سوريا، ط2، ١٣٩١ - ١٩٧١.

مسعود، زياد محمد حسن، الأبعاد التربوية لمفهوم الولاء والبراء في الإسلام، الجامعة الإسلامية - غزة،
كلية التربية، (2003م).

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد
عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ١٤٣١.

المقدسي، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، (ت ٧٦٣هـ)، الآداب الشرعية والمنح
المرعية، عالم الكتاب.

الملا القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الهروي (ت ١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح
مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط1، 1422هـ_2002م.

المنائوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي (ت ١٠٣١هـ)، فيض التقدير،
المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، ١٣٥٦.

المنائوي، محمد بن إبراهيم بن إسحاق (ت ٨٠٣هـ)، كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث
المصابيح، تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، دار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان،
ط1، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، 1420هـ
_1999م.

نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، ط7، 1421هـ.

النشاي، محمد السيد عبد العظيم، الجوانب النفسية لقصة موسى في ضوء القرآن الكريم، دراسة تفسيرية موضوعية، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية، مصر، ع39.

النوي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت 676 هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392.

النوي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت 676 هـ)، الأنكار، تحقيق: عبد القادر الأرئوط، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط1، 1414 هـ - 1994 م.

النوي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت 676 هـ)، روضة الطالبين وعمدة المفتين، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - عمان، ط3، 1412 هـ / 1991 م.

النويصر، عبد الله بن ناصر بن صالح، الأمانة شموليتها وأثرها في حياة العباد، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإسلامية، جامعة طيبة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع26، 2021.

الهاجري، مبارك سيف، وجوب العدل وتحريم الظلم، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، مج 21، ع65، 2006.

الهاشمي، عبد الحق بن عبد الواحد الهاشمي العمري، (1302-13092 هـ) لب الألباب في التراجم والأبواب، تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، لبنان، الكويت، ط2، 1432 هـ.

الهاشمي، محمد علي، شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ط10، 1423 هـ - 2002 م.

الهروي، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي (ت ٤٨١هـ)، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت.

هلال، محمد هلال الصادق، المرونة في العمل الدعوي: دراسة تأصيلية، جامعة أم القرى، ع61، 2014.

ولي، نور بيكم بنت محمد حسين بن حسن، التوجيهات التربوية المستفادة من المنهاج النبوي في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري لطالبات المرحلة الثانوية، جامعة أم القرى، كلية الآداب والعلوم الإدارية، قسم التربية وعلم النفس، السعودية، 1432.

يالجن، مقداد، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، ط1، 1406هـ_1986م.

يالجن، مقداد، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ط2، 1411هـ،

يس، نبيه، أبعاد متطورة للفكر التربوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1397 هـ _ 1979م.



An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

**EDUCATIONAL DIMENSIONS DERIVED FROM
THE BIOGRAPHIC OF THE CHAPTERS, ADAB
AND RIQAQ, IN IMAM BUKHARI'S SAHIH, AND
ITS IMPACT ON THE MUSLIM CHARACTER
BUILDING: AN ANALYTICAL STUDY**

By

Sumaya Abdul Rahman Abdul Jaber Tawafsha

Supervisor

D. Muhammad Al-Jitan

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of
Master of Fundamentals of Religion (Public), Faculty of Graduate Studies, An-Najah
National University, Nablus - Palestine.**

2024

EDUCATIONAL DIMENSIONS DERIVED FROM THE BIOGRAPHIC OF THE CHAPTERS, ADAB AND RIQAQ, IN IMAM BUKHARI'S SAHIH, AND ITS IMPACT ON THE MUSLIM CHARACTER BUILDING: AN ANALYTICAL STUDY

By

Sumaya Abdul Rahman Abdul Jaber Tawafsha

Supervisor

D. Muhammad Al-Jitan

Abstract

The study aimed to identify the educational dimensions derived from the sections of Good Manners and Form (Al-Adab) and to make the Heart Tender (Ar-Riqaq) in Sahih Al-Bukhari, highlighting their impact on shaping Muslim's personality. The researcher adopted an inductive and analytical methodology. The study was divided into four chapters: The first is an introduction to the concepts of the study. Secondly, it is to identify the spiritual, psychological, and moral dimensions. Third, is an in-depth analysis of the social dimensions, identified as core elements within the books of Al-Adab and Ar-Raqaq. Eventually, the characteristics of the Muslim personality will be presented in light of the four identified dimensions.

One of the most important key findings of the study is following: is the clarity of the Islamic educational theory for personality development as evidenced in the hadiths of Al-Adab and Ar-Raqaq in Sahih Al-Bukhari. This reflects the comprehensiveness of prophetic thought in al-Bukhari's knowledge, as conveyed through his chapter titles. Al-Bukhari's work reveals a profound educational and spiritual dimension. Focusing on nurturing sincerity, reliance on God, and resilience against worldly temptations and rivalry. The moral-educational dimension emerged through values such as loyalty, keeping promises, guarding one's speech, embodying modesty, and upholding honesty. The psychological dimension is evident in avoiding anger, self-discipline, cultivating patience and contentment, and fostering self-restraint. Similarly, the social dimension is reflected in strengthening family bonds, promoting social solidarity, and refraining from causing harm to fellow Muslims.

The study concluded, after analyzing the impact of the spiritual, moral, psychological, and social educational dimensions in the Al-Adab and Ar-Raqaq sections, that the educational formation of the Muslim personality is marked by comprehensiveness, integration, consistency, flexibility, and balanced positivity. One of the most important obstacles is following Satan, love of worldly life, succumbing to desires, and ignorance, which is the opposite of knowledge.

Keywords: Dimensions; Educational; Chapter Titles; Al-Adab; Ar-Riqaq; Muslim's Personality.